K H A L I L A L N E I M I

رواية
NOVEL

ABU ABDO ALBAGL

مدونة ابو عبدو

خليل النعيمي

القطيعة

إذا أعجبك الكتاب, فرجاءً حاول أن تشتري النسخة الورقية.
تذكر أن الكتاب العرب معثّرون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن استمرار عطائهم.
(أبو عبدو)

رواية
NOVEL

خليل النعيمي

القطيعة

القطيعة / رواية عربيّة
خليل النعيمي / مؤلّف من سوريّة
الطبعة الأولى ، 2010
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :

لوحة الغلاف : **سلمان المالك / قطر**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذ الطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات ، أونقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن مسبق من الناشر.
ISBN 978-9953-36-379-X

مقدمة الطبعة الرابعة

رأيتُ ، من أجل تسهيل النص بالنسبة لقاريء لا يعرف شيئاً من منطقة «الجزيرة السورية» ولا عن مدينة «الحَسَكَة» بالذات ، أو عن أحيائها الهامشية ، ولا عن المُدُن الأخرى التي تقع في فضائها (القامشلي ، عامودا ، الدرباسية ، رأس العين . . .) حيث تدور وقائع الرواية ، أن أضيف بعض الشُروح والتذييلات التي بدت لي ضرورية لتوضيح ما قد يكون غامضاً ، أو مُلْتَبساً ، على القاريء .
فأرجو المعذرة .

خ . ن

القسم الأول

(١)

- أنا خليل النعيمي ، من البوادي والسراح . في الثامنة(*) والخمسين ، وسنوات أُخَر ، أخرج . أخرج من البلاد والعباد . أخرج إلى العباد والبلاد . أخرج من الغار والمسار . أتذوق الليل . أتمتع بالنهار . أتناول الكون من أوله . أتملّى بامتعاض قاس سكونَ العالم الجاثم حولي ، بلا قرار .

سكون؟! توتر وانتظار .

صمت .

صوت .

حسّ ضَجّ غامض .

(*) المقصود هو عام ١٩٥٨ . وهو العام الأول من أعوام الوحدة التي تَمّتْ بين مصر وسوريا ، ونشوء «الجمهورية العربية المتحدة» التي مَثّلتْ حلماً أساسياً من أحلام الشعوب العربية . وأحداث الرواية تدور خلال سنوات الوحدة ، هذه ، عندما كان الراوي فتى في أوائل سنوات الدراسة الثانوية ، في «تجهيز الحسكة» .

دبيب هائل . عديد . متواتر . وعنيد .

دبيب القدم القادمة من بعيد؟؟ على التو أَلْزَقُ الحائط : الحائط الصدىء المُعمَّر من حجر الجِشّان . ألزق ، وأنا أحث البصر على اللمح ، والبصيرة على المسح . آه! النوء يتغير فجأة . والرغبة كذلك . وكذلك الرهبة والانكسار . في الأفق الساقط بعيداً ، يتراءى لي الزول . والزول يتقدم باستمرار . وهولاً ، هولاً ، تغدو العتمة زولاً : آه ، يا هلا يا عباس! وأمام ناظريَّ المكبوبَيْنْ يتنحنح الزول . ومن جديد ، أتهلّلُ قولاً بعد قول : يا هلا يا عباس! العباس يتسلل خلسة من الفضاء إلى المضاء . ينفذ ويروح كما الروح . ولا يبقى من الفَوْت سوى الصوت : آه! على كأس شاي ساخن أزُيِّتُ به حلقي ، آه!

كأس شاي!؟ كأس شاي!؟ أردد بحرقة واكتئاب . العالم يغدو هباباً . أحسه يتطاير ، أمامي ، كذرات التراب المسفوحة في الريح : لا هيئة ولا توضيح . غمام فوق غمام .

العيون تظلم أم الليل!؟ هذا الليل الآتي من بعيد ، حاملاً أَكْوام البشر والعجاج ، نافخاً في الجو سماده ورماده . خلاء وظلام . وفي أعمق أفواهي يتدفق الكلام : الكهرباء بعيدة . والليل يظلم أكثر فأكثر ، وباستمرار . والحسكة تسْتَدْبِرُ «غويران» . تمسك به من الذيل . تدفعه بعيداً عنها . لا تعطيه ضوءها ولا رؤاها . له البر والقتام .

«غويران»(*) العجيب مأوى العمال والدلالين والمتواطئين والمتوترين وبعض البدو والحشرات وبنات - آوى والحُصَيْنيّات وآلات الحرث المزتوتة وأكوام الزبل المرمية وحُفَر الماء والأحجار والأشجار المنخورة والحشيش . به ، تتجاور مقالع الجِصّان التي انبنت منها الحسكة ، بيتاً بعد بيت . وعلى وجهه المحفور ، تتراصف محارق الجِصّ والسماد . وتنتشر في أنحائه مساطب البُرْغل والعتاد . وهنا وهناك ، تتكدس فيه القمامة . قمامة المدينة المضيئة ، لصقه ، في الشمال : «الحسكة» الغبراء ، ذات المدى الشاسع والنهرين ، آه! يا ليل يا عين : من هنا «الجَغْجَغْ» ومن هنا «آلخابور»! ومن لا يصدق «يثور» .

بلى؟ الحُفُر والقمامه واللمامة والماء ، تلك هي مكوناته ، وعوامل جذبه للنسوة العابرات . نسوة الاقتراب والانتصاب . حَمَّالات الحطب . مَصَّاصات القصب . أوّاهات البَطْحة . الممددات ظهراً وبطناً وعلى الأجناب . والحنطة تعلو فوقهن : حنطة صفراء ذهبية تميل مع النعماء حيث تميل . حنطة ابن «جليوى» حنطة ابن الكلب : الحنطة العتيدة التي يخترقها الدرب الضيق ، والذي يضيق عاماً بعد عام . تغزوه سنابلها

(*) كان «غويران» فضاء هامشيّاً مُباحاً في تلك الفترة . لا يسكنه إلا المُعْدَمون ، والقادمون من «لستُ أدري من أين» ، كما يصفهم سكان مدينة الحسكة ، تعبيراً عن احتقارهم لهم . وقد كانوا يستخدمون «غويران» لرَمْي نفاياتهم . وعندما يمرون بالقرب منه ، كانوا يسدّدون أنوفهم ، اشمئزازاً .

المتوحشة المجنونة . تلك السنابل الطويلة الميَّالة التي تغشي الأبصار ، وتخفي الكون عن الأنظار . الكون اللَّبِق والشبِق ، الذي نمر فيه جسداً فوق جسد ، والذي ، في فضائه الممتد حتى النهر تتمدد السمراء . تتمدد هَوىً وخجلاً ولهفة واضطراباً . تتمدد وفي عينيها اللامعتين تنعكس سماء الجزيرة الزرقاء . الزرقاء حتى الموت . تنعكس فيهما ، أيضاً ، حركات زنديها الطويلين وهما يَشْهَلان الثوب . يُشَمِّران عن الجسد الأزرق المشدود . يكشفان وركيها الفَحْلين المنقذقين كالرماح . يعريان الفخدين والعانة والرمانة والجفر .

تكشف ولا تنكشف! تسترها الحنطة الحانية . الحنطة الملعونة التي تعلو القاع والرقاع ، والتي يسقط الشهيق فيها على الشهيق . ولا أعود أفيق . وَتْحمَرُّ الحنطة . وَتْصفَرُّ . واللهاث اللحوح ، منها ، يتلو الهاث : لا تُفوِّتْهُ بي دخيلك ، لا تُفوِّتْهُ . وأُفوِّته . ويُحول الحَوْل على الحنطة . وتغدو السنابل ، منها ، هشيماً : بعد اخضرارها الداكن يملأ اصفرارها الباهت الفضاء . يملؤه ، ويغريه . يُميته ويُحْييه . ومن جديد ، يتَسَلْحَبُ الخابور ماسحاً «رأس العين» . نابعاً منها . فائضاً عنها . ومن جديد أيضاً ، أمسك العود المنتج . أفركه بقوة على المبيت . ولا أعود أسمع إلا النهيت : فَوِّتْهُ بي ، دخيلك ، فَوِّتْهُ . فَوِّتْهُ . وأفوته . وتتلامس السنابل الحُمْر الصُفْر المشحونة . تتلامس عميقاً . وتُلامس أهدابها الشفراوية ظهري العاري . تحكني في البشرة

حَكّاً . حَكّا! ورهبة ، أنقُزُ . أمسّ العالم دفعة وبلا اطمئنان . عضلات صلبي تتقلص مثل أفخاذ الفئران النازية تواً . والسؤال يتلو السؤال : الحنطة حنطتكم؟ لا . أحنا حواصيدها . . حواصيدها؟! وتقفز كالظبي الذي رأى الصياد . تقفز وهي تدفعني بعيداً عنها . تدفعني يداً ، وقدماً ، وبالأنحاء جميعاً ، وبلا استثناء . وأسقط على الحصى والتراب . الخوف يملؤني والخراب . صوتها الذي كان يفيض بالغبطة والانتشاء ، صار علامة الحَبْطَة والخواء : يومي دنا يا خليل . الرجل شافنا . يا ترا عافنا؟ ومثل الغيمة المفجوجة التي تُفْرِغ ، دفعة ، حملها الساخط بالماء ، صارت تذوب وهي لم تبرح المكان . اللعنة! هي الأخرى ، قبل الأوان تموت؟! كدتُ أكسر جذعها المتهالك . أزتّهُا ، كلها ، في الماء . كنتُ أريد أن أبلع الحقل كله . أن أشْلَعَ الحنطة وألقي بها ، مع العالم ، في الريح . وأن أهيل ، بعد ذلك ، التراب . أخلط القد بالمد . بهذا السماد المتراكم أمامي ، وهذا الحجر والشيح ، بمن أصيح الآن . بمن أصيح؟! الخوف الراعش ، الذي حل في الربع ، خرب الشهوة والاحتقان ، وكالمعتوهة الحمقاء انتشلتني ، مرة أخرى ، من الغيم : سمعت حس التنك ، الوَرّادات وصلن . واهتز كالبركان الذي قارب الانطفاء : الواردات؟! ورادات ابن جليوي . ورادات ابن الكلب . منيوكات الحنطة والشعير . الرافعات ذيولهن باستمرار . الكاشفات للريح أعضاءهن . عليها ، تقع الشمس عمودية . عمودية . وبلا قرار . شمس الجزيرة الحارقة ، التي تُكَبِّل الأنظار ، وتملأ الانحاء شهوة

وانتشاراً . وكأنني لم أفهم الحال حالاً ، أعود ، قبل أن أتدبر الأمر ، أنَطُّ . أنط وأحُطُّ . أنط كالمسعور وبلا اتفاق . وتقع العين على العين . والحلمة على الحلمة . والسرة على السرة . والطرف على الطرف . ويظل الرأس قاسياً ومرفوعاً . والكيان يهتزُّ ويلتزُّ . وَطيٍّ رأسك ، الورادات وصلن . الورادات اللواتي سرعان ما يَرِدْنَ النهر . يَخُضْنَ مياهه الموحلة الصماء . تشق المويجات الصغيرة سيقانهن شقّاً . شقّاً . هن الأخريات ، يبحثن عن الاحتماء والارتماء! خوضي يا وَلّي . خوضي . الجزيرة ساكنة وأمينة . والحر يقتل الخنزير . وأكاد أرى الانطواء والانضواء : الواحدة تَلْحق الأخرى . الواحدة تَلْعق الأخرى! ويروح رأسي يغوص . يغوص في المفْرق اللَّحيم عميقاً . ولا أعود أسمع إلا النقيق : نقيق الضفادع الخاتلة ، مثلنا ، في الأخماج ، وصرير الأحياء الأخرى التي ترد الماء حَرّى ، وعنه ، تصدر وهي مثل ذلك! وأصير أضرب الضوء والفضاء . أحمي جذعي العاري من البَقّ . البَقّ اللعين الذي لا يكف ولا يعف . بق ابن جليوي . بق ابن الكلب . وفجأة ، كالمسحور ، يهجر البق فضاءنا وحِمانا ، يهجرنا ليلحق السابحة في البعيد؟ وفي لهب الرطوبة والنار ، يصير غماماً ، يحيط بها ، وهي تطير ، مثل أنثى الجاموس : شَمْراً ، شَمْراً ، والماء يدفع بجسدها المكتز في الماء . الماء يضم الساق ، يحف الوركين . يلامس العانة ، يصل الباب . وبالباب ينذهل الماء : يتأخر . يتقدم . يتراجع . يتضاجع . ومن ثم يلثم الباب قبل أن يلجه من جديد .

وتَتَكَرْكَرُ الجاموسة . تَتَكَرْكَرُ ، والماء يدخلها ، وهي تدخل الماء : أوفْ الميـة زينة . حـارة . وَحْلها كـثيـر . وعـودانهـا تلزق بالجـسـد والروح . وتومىء من بين الماء ، على الورادات : الميـة هينْ عجيبة . فـيها شيء يدغدغ . وفيها شيء يعض . وفيها ذيول مـثل ذيول الخـيل . وشَـغْـلات مـثل شَـغْـلات الزِلْم . والماشافَتْ تجي تَشوفْ . ويملأ تنفسها الفضاء . وأحس أشفارها العـميـقـة تتحرك مثل ألسنة الحشرات الملتهـمـة وهي تداعب الفريسة والقرار . ويظل الماء يرتفع . يرتفع ، حتى يغرق الماء في الماء . ولا يبقى منها إلا الكتفان النافرتان ، تسلقهما الشمس المجنونة سَلْقاً : شـمس الجزيرة العاتية المتسلطة . وخلسة بعد خلسة ، أَشْهَلُ رأسي هائباً ومريراً . ألاحق اللعبة والمسار . أتابع الجسد المهيب المستلقي على الماء . ومن خلل الأشجار الخاضعة ببلادة لسلطة الحر والهجير ، أتملّى الجُثوم والحُسوم ، أتَسَقَّطُ ارتسامات الحائط الأبيض المُعَمّرِ من حجر الجِنّان(*) . الحائط المهدد ، منذ الأزل ، بالسقوط ، والذي يبقى ، مع ذلك ، واقفاً باتزان! وكالرُّغاء المسحور أسمع ، في العمق ، بعض لَهيجي : جوعان ، يُمّا جوعان . وسريعاً ، يضيع ذلك الغثيان الرتيب في الضجيج الأصم : ضجيج أحياء الجزيرة المسعورة . الأحياء التي لا تكف عن التكاثر والالتهام . أحياء الشجر الذي يتشاجر .

(*) حجر كلسيّ هَشّ ورخيص لونه عادة أبيض ، منه يبني الهامشيون في أطراف الحسكة بيوتهم . وكان "غويران" مَحْجَراً كبيراً لهذا النوع .

آكل الجزيرة والريح . الشجر الحارس . نهاره عابس . وليله دامس . هو الآخر ، صار يصيح . يدل على العابر والسائر . شجر نَمّام! شجر الجزيرة اللعينة . جزيرة ابن جليوي . جزيرة ابن الكلب . العالم كله لابن جليوي ، يا خلق! يا ناس؟! له الخابور . وله الشواطىء والأرياف . له الغَرَب والحور ، ومساكب البصل والفجل والرشاد . له ، أيضاً ، حقول الحنطة والشعير ومَطَشّات العدس والأقحوان . له النوء والضوء والماء والرواء . وفجأة ينبثق الدوار : الخوض يتلاحق والسطح يتساحق . وفي الفجوة يتراءى لي الجلد . وللجلد مرأى آخر! الشجر أخضر . البقُّ أبيض . الخنافس سود . الأسماك حمر . العشب أبلق . الماء لُحميّة . لكن الجلد الطالع والمسحوب له الألوان كلها .

وله الأشكال كلها . ومنه تفوح جميع الروائح والأحماض . الجلد الملعون . جلد الجاموسة الراكبة الماء ركبا . وكالقنفذ العَسّاس أحمي الرأس بالغصن الظليل . وأدع العينين تتسلقان حِبال الشمس حتى الغياب ، وأنا أتختل بين الشجر الكظيظ : شجر الجزيرة المحمية من هنا ومن هنا بالماء . جزيرة البَقّ اللحَّوح والضفادع النَقّاقة وحَيَايا الماء المسعورة والأسماك النهمة وأحياء الكون الأخرى والزنابير المتوحشة المجنونة . زنابير ابن جليوي . زنابير ابن الكلب . الواحد منها يأخذ الآخر حتى الموت . يركبه . يَعَضّه . يَفُضُّه . ويرخ الثغْر ويضرْخ واهاً! واهاً! وهو يرى إلى العينين تمتلكانه امتلاكاً لا حدود له ، ولا قيود .

وكالهالك ، يردُّ الجسد نفسه إلى الماء . وأحس تَكَسُّرات أطرافه المذعورة تدفع الموج ، دفعاً ، تنأى . تنأى سراباً بعد سراب . وعلى القاع المنكرة اليابسة يسقط الرأس مني صريعاً . وسريعاً ، يملأ غبار الوهن جذعي حتى الموت . ويصير الخابور شريطاً فضياً غائماً ، لا ماهية له ولا إسناد . الخابور الجائف . خابور ابن جليوي ، خابور ابن الكلب .

ابن جليوي(*) يروي زرعه من الخابور . من الخابور يسقي طَرْشَه وحَلاله وحَرامه . للناس يبيع ماء الخابور بيعاً . وهو ، أيضاً ، يُحوِّلُ ماء الخابور إلى أشياء! يحوِّلها إلى ألوان . إلى أصباغ . إلى ثلج . إلى بوظة . إلى كازوز . إلى سبيرتو . إلى كحول . إلى حنطة . إلى شعير . إلى مَغَر . إلى دُهون . إلى فجل . إلى شوفان . إلى عدس . إلى شوربا . إلى مَرَق . آه! إلى مَرَق المرق . المرق الدهين الفضّي اللمّاع المفَلْفَل المُبَهَّر المُبَخَّر باستمرار . مَرَق روح الدجاج والبصل والقراص . ذلك كله :

(*) قبل الوحدة بين مصر وسوريا ، كان الإقطاع منتشراً في «الجزيرة السورية» ، حيث السهول الشاسعة الخصبة مزروعة بالقمح والقطن والشعير وغيرها . و«ابن جليوي» يرمز إلى «سلطة» الإقطاع آنذاك . الإقطاع الذي كان يستغل كل شيء : الأرض والفلاحين والعمال المياومين وحتى الأطفال الصغار الذين كانوا يعملون ليل - نهار في الحقول ، ومنهم «الكاتب نفسه» . ومع الوحدة جاء «قانون الإصلاح الزراعي» الذي حدد الملكيات ، وأعطى حقوقاً ، ولو ناقصة ، للفلاحين والمزارعين .

الماء! الماء المنشور ، أو الماء المنثور ، الماء المَعبّأ أو الماء المخبّأ . الماء في قدور . في أحواض . في زجاجات . زجاجات طويلة . مربعة . مستديرة . مضلعة . ذات حنايا أو زوايا . أو بلا أركان . زجاجات قعورها نازلة ، أو مرفوعة . قواعدها بارزة أو خفية . عنقها طويل أو قصير أو لا عنق لها على الإطلاق . لكل كائن مشروبه . لكل مشروب وعاؤه . لكل وعاء شكله . والكل ماء! ماء يحوي ماء ، يحوي ماء . ومَنْ يملكُ شيئاً يشتري به الماء؟ ماء الخابور الداشر في الفضاء .

آه! عباس لا زال يَثْوي في الزاوية . يثوي ، بانتظار كأس الشاي الساخن الذي لن يراه . حلقه ناشف من الهرب والاغتراب . وكما كل ليل ، دَلَف الليلة ، منتظراً ذلك السائل الأصفر الحار ، المخلوط بالقرفة والبهار ، المحلى بمصل السكر والزبيب : السائل المريب! الذي يتجرَّعُه جرعة جرعة وهو يدندن أغنياته العذبة المجروحة . أغنيات الوجع والحب والعتاب . وكما كل ليل ، تنحنح الليلة ، أيضاً ، مذكراً رَبْعَهُ بوجوده الملتَمّ ، والطلب يلحق الطلب : ما تغني يا عباس؟!

وفعلاً ، يصير يدمدم . والدمدمة تغدو همهمة . وشيئاً فشيئاً يرتقي الكلام . ينطلق الحس . يُدوَيّ الرواق . ويجتمع العشاق ، مثل السكارى ، مع العشاق . ويظل ، من حين إلى آخر ، يهتف ، عباس : آه على كأس شاي ساخن أُزَيّتُ به حلقي ، آه! والشاي لا يجيء . هذا المساء لا يجيء الشاي .

ومع ذلك ، يظل الكلام ينبثق مثل طلق الرشاريش : كلام يشق الحلق . يباغت الرأس . يخرج من جوف عابس ملتاع . ومثل الشرر الذي يُنبيء بالحريق ، ينبىء الكلام باللوَّعْ والاحتراق . يملأ الليل اضطراباً . الليل القديم الجديد : ليل الحَسَكَة المستمر . وبهدوء ، يتناوش عباس القمر الأبيض الصافي الذي يرى ساكناً في أعالي الهضاب . يتناوشه ، وهو يهدهد الكلام بالكلام . فلا يتحرك الليل . ولا يتحرك القمر . ولا يخلص الكلام . وتظل الأفرشة ، كما كانت دائماً ، يخالط بعضها بعضاً : فراشاً لصق فراش! في كل فراش كائنان . لكل كائن جسدان . في كل جسد أربعة أعضاء . أعضاء تتشابك وتتلابك . ويظل هو وحده يعاني الليل ، وحيداً . وفجأة يتململ . يقفز . يطير . وتخلو الزاوية من كل شيء : منه ، من الصوت الغريب . من الأشجار . والأحجار . والشاي الساخن لم يكن قد أتى بعد . شاي آخر الليل : شاي قبل أن يختفي عباس . وأرى ، من قريب ومن بعيد ، لمع قدميه يلوّن البر الكالح . يلونه بدوائر حُمْر نارية مثل لهب التنور : دوائر مخروطية عاجلة . تتباعد وتبتعد معاً ، وهي تذوب بقسوة في الليل . وفي الليل أخرج ملوماً محسوراً ، وأنا أنده : عباس! وَيْنَكْ يا عباس؟ ولا ألقى إلا تكسرات أغنياته المتلاحقة تأتيني هذباً هذبا .

وَهذْباً يختفي عباس . عباس يبحث عن عمل . عن

معاش! الحال واقف وماء الخابور ماشٍ . ماء الخابور الذي يجري وحيداً . لا مالك له إلا اللّه وابن جليوي . وبقسوة أصرخ من جديد : عباس! وينك يا عباس!؟ ولا أرى إلا صَفْق أجنحة الطير . طير الليل الخائف الوجعان . أصرخ والبلل يأتيني من الجوف . من الحلق . من العين . عباس لا يزال يبتعد . يبحث عن حياة جديدة . عن عِشْرة جديدة . عن أصحاب جدد . عن أحباب جدد . عن أغنيات جديدة . عباس . عباس! وأحسني ، بهدوء كامل ، ألتَمُّ بين ذراعين أليفتين : عباس ما هو من رَبْعك . عباس عامل وأنت بالمدرسة . وكالجرذ المذعور انفلت . ألحق عباس المبتعد مع الليل . أحاذي أخاديد الدور الطينية الحائلة : دور غويران العبيط . غويران الذي خَلّه عباس . آه ، العالم كله نائم! السكون يملأ القلب ولا أسمع إلا الركض : ركض تنفسي المنهك وأنا أركض باستمرار . أركض مرتجفاً كالمطلوب دماً ، وأنا أتلَمَّسُ الحيطان : عباس! وينك يا عباس!؟ عباس لا ينام . عباس لا ينتظر . لا يقعد . ولا يقوم! ومثله أروح وأجيء . ومعي ، يروح القمر ويجيء . وكما غاب عباس فجأة وذاب ، يذوب القمر ، فجأة ، ويغيب . يغيب ، ويدعني مع الظلام وحيداً وحيداً . وبغيابه تستحيل الحيطان ظلالا سوداً يابسة هابطة من السماء . تغيب الانعكاسات الباهتة التي كانت تنتشر في الفضاء ، أيضاً . ومن عمق الليل إلى عمقه ، لا يبقى حولي إلا الكلام : جيت؟! ما قلت لك عباس راح . عباس عامل يُدوِّر على عيشه ، وأنت بالمدرسة . آني بالمدرسة؟

مدرسة ابن جليوي . مدرسة ابن الكلب . مدرسة الماء الموحل والظمآن . ماء الخابور القاحل . خابور الورادات اللواتي لا هَمَّ لهن إلا حَكّ أطيازهن على التراب ، وربط بطونهن بالأحزمة الملونة المجدولة . واللواتي على أكتافهن ترتكز بعناية ، قواديس الريّ الفضية ، ذات الحواف المدورة ، المحشوة دائماً بالماء . الورادات الشبقات الأمارات النفس بالسوء . المالئات الفضاء بسيلاناتهن الزنخة ، المكروفة من بعيد - سيلانات العرق اللاذع والحماض - وبلزوجات إفرازاتهن الغامضة ، المنبثقة من أسفل والسالكة الفخذين حتى الرغام . تلك اللزوجات التي كنتُ أتمنى لحسها لحساً . لحساً . ولم يكن ذلك بالمستطاع! من أمتى ما أغتسلت يا خوخة؟ نسيت ، ما عدت أدري - وأنت يا هبرية؟ آني أغتسل من الحيض للحيض . من الحيض للحيض!؟ والخابور يجري عويلاً . عويلاً . مياهه بنية وَحْلاء . يغيض صيفاً . يفيض شتاء . وهو كله متروك لابن جليوي . متروك لابن الكلب . للتربة التي لا ترتوي . للجيلان . لسواقي القطن الطويلة الممدودة حتى السراب : سواقي عباس التي حفرها بزنديه وبَثَّ فيها الزرع . والتي ، منذ أن بزغ القطن منها وصار جروساً ، كل شيء تغير فيها : تغيرت القاع . تغير الهواء . الآخرون تغيروا ، كذلك . تغير النهر أيضاً : مهدت الورادات لهن ، حوله ، مطارح جديدة للغرام ، وغدت الواحدة ، منهن ، تَنْبطحُ ، وهي تقطف أزهار القطن البارعة ، معطية كيانها الخلفي ، للريح! خلفها ، يَنْسَدِل الغول . ينوشها . يحوشها .

وشيئاً فشيئاً يدخلها حتى السواء . وماء الخابور ينقص عاماً بعد عام . يذهب به ابن جليوي بعيداً . بعيداً ، حتى الهضاب . يمرره على السهول ، أولاً . ومنها ، يرفعه عالياً حتى السماء . يرسله عبر اسطواناته المعدنية الهائلة أين يشاء . وعاماً بعد عام ، حلت الأشياء محل الكائنات : لم يعد ابن جليوي بحاجة إلى عمال . لم يعد بحاجة إلى حفارين . ولا بحاجة إلى سقائين ، صار كالمرار يكفي نفسه بنفسه! وعباس سرى يبحث عن شغل . عن معاش . والشرح يتلو الشرح : العيشة صعبة وأنت بالمدرسة . والمعلم يطلب عليك ليرة : ليرة للورق . ليرة للغرق . ليرة للقرار . ليرة للفرار . ابن جليوي لم يعد بحاجة إلى أحد . الناس سَوَّتْ له كل شيء . العرب تحوم حوله مثل البَرْغش . تأكل الأخضر واليابس . تلقف ما يزتّه لها من نفايات وأزيال . حتى بَقِيّ حطب القطن اليابس أخذوه! حطب الأغصان الرمادية التي حِشْناها غصناً ، غصناً . ونَتَفْنا ريشها الأبيض الناعم ريشة . ريشة . الريش الذي وقفنا محسورين ونحن نراه يُحْمَلُ حِمْلاً بعد حِمْل . يُحْمَلُ ، بعيداً عنا ، إلى المدن النائية التي لم نرها قط : حلب والشام وحمص وحماة . بلى! المعلم يا وليدي بدّه ليرة . والليرة بدها شغل . والشغل عند ابن جليوي . وابن جليوي ما يريد . وعباس سرى من أول الليل . سرى يدوّر على شغل . ابن جليوي كفاه الخابور . خابور ابن الكلب . حتى المَيةّ صارت علينا! وأؤكد باكتئاب : سرى من أول الليل! وفي كياني الخفيّ تتفاعل طُعوم اغنياته .

أغنيات منتصف الليل . تتفاعل وهي تتلاشى ، مثل عرق العمال المستريحين مساء : رويداً رويداً وبانتظام . تتلاشى ، وهو يقودني من اليد إلى اليد : تودّيني وينْ يا عباس؟ تعال . تعال أسولف لك . وسريعاً نختفي وراء الدور .

على كتف العَلْوة نقف جنباً إلى جنب . ويتطلع عباس إلى الغروب : الشمس تقع في الوجه . الفيء يمشي وراء . والسكون شديد الوطأ وقاتل . وأحسُّ كوعه يلامس زندي : ضربته بالكاروك على رأسه وانهزمت . وأجْفُلُ جفلاً . جفلاً : ليش يا عباس؟! ليش؟! ويحسني عباس من المفصل إلى المفصل ، وعيناه تقعان في قارة الضوء الآخذ بالذوَبان : مَرَّت الزينة وآني اسقي القاع . ورفعت ظهري أدحق بيها . وانكسرت الساقية . وسالت المية على القواطيع وهجمت على المية مثل السبع أردها عن البر . وصمت عباس . صمت المحيط كله . كانت الشمس لا تزال تولي الأدبار . وتنفس عباس عميقاً . وهزَّني . هزني بعنف . كاد يقطع وصلاً من أوصالي : وامتلأت البرية ضحكاً وصخباً . الزينة تدحق عليَّ ، وأنا أدير المي . وسمعتها تقول : شوفي ، يا وَلّي ، شوفي حَنْيَة ظهره مثل كتف الشعيب . وسكت عباس . كان الدمع يتجمع في المقل السود المسمومة . مُقَل عباس الحمر اللاهبة . وبَعْدينْ ، يا عباس؟ وبعدين؟ وما أدري ، ألا والكلب ابن الكلب يَتْفل على وجهي ، ويقول : اللي يسقي أراضي الناس ما لازم يدحق على اطياز النسوان .

وأحسست بالجنون يركب رأسي ، مثل العجاج . يدوخني ، والنار تأكلني أكلا ، آه! بَسْ لو ما تَفَل على وجهي ، آه! وما أدري إلا والكاروك تشق رأسه . والدم منه يسيل ويسيل . ومع الريح اختفيت . اختفيت ، وتركته ، مثل كوم الحطب ، مطروحاً على القاع . وانحنى على النهر عباس . انحنى يتملى النهر الأحمر الموحل وهو يضيع في بطن الوادي . يتسرب تحت الشجيرات الفضيّة ، البائسة ، المحملة بالثمر الرديء . وفجأة غدا واقفاً مثل عمود التيل ، وتنهداته المستمرة تختلط بالحرارة الراكدة ، المقيتة : كلما القى شغلاً انطرد منه! اشتغل بدراهم يطردوني . اشتغل بلاش يطردوني . ما اشتغل يطردوني . وأصل المشاكل كلها الطيز . وأتنفس أنا الصعداء : الطيز!؟ طيز كَهْلة ، المنتفخ مثل لغديها ، واثداؤها البارزة كالبطيخ ، ورائحة نزير إبطها ومغبنيها ، وزنخ الجسد الذي لا يعرف الغسل إلا من الحيض للحيض . ويبدأ عباس يدمدم ، من جديد ، اغنياته القديمة : غنّ يا عباس . دخيلك غنّ . أنت كمان تحب الغنا يا عَجي!؟ المدرسة ما علمتك شيء؟ مدرسة ابن جليوي ، مدرسة ابن الكلب . المدرسة اللعينة اللاصقة بالخابور ، المحاطة بفضاءات القطن اليابسة المنهوبة ، وبالمساحات المزروعة حنطة وشعيراً . والتي في هوائها القاحل لا تتردد إلا عبارات القرف والتوبيخ : أنت ما عندك مقعَد!؟ أقعد على الأرض ، أستاذ . ويستدير رأس الأستاذ الأصلع الصغير ، وهو يسد منخريه الحصانيين بأصابعه المعدنية : أقعُدْ وينْ ما بدك ، بَسْ ابعد

عني هذه الرائحة . ابعد زنخك عني . ومن الفوهة السمراء الراجفة ، تظل الكلمات تتلاحق في نسيم العصر . وأحس بجلدي يكشُّ . ويقشعر بدني مثل بدن العصفور المجروح . عباس ينظر في الغروب : اليوم كمان أسرى . أدور على شغل . ويغدو لساني ثقيلاً مثل الصوف المبلول : أريد أن أقول له شيئاً ، ولا أقول!

وأعطي وجهي كله للتراب . ويتنحنح عباس من جديد :

آه على كاس شاي ساخن أُزيْتُ به حلقي ، آه! ويروح الصوت بعيداً . ويجيء الصوت . وتكبر الدنيا . وتصغر . ويتجمع الكون كله ، ويتلاشى . ويغدو الخابور خيطاً من الوَبَرِ . متيناً ليّناً . ولا يكفُّ عن السيلان . وتستقبلني القاع بصمت . دون احتجاج أو لجاجة . واستدير فوقها . وتستدير . وانظرها بعينين متوحشتين ، ولا أرى إلا الضياء الباهر ، والفعل العنيف . وشيئاً فشيئاً افتح فمي كفم الزقزوق ، ليسقط فيه ، دون اهتمام ، طرف الثدي الدهين . ثدي كَهْلة اللين والعرقان ، ذو الجلد الأملس الثخين . وأذوق الحلمة : مالحة ، حامضة ، ومريرة . تملأ اللسان لزجاً ومخاطاً . وأحس رأسي مَدْكوكاً . يجثم الشيء الهائل فوقه ، باستمرار : شيء معتم . فاغر فاه . وبلا قرار! واجدني اختنق . لا يفيدني التململ والحوصان شيئاً : الشيء الغريب يحيط بي إحاطة السوار بالمعصم . ومن هنا وهناك ، يجللني العرق والنز . عرق العصر الشديد ، وهو

يسقي ثنايا الأرض ثنية ثنية : دير المي هين . ودي المية هناك . سد الجال . اقطع المية . اقطعها : الأرض ارتوَتْ . الأرض إلتوَتْ .

إلتوت!؟ وأفزُّ . . أفز : عيونك حُمْر مثل الدم! فِراشُ عباس خالٍ . الأفرشة الأخرى يدفئها الفساء والضراط : فساء الفجل الحار ، وضراط العدس الثخين . ومثل الديك الصغير أنطُّ تاركاً كل المكان . وعلى صخرة الجِثّان البيضاء البعيدة أقف . أمد عنقي إلى الأفق . أرى في العرش ضباب الشمس التي ستطلع بعد قليل : أبيض ، نحاسياً ، بطيء اللمعان . وأرسل بدني كله إليها . استقبل طلائعها النفاذة . أتَنَشَّقُ ، عميقاً ، هبوب الفجر النقي . ودفعة واحدة ، استدير : آه! غوبران كله يجثم ، تحت الفجر ، في الوادي المليء خراء وأحجاراً ونفايات . تَلُفُّه غَفْوة عميقة ، طويلة ، وبائسة . أحصنة السقائين لا زالت تهمهم في مرابطها . ودواب هميدي ، لا زالت مربوطة إلى معالفها . وبناته العديدات لم يبدأن ، بعد ، حركاتهن العصابية الفاجرة ، التي لا تنم إلا عن عدم الاكتفاء . والحسكة ، البلهاء ، كلها ، مزتوتة على شاطىء الخابور ، مثل السمكة المقتولة : لا حس ولا حركة ولا حياة . بها ، يحيط قطن ابن جليوي ، قطن ابن الكلب : أخضر . نقياً . شديد الرواء . أغصانه المزهرة تتلاصق بإخاء : بين الغصن والغصن غصن آخر!/ عباس . وعباس سرى يدور على شغل يأكل منه . منه يتجوز . يبني بيته منه . ومنه يربي

أولاده وأهله والدواب . بس الشغل وين؟! القاع كلها مزروعة ، ومحددة .

والعسكر تحمي الحدود / عباس .

عيونك حمر مثل الدم . مثل الدم الأحمر الأسود الأصفر . دم الدجاجات البُرْش التي انذبحت ، واحدة ، إثر أخرى ، في قلب الليل . الدم الذي اِنْدَمَّ تحت الأرض .

قف! قف للتفتيش!

ويرفع عباس يديه ، عالياً ، حتى السماء : ما عندي شيء .

ما عندك شيء؟! أوصافك تدل عليك : أسمر . مخطط . طويل . رفيع .

وجهك يُخوّف . فَكّك يرتجف مثل فَكّ البعير الهائج . علامتك الفارقة : الحقد . عيونك حُمْر مثل الدم . مكتوب على جبينك القتل .

قف! قف للتفتيش!

ويقف عباس في الأرض خالياً ، وغريباً . ويرفع ، يديه عالياً حتى السماء :

ما عندي شيء . ما عندك شيء؟! أنت الذي قتلت الكلب ، كلب صاحب الأرض ، وهربت .

وأنت الذي كسرت رأسه ، رأس صاحب الأرض ، وهربت .

تحقد علي الدنيا وأهلها . أوصافك تدل عليك : عيونك حمر مثل الدم . وأقفز ، صائحاً بهياج : عباس . عباس .

وتتملاَّني الوجوه الواجمة ، المحبوسة ، المحبطة : اِشْ كال العَجي(*)!؟ أِشْ كال؟!

العجي يقرأ قصايد . ما ينام الليل .

ويقترب مني حتى اللماس : القصايد ما تفكك . تَعَلَّم الكون(**) : حط لهذا عرقولاً ، وأضرب الآخر على رأسه ، وأطلب البر .

العسكر ، مثل أهل القاع ، مالهم لا أمان . ولا مذهب . ولا دين .

***

وأخيراً ، تطلع الشمس حمراء مثل الدم : شمس غريبة

(*) هو «الوَلَد الداشر» ، الذي لا أهل له ، وصار يطلق على أبناء الطبقة الفقيرة الذين يشتغلون منذ صغرهم من أجل العيش ، ولا يذهبون إلى المدرسة إلا في حالات نادرة جداً . وسيرد ذكر ذلك أكثر من مرة .

(**) هو القتال ، أو المصارعة ، بلهجة أهل بادية الشام . وهو يعني أيضاً الخصام والتمرد .

تنشر ، دون اكتراث ، أشعتها الأقحوانية فوق غويران . غويران الطيني الباهت ، الذي يبدأ الآن ، فقط ، تململه ، ويقظته .

وأطلُّ ، من علٍ ، نحو القاع . استبين الأزوال السود الهائمة التي بدأت تضيئها ، أشعة الشمس ، تواً : أزوال غويران النائم باستمرار . وفي الحضيض ، أرى الأصوات الحادة المكلومة تمر : أصوات الدلالين النابية . بين أيديهم الشوهاء الجائفة تَثْغو الخراف المكتوفة . الخراف المجهزة للذبح والتقصيب تثغو . تثغو محتجة ، محتجة! ومن أسفل ، ألمح أياديهم ، تعلو الغبار ، مشيرة إلى : شوف العجي ، من الفجر واقف على الحجر ، مثل الطير! ويختلط ، بإزائي ، روث أحصنة السقائين بالتراب الأسود المفعوس ، يتلاحق ، خلفها ، طيز كهلة الهائل . يتلاحق فلقة فلقة ، وهي ترد الماء ، حاملة تنكتها البيضاء الصدئة على الكتف مرة ، وعلى الكتف الآخر مرة أخرى . ها هي ذي تصعد العلوة بصعوبة . تقف فوقي . تسألني باعياء : إش بيك يا عَجيّ من الفجر واقف ، وعيونك حمر مثل الدم؟ / تسأل . تسأل . ولا أجيب . لا . أظل أتتبع تحاكُك طيزها الرغوي الهائل ، صامتاً .

وتبتعد فجأة ، كما بانت ، فجأة ، في الريح .

وتستمر الشمس بالصعود ، تضرب أول ما تضرب ، صفحة غويران الشرقية الخاتلة تحت التَلّ ، وبعد ، تنير المدرسة ، المدرسة المهجورة ، قبل أن تسقط على طريق الأسفلت المكَسَّر

والمفلوت : طريق النقطة سبع وأربعين . الطريق الذي سلكه عباس يوماً بعد يوم . ومن ثم ، يغمر النور وجه التل ، كله ، باعثاً حرارة فَجْرية صفراء في أوصال البياعين ، مبدلاً أمزجتهم الغربية بأمزجة أغرب منها ، وأشد لؤما . وأتبع الأشعة النفاذة عبر الواجهات المنشورة ، مباشرة ، على الطريق . الواجهات المشوقة ، المملوءة بالخرز ، والتمر ، وعناقيد العنب الخربان ، وحزم التين اليابس ، والأزرار الملونة ، وكُرات الخيوط الاصطناعية ، والدلاء البلاستيكية السود ، ولَفّات المَرَس القِنبّي ، وقطرميزات السكاكر ، والمحمصات البيض ، الحمر ، البنفسجية . وبفعل أشعة الشمس الباهرة ، هذه ، أصبر أرى ، بوضوح كامل ، مجمعات ذروق الذباب ، ذروق ذباب الصيف الفائت : أكواماً فوق أكوام . وأحس ، دون تلاعب ، توتر الباعة واستياءهم . وبغموض شديد ، أكاد أتبين منهم كلاماً أكثر غموضاً عن الوحدة ، وعن أمور أخرى كثيرة ، وهم يثرثرون! يثرثرون دون أن يتوفقوا عن إحصاء ما بقي عندهم من سكاكر وألعاب وآمال وخيبات .

وبرغم بَطاءة الشمس ، لافَتْ «كهلة» اللَّوْفَةَ واختفى طيزها عن الأنظار . الآن ، لم يبق ، في فضاء الفجر ، إلا نثار أصوات الدلالين ، وثغاء أفواجهم الحيوانية المرعوبة ، يخالطها نهيق حمير الحمالين المُقادة باحتقار! وبين هذه وتلك ، تُتابعُ أحصنة السقائين سيرها مجهدة . حاملة ماء الخابور من النهر إلى الظهر . صاعدة

كتف التل . هابطة بطن الوادي . وابن جليوي يعدها عَدّاً . عَدّاً : المي اليوم غالية . الدنيا مقبلة على حر شديد . يلا يا شباب . عدّوا البراميل . عدوها تمام . البرميل بليرة . ومن لا يدفع مقدماً لا يشرب . وتروح الأحصنة الحمر ، الشقر ، تجرُّ براميل ماء الخابور السائب . تبيعه لحساب ابن جليوي ، لحساب ابن الكلب . تروح جنوباً حتى الليلية . وشرقاً حتى مهاوي الحجر والجص . وغرباً حتى تل غرة . وشمالاً ، شمالاً حتى أواخر بيوت كُرْد الحسكة الواطئة المصنوعة من القش والتراب .

وكما كل يوم ، على طرف الجسر القديم ، جسر العبور الوحيد ، تتوقف الأحصنة مصطفة! تتوقف في خط طويل . طويل ، يكاد لا ينتهي . فاسحة ، هكذا ، في المجال ، لكي تمر سيارة المدير المعدنية الصفراء . مدير الشرطة الجديد ، بعمرته المدورة ، وأزراره الذهبية اللماعة ، وسترته الصوفية المفصلة بعناية وتركيز . على يساره تقعد امرأة باستمرار . امرأة ، هي الأخرى ، جديدة . يتلون خداها بلون البنفسج والخرنوب . ويتفتح صدرها عن هيكلين غضين ، صغيرين ، كهياكل أجراس القطن الرَويّ : هياكل صغيرة مدورة وبيضاوية معاً . لِدَنة طرية وقاسية أيضاً . نهود لم يلمسها أحد ، وكأنها لم تخلق لفعل كهذا! وأثداء كهلة تتدلى مثل أثداء الكلبة الولود ، توصل صدرها ببطنها ، وبطنها بعانتها ، ولها ملمس شديد الغرابة : ملمس رخو ، طويل ، ساقط حتى القاع! ومع ذلك ، يظل عباس

يعض ناجذيه ، عضاً : آه ، على فَرْكة من ثدي «كهلة» ، آه!

ومثل أسعار الغنم ، وأخبار المطر ، ومواسم الحصاد ، واستيلاءات ابن جليوي ، على الماء والقاع ، انتشرت بين جموع الدلالين والسقائين وأعوانهم وأشباههم ، حكمة «طايل» الجديدة : هذي مرا ما هي للنيج ، هذي للفرجة ، بس . عباس .

وتعود كهلة من جديد . وجهها أصفر مقتول ، شديد الإنهاك . لكأنها خرجت ، تواً ، من تحت أحد . تمر بي وهي تهذي : بس يكبر ابني أحطه بالمدرسة . أعلمه ، حتى ولو بعت حالي . وأنحدر وراءها شغفاً تغمرني الشمس الناهضة من تحت الأرض . تغمرني ، بأشعتها اللطيفة المبهجة . . وأحس بنوع من الشعور بالراحة والاستفزاز : الآن فقط ، بدأ غويران النائم يهب من سباته الطويل! واحد ينفض فراشه من التراب . آخر يلف أغطيته البالية بعضها ببعض . وواحد آخر يرفع فوق أكتافه الواهية كل مفارش العائلة . يرفعها دفعة واحدة ، وبلا استقرار . لكأنه في سباق خفي مع الآخرين . وفجأة ، يقذف الأرض بحمله العتيق ، ويركض عاثراً نحو البر : الدرك . الدرك . ومثل الخلد القديم يختفي كله ، في القاع! عباس ، هو الآخر ، يركض ، الآن ، هائماً في البر . يَتَختَّل من كَوْم إلى كَوْم . يمشي ليلاً . ينام نهاراً : أخاف أحد يشوفني . ولد الكلب كلهم متعاونين علينا : العسكر والمخاتير وأهل الخَبَرِ . أيْ! من يقطف عرنوس ينقتل . ومن يسرق دابة ينقتل . ومن ينهب كمشة

حنطة ينقتل . ومن يشيل كوما من الشعير ينقتل . والجوع لا مهرب منه ولا مفر . إن أكلنا نموت . وإن ما أكلنا نموت . الدنيا عوجا . ما عدت أتحمل . الدم . عباس .

الدم يفور أحمر . أسود . مُخَنْفساً ، وخليطاً : لا أصل له . ولا قوام . من قال إن الدم نقيّ عباس ، عباس لا يزال في البرية يضيع . يشرب الماء والدماء . والبرية كشّافة . البرية حمراء صاعقة . مملوءة شوكاً وأحجاراً وموتاً . بها أشياء وأحياء : أشياء كبيرة وصغيرة . وأحياء من كل جنس ولون . من لون الأرض . ومن لون الحجر والشجر والتراب . من لون الشوك والعشب والسراب . ومن الألوان جميعها ، مجتمعة كلياً أو جزئياً . والموت في البرية قريب . الموت من هنا أو من هناك . الموت من هذا أو من ذاك . آه الصوت الهائل المريع يتسلل فجأة مع السراب .

قف! قف للتفتيشَ

وترتفع اليدان عالياً . عالياً ، حتى الموت . وسريعاً ، تنخفضان انخفاضاً قاسياً ولئيماً : نَزّلْ إيديك يا كلب .

وبمرارة قاتلة تنزل اليدان . وبأسف واستياء ، تطاولان الهيكل الواقف في العراء : ما عندي شيء .

أسمر . مخطط . طويل . رفيع . من أمتى ما أكلت ، يا كلب؟

توني أكلت . توني .

أكلت وينْ ، يا أبن الكلب؟

أكلت وين؟! والخير معَبيّ الدنيا!؟

خير الخرا يا ابن الكلب . باين على وجهك الجوع من سفر سنة .

جوعان وتكذب كمان!

مد أيديك . دير ظهرك . وطي رأسك . اقطع أنفاسك .

وَيَتَلَوىّ كالنمر المَصْيود ، وهو يقضم الخيوط استياء : آه من الجوع والعسكر والمخاتير ، آه؟

وبعنف يدفعه الدركي «أبو زَبْرةَ» آمراً إياه بوحشية ولؤم : الحق الحصان ، يا حيوان .

وكالمسحور ، أتبع الزول . أتبع عباس المكَتَّف والمنَتَّف ، وهو يشحط حاله شحْطا ، لاحقاً أحصنة الدرك والمختار . وراءه أنحدر شمالاً إلى الشمال . أنحدر وأنا ألمس حائط الجِثّان الوسخ بيدي . وأحسه : جافاً . محبباً . مليئاً بالكدماتَ والثقوب! وبحقد ، أشحط عليه ذراعي ، كلها ، شحطاً ، وأصير أتلوَىّ من القيح ، وأنا أستقبل الماء ، والحسكة تستقبلني من بعيد . سراياها لامعة نظيفة . حيطانها بيض . مائلة إلى الصَّفار . حديقتها مربعة محروسة . حول زواياها تقوم ، عالياً ، أعمدة

فضية طويلة . أعمدة معدنية مصقولة ، يَخُرُّ منها النور ، خَرّاً ، حتى القاع . منها ، تماماً ، يبدأ الجسر : جسر الحديد الوحيد ، حيث يمر كل شيء . تمر الدواب العابرة والتائهة والسيارات الكبيرة والصغيرة والنسوة وأحمال الحطب والروث وسطول اللبن والحليب وحمول القش والتِبْن والقصب والخرنوب . وأيضاً ، مدير الشرطة الجديد وامرأته الصغيرة الملونة ، سريعة العطب والغشيان . امرأته ذات الخدود الحمر ، الخضر ، والعيون البنفسجية اللامعة باستمرار - عيون التورط المستديم والرغبة النكوص - والأثداء الصغيرة المرفوعة بعناية حتى الحلق : أثداء القطن الصلدة التي تُمْتع لا ، ولا تُرْضع . على حديد الجسر الضيق ، هذا ، التصق . استطيل . أترقّق . أدخل بعضي في بعضي ، لتمر سيارة المدير . لتمر بارتياح ، دون أن تلمس جزءاً مني! وهذه المرة ، يكون وحيداً . عابساً . لابساً حذاءه الأسود الطويل . قاعداً بتبجح وتصميم . على جسده الهائل ، المحشوّ شحماً ولحماً ، تلمع أشياء كثيرة . وينعكس وهج لمعانها الأصفر على سحنته وعينيه ، كاشفاً لؤم وجهه ، وقسوته! ومنذ أن يقطع الجسر ، يترجل المدير ، ومن ثم يبدأ السير هادئاً ورصيناً . بطنه الكبيرة ترسل أحديدابها إلى أمام وإلى الجانبين . وأترجل ، أنا الآخر ، عن الحافة المعدنية الدقيقة : حافة الجسر القديم . ومن بعيد لبعيد ، أخوض الساحة ، لاحقاً إياه . ماشياً ، مثله ، كالمأخوذ : أنساقاً . أنساقاً . وفجأة تهتز الحيطان كلها : ليش ملاحق المدير يا عجي؟ ليش؟!

وبعد الرجفة ، يأخذني الغثيان : صالح خوفتني . خوفتني يا صالح! وأحس بهيكلي يَنْجَرُّ كله ، بلا عناء : تودِّيني وين يا صالح؟ تعال ، تعال أسولف لك . وعلى شاطىء النهر المستقيم ننحدر صمتاً ، صمتاً ، حتى القاع . وبانتباه شديد ، أتابع جريان الماء : يأتي الخابور من بعيد . من بعيد . يتعرج . وقبل أن يمر تحت الجسر يلامس حيطان الأسمنت الجميلة .

يلامس حيطان بيوت المحافظ . والمدير . والقضاة . والأطباء . وقائد الدرك . والكاتب بالعدل . ورئيس غرفة الزراعة وأغنياء البلدة . وتجارها . وأعيانها وبيت ابن جليوي ، بيت ابن الكلب . وعلى ضفته الشمالية ، هناك ، في غابة الحور الكثيفة هذه التي صارت تحاذينا الآن ، أحْنَتِ المربوعة ، بغتة ، ظهرها الأبيض السمين . وبتوتر واستعجال ، شَمَّرَتْ عن طيزها المستدير . وكأنها لم تكن ترى أحداً ، صارت تبول! تبول ، وتبول .

وأكاد أصرخ . لم تقودني إلى الماء؟! لم تقودني؟!

ويظل صامتاً . غامضاً . ورأسه في التراب! ما تحكي يا صالح؟! ما تغني؟ ما تغني؟!

لا . الدنيا صبح ، والغنا الصبح حرام . ما تشوف الخابور ساكت ، والشجر لاطي . والنوء قيظ . ونوء القيظ ملعون . ما جيت أغني . جيت أسولف لك . وأظل منصتاً باهتمام : كان

الطيف الأبيض العاري يدور في رأسي ، ونفسي يملؤها الغثيان! غثيان فراغ خبيث يَبُلُّني بَلاً . بَلاً . كنت قد بدأتُ ، في فراغ ذلك الفجر البارد ، أحس بأمعائي تتحرك صاخبة مثل العرابيد .

ويضمني صالح بتعجب وحنان : من اِمْتى ما أكلت!؟ منذ البارحة . منذ البارحة فقط . ويقترب مني أكثر فأكثر . يلتصق بي . وفيّ يهمس ، يهمس ، بتواطؤ غريب : المطربيات وصلن . وأنطّ كالممسوس . «سَيْري(*)» وبنتها؟! إيْ ، هي وبنتها . وأتفلّتُ ، أريد أن أطير . أن أعبر الخابور جواً . جواً : صارت رائحة الشواء القديم تفوح . وأخذت ، في وجه الصبح البارد ، كسرات الخبز الأبيض ، المدهون ببقايا الشحم المحروق ، تتراءى لي . وتبدت أمامي الأشياء الأخرى ، كلها : بقايا المأكولات العديدة المتخالطة باستمرار! وأقفز فعلاً . وفعلاً أريد أن أطير . لكن ذراع صالح الجهنمية تمسك بي . تَشُدُّني . تُقْعِدني أرضاً . ويتطلع إلي . ويعيد التطلع من جديد : بس ، لي عليك وصية .

(*) «سَيْري» ، إمرأة من «غَجَر الجزيرة» ، تعيش على التسَوُّل مع ابنتها التي هي من عُمْر الراوي ، تقريباً . وقد جَمَع البؤس بينها وبين عائلة الراوي ، وبالخصوص أمه . كانت تشحذ الأكل والألبسة نهاراً ، وليلاً تبيت عند أهل الفتى الراوي مع ابنتها ، حيث يتقاسمون معهما ما كانت تلُمُّه «سيري» . ومع ابنتها كان للراوي «تجارب حسية عابرة ، لكنها مثيرة» .

وأعود أقعد . ويحني هو رأسه ، وهو يقول : الناس شافوك . شافوني؟! إيْ ، الناس شافوك تأخذ منهن كِسرَ الخبز الملموم من أمام الدكاكين . الخبز البائت الملقوح . وأنت تعرف أنهن شحاذات . وأنت بن زهرة . وزهرة لا شحاذة . ولا مطربية . الجوع ، يا خليل ، ما يدوم .

ودفعة واحدة ، تختلط الأمور عليَّ تختلط الاختلاط كله . ولا أعود أفقه شيئاً .

وأكاد أبكي؟ . وأبكي فعلاً . أبكي كثيراً . أكثر كثيراً من الكثير . ويرى دموعي بيضاً حُبيْبيَّة ، مثل اللآلىء . وينفض ، بحسافة واستياء ، يديه وهو يُخبيء ، هو الآخر ، وجهه وعينيه . آه! لأول مرة ، أحسست أنني عار . عار تماماً . فَرْجي يلوح مثل فروج أولاد الغجر الهائمين . وكالمسحور يبدأ العالم حولي بالذوبان . معه ، يتلاشى صالح هيبة ووجوداً .

ومثل الطفل الكئيب ، أصير أحكي لنفسي ، عن نفسي : سيري رفيقة أمي . وزوجها رفيق أبي . وبنتها رفيقتي . وكلنا نأكل من ذلك الخبز : خبز الشوائين والقصابين ، الممزوج ببقايا الكباب الدهين الذي عافه الناس . كباب الجزيرة المصنوع ببالغ العناية والترتيب ، لشيوخها ، وتجارها ، وأغنيائها ، وأعيانها ، وعساكرها ذوي الهياكل الصفر الصحراوية والرؤوس المكشوفة باستمرار . عساكرها اللؤماء ، الذين لا يأكلون وجباتهم إلا على قارعة الطريق . أمام «مقهى البلور» الوسيط ، تماماً ، كانوا

يلتهمونها دون اكتراث . ونحن نعد اللقم . لقمة . لقمة / عباس . وقبل أن يرتد طرفه إليه ، أثِبُ عائداً إلى الخلف . ويثب معي ، هو الآخر : وين رحت يا عجي ، وين؟!

وأركض . ألاحق الخابور ، سائراً باتجاه سيره ، هذه المرة . وأرى مياهه البنية الخائرة تدرج ماء فوق ماء . تمر ، بانكسار ، تحت الجسر المعدني الصدىء آتية من رأس العين . ذاهبة إلى الفرات . والفرات بعيد . دونه الذُرو ، ذلك السهل الحماد الشاسع ، المليء بالحيايا والثعالب والأفاعي والهوام . الحماد الذي خوّفوني به ، كثيراً . وخَوَّفوا به ، عباس : حماد آبار المياه الناضبة ، ورجوم الحجر الأسود . والشعبان . وأحث السير ، حثاً . أسرع . أسرع . وأصير من الخلف ، أسمع نهيت صالح يركض دوني . وأكاد أرى اهتزاز كرشه المخيف ، وهو يهرول ، محاولاً ، دون جدوى ، اللحاق بي . كان نوع من الاحتراق الخفي قد بدأ يستبد بي . يجعلني كالسعيرة . يملؤني بقدر هائل من الاستياء . قدر لم أعرف له من قبل مثيلاً . وشيئاً فشيئاً ، صار صالح السمين يتخلَّفُ عني . وصرت أسرع أكثر فأكثر . وبغتة ، بدأ الندب والصياح : رحت وين يا خليل؟؟ تعال . تعال أسولف لك . ومن دِبْري المبتعد أقذف له الكلام تلو الكلام ، وأنا أتأرجح في الريح : تأخرت على المدرسة يا صالح .

تأخرت على المَخْرسَة .

(٢)

الآن ، لا أعرف لم حدث ذلك ، كله ، ولا كيف؟ كل ما أعرف هو أن الجو بارد ورديء . وأن السحب البيض ، الباهتة ، تملأ الفضاء . تملأ الفضاء بحماقة لا حد لها ولا أبعاد . لا . لم تعد بي رغبة لِلَمّ أشتات البيئة ، ولا ، لإعادة بنائها من جديد . بيئة تهدمت فلتتهدم ، إذن ، فلتتهدم! ولكن ، لِم يلمع البرق تائهاً في الظلام مثل خيوط النار؟ أبرق الجزيرة القديم يروي زَرعها وفرعها ، وحناياها؟! ولم توقفت حركة الفكر في رأسي دفعة واحدة ، وباستمرار؟! وهذا الخليط الغامض المجنون لم يتكاثر الآن وكيف؟ ولِمَ صرتُ أحس أنني بتّ بعيداً عن كل شيء وحتى عمن كنته من قبل؟! أنا الآخر ، بدأت أنطفيء كما ينطفيء الزبد المرشوش بالماء؟! خراء . خراء .

لا تقوم علاقة حسية على أساس أخلاقي ، والعكس ليس صحيحاً .

منذ متى بدأ الحصار ، إذن؟ وكيف انتهى إلى هذه النهاية المخيفة؟! ولم يعجز الإنسان ، دائماً ، عن

حل ما يستعصي عليه حله!

الآن ، بدأت أدرك ، ولأول مـرة ، أن ذلك لم يكن إلا حـقـد الحب . حـقـد الحب الناضب . حـقـد الحب الكاذب! ولكن ، أيكون ذلك ممكناً ، حقاً؟!

لا . لم يعد الأمر سهلاً على الفهم ، ولا على الإتقان! ومع ذلك ، مددت يدي القوية إلى شعـري ، وصرت أشدُّه شدّاً ، شدّاً . لا . لم أكن أعرف كيف أشرح الأمر ، بعد . وتبين لي ، أنني إن عجزت عن شرحه ، فستكون تلك هي النهاية : النهاية الحقيقية لأوهامي القديمة كلها . لتلك الأشياء الفاسدة البغيضة التي لم أكن أتصور أنها كانت تمتلكني إلى هذا الحد! ولأول مرة ، صرت أشعر أنني بحاجة إلى نجاح . إلى نجاح واحد يغيرُّ حياتي الواحدة . ولكم يبدو ذلك بعيداً عن المنال / عباس .

اللعب على الكلمات : لعب على الذات .

الكذب والتظاهر ، من تناذر الإحباط .

أضعف ما في الإنسان هو ضعفه .

يجب ألا أقـتـرف الخطأ التـاريخي القـاتل : أن أعيش حياة لا أحب أن أعيشها .

آه! كـيـف أخـتـصـر التـاريخ القـديم ، كله ، بنظرة نقدية ، وبسلوك نقدي؟!

بعد أن اجتزت النهر ، فجأة ، توقفت . توقفت ناظراً إلى أمام . كنت أغالب رغبة عنيفة في إلقاء النظرة الأخيرة عليهما . على الهيكلين العتيقين المتراكبين تحت الأغطية الرثة الكثيرة الألوان! ومع ذلك ، تطلعت . تطلعت غائماً ، ولمحت الماء يجري صامتاً ، ووحيداً . وفي البعيد ، بدت شطآن النهر خامدة ، ميتة ، وكسولة .

كان الليل قد بدأ يتبدد لتوه . ولتوه ، بدأ الصباح يأتي من الشرق . ومع الصباح الطالع ، طلعت ، هي الأخرى ، وفود الآدميين ، وأشباههم .

وبطرف عصاه اليابسة ، نَدَغَني النادوغ : اِبْعِدْ يا عجي . اِبْعِدْ ، لا تطحنك الخيل . وكالكلب المنهور ابتعدت ، فعلاً ، وأنا أرمق الرجال . أرمقهم ، دون أن أقول شيئاً . وعلى الضفة الأخرى رأيته! رأيته واقفاً وحسيراً؟ واقفاً يتطلع إلي . وما إن رأني أتطلع إليه حتى رسم لي في ريح الصبح البارد ، إشارته القديمة نفسها : إشارة العام الفائت . العام الذي فات . الأعوام الأخرى التي لم تكف أبداً عن الفَوتَان؟ ومن مكاني البعيد ، رأيت يديه السوداوين المُكَشَّمتين تلوحان لي . ولَوَّحْتُ له من سكوني ، ورحت أهرول من جديد .

استيعاب التاريخ القديم : هو التغلب ، نهائياً ، على المفهوم الأولي عنه ، وإنشاء إدراك نقدي جديد له . إدراك لا يفهمه فحسب ، وإنما يكون قادراً على

تحقيره ، أيضاً .

كان علي أن أصعد المنحدر الترابي ، الزلق ، قبل أن أحط على الرصيف المكسور . طريقي القديم نفسه! كنت أتمسك بجذوع الشجيرات البنية الباسقة ، المغروسة في عمق الماء ، وأنا أتابع القفز من شُجيرة إلى أخرى . ومن جديد ، جاءتني تلويحته تحثني من بعيد . لكأنه يقذفني بحجر غير مرئي . يدفعني بمخارز سحرية ممدودة حتى النخاع : إلى أمام . امش . امش . وأحسست بجسدي ، كله ، يقشعر . يتداخل بعضه في بعض . وكدت ، لأول مرة ، ألمس كياني النيء لمساً ، بعد أن تكتَّل ، كله ، في أعصابي . كياني؟! شيء ما ، مثل هذا الشيء الذي أكتبه الآن . مثل ذلك الشغف القديم الغامض الذي كنت أحس به يمشي ، مشي الأفعى ، في بقايا هيكلي المرتجف الراكض . والصيحة تتلو الصيحة : المدرسة . المدرسة؟ المخرسة . عباس .

تلك ، كانت تجربة حبي الأولى : حبي لي . كنت أحس ، وأنا أنطلق قلقاً إلى الأمام ، أنني ، بعد كل خطوة أخطوها أُخلِّفُ ، على الأرض ، جزءاً مني . غريب! انبجاس حس موحش كان يحيط بي! وتوقعت ، وأنا أقارب الباب الأصفر الكبير ، أنني عانيت ذلك الانبجاس الموحش ، مرة أولى ، من قبل : المرة الأولى التي رأيت فيها وجهها الأصفر الصغير ، والتماعات عينيها . واحتماءاتها بثياب أمها . وأمي تضمهما

معاً : «سَيْري» تعالي . تعالي . البنت بردانة . البنت الصفراء السمراء ، ذات العيون البيض المدورة ، والثياب الخضر الوارفة الألوان . والتي ، لأول مرة ، إزاءها أدركت معنى أن يكون الشيء موجوداً ، خارجاً عني!

وأفقت مرتجفاً وأنا أقص عليه رؤياي : شفت حالي أمشي ، أمشي في سوق «الدِرْباسية» وبيدي فانوس ، فانوس له ضلوع كثيرة مثل ضلوع البعير . وأحاط بي من الكتف إلى الكتف : لا تحْكِ حلمك لأحد . الله أعطاك العلم . العلم يا وليدي . العلم!

والآن . تأتيني إشارته البعيدة ، الصارمة ، لتدفع بي بعيداً إلى التجهيز . حركته الغامضة ، تلك ، التي تشير ، باستمرار إلى ذلك الفانوس ، لا تزال تلحق بي! وعلى الشاطىء الآخر ، لم أستطع أن أقاوم رغبتي الحادة في التوقف ، والنظر إلى هناك . وكالأسهم السحرية ، عبرت الأشعة المنطلقة من عيني ، فضاء الماء . ماء الخابور المعدنية اللزجة . ماء الوادي الأجرب الملحوس . الوادي الذي حاشه ابن جليوي منذ قليل .

عبرت الأشعة ملتقى الأرض والسماء لتستقر ، أخيراً ، على يمين التل . التل الذي تستقر على يمينه البيوت الطينية الخاتلة في الأرض . البيوت المتداخلة دون فواصل أو حواجب أو أنحاء . بيوت غويران الكلسية الواطئة حتى الدم .

وعلى يمين اليمين ، للناظر جنوباً ، بدت ، أخيراً ، حيطان

الدار الأخيرة تستند إلى الفضاء الخالي ، غرباً ، غرباً ، حتى لواعج الجبل البعيد . جبل «عبد العزيز»(*) الصخري المحدد بالحماد . وقبله ، بكثير ، رأيت ، من جديد ، ذلك الدُريب الترابي ، الذي تحدثت عنه في رواية «الشيء» من قبل . رأيته يتلوى صاعداً . هابطاً . نافذاً في الخلال ، مخترقاً ذلك الفضاء الفسيح . فضاء الأرض المحروقة الحمراء . أرض ابن جليوي ، أرض ابن الكلب . وفجأة ، أحسست بألم موجع يتربص بي! وانطلقت لا ألوي على شيء : انطلقت شمالاً وأنا أخُرُّ خريراً . وسريعاً ، اجتزت المسافة الصغيرة المدلهمة . وصرت أمام السراي . كادت إحدى سيارات الشحن الهائلة أن تفوت بي . سيارة شحن الحنطة والمحاصيل . وكالمطرود ، انحرفت غرباً ، آخذاً بجسدي ، كله ، شارع التجهيز : آه ، ها أنذا ، الآن ، على الأبواب!

أبواب التجهيز صفر . كثيرة . مغلقة كلها ، إلا واحد أحد . وعلى الباب الوحيد الذي بدا لعيني طويلاً - أطول من

(*) هو الجبل الكبير الوحيد في سهوب الجزيرة ، ويقع جنوب الحسكة . وهو يفصل «حوض نهر الخابور» والمناطق الخصبة التي تحيط به في الشمال عن السهوب الصحراوية التي تمتد جنوباً إلى ما لا نهاية . وعلى ضفتَيْ نهر الخابور التاريخي ، شمالاً وجنوباً ، تقع أكناب (جمع كنب ، أو كامب) الآشوريين الذين يَتَعَنْقَدون على طول «خط الماء» ، يَزْرَعون الحبوب والقطن والعنب .

«عذاب» زوجة دريعي الوجعانه - أوقفني صفاقة : رايح وين؟! رايح وين؟! وأجفل : على التجهيز أستاذ . ويتطلع بعجب وبلادة إلي . يكاد أن ينفجر الأستاذ . رأيته . رأيته بأم عيني - كما يقولون - يتمالك نفسه تمالكاً عميقاً . ويهدىء بالعمق ، ذاته ، من غيظه المكتوم ، وهو يتساءل : رايح على التجهيز ، حفيان!؟ اللعنة! لأول مرة أحسست بوجود قدميَّ . وأحسست أكثر ، أنهما مسؤولان عن خلل ما . ولم أقل شيئاً . تطلعت ، أنا الآخر ، معه ، إليهما . ومثله ، تماماً ، رأيت ، من عل ، جلدهما المحبب الغليظ . عليهما ، يتراكم الوسخ طبقات . أصابعهما طويلة مُعَرَّجة ، ذوات حديبات وأصماخ! واستندت عليهما بكل ثقلي . لكأنني أنتقم منهما العَوْق . كان قد حل في الفضاء الصغير صمت غريب . لا ، لم أكن أسمع شيئاً غير الهمسة المتواطئة خلفي : الأستاذ يسألك يا إبني ، حفيان ليه؟!

بقيت صامتاً . واقفاً . عاري القدمين والأشياء الأخرى ، وأنا أتطلع من وجه إلى وجه : وجه الأستاذ أبيض ناصع دهين . وشعره أسود مُزَيَّت بعناية . وأكمامه نظيفة مردودة إلى الخلف . ووجه المدير سمين ، كامل التدوير : وجه بارد ، جامد ، يكاد أن يكون حاقداً . وتطلعت إليهما من جديد : إلى قدمي . إلى الوجهين العابسين المتحديين . وبتحفز وانكسار قلت : نعم أستاذ . ومن بعد حل الصمت . وهجم عليَّ الصوت النزق المعصور : شو يعني ، نعم أستاذ؟! كان رأسي قد بدأ يدوخ .

ودون تأخير قلت : نعم أستاذ ، حفيان ، وبدّي أروح على التجهيز .

غريب! كم من الممكن أن نكون حزانى ، ومضطربين! كم من الممكن أن تجر خطوة صغيرة ، خلفها ، آلاف الخطى الخطرة! كنت أحس ، يقيناً ، أن علي أن أحقق أشياء كثيرة ، لم أكن أعرف حتى ما هي ، ولا كيف تكون . إحساس عنيف كان قد تمكَنَّ مني . إحساس لم أكن أعرف مصدره ولا جدواه ، هو الذي كان يدفع بي . يدفع بي دون توقف . يدفع بي لكي أدفع حياتي البائسة ثمناً لأشياء أكثر بؤساً . أشياء كانت ستحصل عاجلاً أو آجلاً . كانت ستحصل حتى دون جهد : أشياء الحياة العادية المبتذلة . لكن ذلك لم يكن في الإدراك . كل ما كنت أريده آنذاك هو أن أتابع الطريق . هو أن أجتاز ، دون عوائق ، باب التجهيز الأصفر الكبير . أن أزتّ نفسي بين الجمع المختلط المملوء بالضجة والحياة . أن أسير ماشياً على قدمي الحافيتين فوق بلاط التجهيز الملون ، المرصوف بعناية وكبرياء / عباس .

وظَلاًّ واقفين . وظللت أنا كذلك . كنت أرى ، من قريب ، أزرار الملابس الفضية المعلمة وأخاف . أخاف أن أسُأل من جديد : أين تسكن؟ ماذا تأكل؟ من هو وَليّك؟ ماذا يعمل؟ سؤال قد يجر سؤالاً قد يجر السعال . ولأول مرة عرفت طعم الخوف . عرفته حشوياً عميقاً : بدأت أمعائي تتلوى داخل الجوف . اللعنة! أتكون التجهيز ، هي الأخرى ، محرمة على

الجوعان والعريان والحفيان!؟ / عباس .

ودون انتباه مني سقطت النقطة في عيني . سقطَتْ سقوطاً مروعاً وكريهاً . النقطة التي لم أكن أنتظرها أبداً . خدر متصل وسحيق تخلل بعض أركاني . خدر لم أستطع ، على الفور ، تحديد مصدره ولا منحاه . خدر أسود وبغيض ، بدأ يدفع بالجسد ، فجأة ، نحو السقوط والانهيار . وصرت أشجع نفسي : لا يا خليل . لا تقع الآن . الدنيا لا زالت صبحاً . لا . وتماسكت ، فعلاً ، وأنا أتطلع عالياً . عالياً ، حتى السماء . وفي الغمامة البيضاء الشفافة أستقر . أستقر ، طويلاً قبل أن أسقط . قبل أن أسقط ، دون إرادة مني ، على جسديهما المترهلين المملوءين شحماً ولحماً وثياباً وأدوات . ومعي تحط الغمامة على الأرض . تلفهما من اليمين ومن الشمال . تقصيهما فيتضاءلان! يتضاءلان أكثر فأكثر ، حتى الزوال .

وبعد أن غابا ، طويلاً ، عادا . عادا ، يتطلعان إليَّ تارة ، وإلى بعضهما تارة أخرى . كنت أقف بينهما كالتمثال المكسور . وعلى بعد خطوة مني ينتصب المدخل المرمري الأصفر المحظور . ومن جديد ، صرت أحس لفحات نسيم الصبح البارد . نسيم الشجر الغربي الحاد . شجر الحور الباسق بانتظام . آه ، نسيم ابن الكلب! لم يكن يعن لي على البال أن أحمي نفسي منه ، قبلاً . الآن ، أخذت تتتالى عليَّ هبّاته المتزايدة . صار الثوب يلتصق بي . وصرت التصق بالقاع . وعبر الثوب السمل

الرقيق ، بانت خصيتاي كخصيتي جَدْي هزيل ، تتدليان بين رجليَّ! ذلك هو كل شيء . وهو مـا كـان يحـدث دائمـاً ، وباستـمرار . ولـم يكن ذلك يثير الدهشة ، من قبل . فلم أثار دهشتهما الآن؟ ولِمَ ، لا زالا يستوقفاني بمثل هذا الإصرار ، على هذا الباب؟ / عباس .

فلأتنكر لحياتي الأولى ، كلها . ولعلاقاتي القديمة كلها ، وليفعل كل منا كل ما في وسعه أن يفعل لا ليصير أفضل مما كان عليه ، فحسب ، بل ليصير أفضل مما هو عليه الآن ، أيضاً .

إنني بحاجة إلى حياة جديدة ، ولربما كانت الحياة الجديدة ، هذه ، هي الحاجة إليها ، فقط .

دخلا معاً . جلسا قريباً مني . بحنان مطلق أرخت رأسها الجميل على كتفه اليمنى . وبمتعة شديدة مد يده الرقيقة لتلمس فخذها الأيسر . أنا؟ كنت وحيداً . لماذا كنت وحيداً؟!/ عباس .

بمواجهتهما ، أحسست بي وحيداً ، معزولاً ، ولم يوفرا جهداً لإشعاري بعظمتهما الصارمة وعطفهما الكاذب . كنت أعرف ، من بريق عينيهما ، تصميمهما الخبيث على إعادتي ، ذلك الصباح ، إلى البيت : إلى الموت! وبالفعل قال المدير الدهين برقة زائفة : تعال غداً . سكت . وأضاف فوراً : تعال مع

وَلِيّ أمـرك . كـدت أنهـار ، من جـديد : وَلِيُّ أمـري ، أسـتـاذ؟!
استدار مبتعداً ، دون أن يقول شيئاً . وكالكلب التَبوع لحق به
المراقب ، الذي صـار كـاتبـاً فـيـمـا بعـد ، وهو يردد من ورائه
الكلمات نفسها . لا . لم يبق إزائي إلا أشجار الحور العالية ،
تهـز ذُراها في الريح ، تردد بلئامـة ، هي الأخـرى : تعـال غـداً .
تعال . / عباس .

أحسست بقلبي يمتلىء هماً وغماً وحزناً وكدراً وكدمات .
يمتلىء حقداً ولؤماً وإصراراً أيضاً . ولم يكن ذلك كله عليهما؟!
لا . لم يكن ذلك واضحاً قط . كان الأمر يتعلق بشيء آخر .
شيء أسود أبلق كبير مفلطح يملأ الآفاق ويسد الأنحاء . شيء
بني غامق لا عرف له كُنْهـا ولا أبعاداً . شيء يخنق النفس
ويملأ الصدر بالضيق والتوتر والانسداد كالغمام كنت أحسه
يحيط بي . يحيط بي من الجهات ، جميعها ، دون أن أتمكن
من مسه أو لمسه أو الإجهاز عليه . في ذلك الغمام الطارىء
والمقيم اختفى اللئيمان . صرت ألمح ، خَفْقاً ، مساطب الظهرين
المقفيين . وأميز بصعوبة ظهراً من ظهر . وهممت أن أبصق
عليهما في الحال ، غير أن جفاف الحلق المفاجىء شل لساني .
وبلا تأخيـر ، بعـفـوية تكاد تكون وهمـاً ، مـددت يدي إلى
خصيتي ، وصرت أحكهما بهدوء . بهدوء محبط ، وأنا أتطلع
يمنة ويسرة وإلى المجهول . باب التجهيز الذي حلمت به يوماً
بدأ ، هو الآخر ، يبتعد ضائعاً في الغمام . الباب المعدني

الأسود الكبير المهيب ، صار يمشي ، يمشي على درّاجات عديدة ، أسمع ، حتى اليوم ، صريرها العميق وهي تقرب دفة من دفة . ها هي ذي دفاته تتلامس . تلتقي دوني . تخلفني في البر وحيداً ، بلا باب / عباس .

خرجت منتصراً؟! يومها ، لم أكن أجابه أحداً ، حتى ولا نفسي .

فجأة بدا لي الأمر واضحاً وخطيراً : كان عليَّ أن أبحث عن منفذ تاريخي . لا ، كما سبق وفعلت ، عن منفذ إداري . ومع أن ذلك يتطلب قلب المنظور ، كله ، إلا أنه ، مذ وعيته ، لم يعد له بديل .

المأساة ، هي أنك لا تزال ترث وضعك الإنساني مبنياً على أسس أخلاقية . أسس تتمركز ، بدقة وصرامة ، حول أخلاق الخضوع . الخضوع للرب والأب والسلطة . وبما أنها ليست بالضرورة أخلاقك «الشخصية» فإن أي بناء يبنى عليها ، بما فيه ذاتك القديمة ، سرعان ما ينهار . وإذا ما انهار ، فإن كل محاولة للتشبث به ليست إلا حماقة وانعدام وعي .

الأخلاق دائماً استبدادية : إما أن تكون أنت لها ، أو تكون هي عليك .

الأخلاق سامة ، واستبدال واحد منها بآخر

كاستبدال سم بسم .

إن ما بني على أساس أخلاقي لا يمكن أن تهدمه الأخلاق . من هنا ، ينشأ الخلاف العميق بين الإنسان وذاته . الإنسان الذي لا يزال يبحث ، عبثاً ، عن استبدال تصوره الأخلاقي القديم للعالم بتصور أخلاقي آخر له . إن مَقاوِل الأخلاق - لا مَعاوِلها - لم توجد لتهديمها ، بل لتقويمها .

لماذا استوقفاني هذه المدة كلها ، أمام الباب؟ لماذا ظلا يتطلعان ، بازدراء شديد ، إلى شأني وخصيتي ، وعلى محياها تبدو الذريعة والخديعة؟! لماذا طلبا مني أن أمد يدي كالطفل العابث؟ أليتأكدا من أن أظافري نظيفة ومقصوصة؟!

ليس الإداري ، بحد ذاته ، شيئاً مهماً ، إطلاقاً ، إلا أنه قد يصبح خطيراً في بعض الأحيان! وخطورته عندئذ تأتي من أنه يمكن أن ينفتح على التاريخي ، رأساً . يمكن أن يضعنا جملة وتفصيلاً أمام الواقعة : واقعة القطيعة بامتياز .

بدا الزمن صعباً ، غبياً ، وأنا أنتظر الأمر بالولوج . وأصبح لذلك الزمن معنى ، معنى عميق ، غريب الاتجاه ، منذ أن تلقيت الأمر بالخروج . منذ أن رأيت الباب الأسود المدهون يَدْرج فوق عجلاته الدائرية الصرّارة ، ليغلق دوني . ترددت

قليلاً دون أن أقول شيئاً . انتظرت . لكن الأمر كان صارماً وشديد الوضوح : امش من هُونْ . إذن ، لم يبق عليَّ إلا الخروج . وفعلاً ، بدأت الخطوة الأولى ببطء وتمهل ، ومن بعد ، خرجت بقسوة وتصميم : إذا تلقاك الموج احْجُمْ ، وإذا استوى الماء اهجم / عباس .

عندما تكون خصماً فليس عليك أن تكون عَدْلاً .

إن العدالة ، بمفهومها السائد ، تثبطنا ، تمنعنا من أن نتجاوز حد الانصياع : حد الوعي القانوني السخيف .

إننا ، في الشرط التاريخي الراهن ، دائماً ، أطراف . أطراف في مجابهات لا تحصى ولا تعد . وأول ما يجب علينا أن نعمله ، هو أن نميز التاريخي منها . وعندما يتعلق الأمر بهذا ، فليس لنا أن نكون هَوْناً . إن الصفة الأساسية التي علينا ، حينئذ ، أن نتمتع بها ، هي امتلاكنا لوعي النقديين العظيم : الوعي التاريخي الذي يدفعنا إلى اتخاذ أصرح المواقف ، وأقساها ، وأكثرها تطرفاً . هكذا ، فقط ، يمكننا أن نتجاوز المفهوم النفعي للحياة ، مقتربين من مفهومها النقدي .

خرجتُ راكضاً ، طائراً كالسهم . اخترقت شارع التجهيز

بسرعة نادرة . لم أتعثّر حتى بالأحجار الكثيرة الملقوحة على الطريق . كان الفضاء الغربي ينفتح بين صفين من الأبنية المرمرية الرائعة ، المختلطة بالأشجار . أشجار الحور الباسقة المكشوفة . أشجار ابن جليوي ، أشجار ابن الكلب . عبرها ، بدت لي فتحة الأفق الأسود المخضرّ ، كفوهة لحمْيّة تنفرج في الحضيض . ومن جديد ، ركبتني الحركات المسعورة المريبة . حركات الاختلاجات الغضة المبهمة . الاختلاجات المشوبة بصواعق . بصواعق من نار . نار لذة وانتظار . انتظار الزمن الحاسم . زمن الولوج . الولوج في الفوهة السوداء الغامضة : فوهة التجهيز . الفوهة التي ولجها آلاف قبلي .

آه! كنت أحسب ، قبلاً ، أن الزمن يمكن أن ينقطع . أن ينكسر ، هو الآخر ، كعظم البعير . أن يغيب ، فجأة ، عن الوجود ، مثل الموتى : زمن لا يتحقق فوراً ، لن يتحقق إلى الأبد . كان الشلل الذي أصابني آنذاك نابعاً أصلاً من ذلك الاعتبار . من أين جاءني ذلك الاعتبار المُحْبط!؟ لا . أفضل أن ألغي نهائياً هذا السؤال الذي لا يحمل إلا معنى الإتهام الساذج والسخيف للذات ، وأن أصل ، دون تأخير ، إلى نقطة انعدام الأسف ، إذا أردت أن أتحقق ، بشجاعة ووضوح ، من صفاتي الشخصية .

على الطريق العائد ، الذي قادني من الحيطان العالية حتى ضفاف النهر ، دِسْتُ عشرات المرات على كِسَر الأحجار

والأخشاب والأوثان والأدغال! ومرة بعد مرة ، أحسست بألم حارق ، في القدمين . وبتشنج جهنمي في الساقين وأسفل البطن والظهر والأمعاء . وأكثر من مرة ، انتحيت ، جانباً ، لألمس أطرافي لمساً عميقاً . ومع اقترابي المستديم من البيت ، كانت تقترب مني صورة البُنَيَّة الصفراء الناحلة ، ذات الأفخاذ النيئة المستقيمة ، والأرداف المدورة البارزة باستمرار . صورتها ، وهي تلتصق بي ، مخفية ضحكتها الملجومة المتواطئة بخفر كبير . وألتصق بها أكثر ، متسائلاً : لماذا أنت نحيلة إلى هذا الحد؟ وتتضاءل الهوة بيننا . تتضاءل . وتندمج الصورتان بتأنٍّ مطلق وحزين .

لا . التمرد لا عمر له ولا موضوع . إنه مشروع دوماً! لكن ذلك لم يخطر لي على بال وأنا أدير ظهري الصغير المنحني ، وأمشي متهالكاً ، وكأنني في أرذل العمر . أتمرد على المدير؟ على الأستاذ؟ على الآذن؟ على المراقب الربعة ، ذي النظارات السود الغامضة؟ يا للهول! للتجهيز حرمة وُقدْس . وأنا لست إلا ورقة من الأوراق . ورقة خائبة من غويران البري المهمل . إلا أن خيبتي لم تكن أبداً نهاية . كانت ، تماماً ، بداية . بداية حارة ساخنة متفجرة ومخيفة! بداية بداياتي . هذا ما شعرت به ، وأنا أدير لهما ظهري النحيل ، الجائع ، منتقلاً من موقع إلى آخر : من موقع الواقف على الباب ، إلى موقع المواجه له : للباب الحديدي الأسود المدهون بعناية . باب السلطة الذي كنت أراه ،

لتوي ، كباب الفردوس المعلق في السماء . تَحُفُّه بساتين المعرفة . وتحيط به ملائكة الآداب . له ، من الرهبة والتبجيل ما يملأ النفس خشوعاً وقنوطاً . الباب السحري الذي يتصل بالأفقين شرقاً وغرباً ، والذي يتبخر في أقصى الفضاء جنوباً ، لاحقاً بالنهر . نهر ابن جليوي . نهر ابن الكلب .

لا ، لم أعر الصيحة الأولى انتباهاً . ولا الثانية . إلا أن الثالثة ، كانت حادة . كريهة . وأمرها صريح : صيحة صيحاء ، دفعت بي لأن أتحرك ، فوراً ، مبتعداً عن الباب ببطء شديد . بطء ما لبث حتى صار عجالة . كنت لا أزال أحدق في وجه الآذن الأعور الشديد ، متابعاً في الوقت نفسه ، حركة كَفَّيْهِ القويين ، وبَلْع فَكيَّه للهواء الساقط ، وهو يأمرني بالخروج : امشِ .

وفعلاً بدأت الابتعاد مشياً ، حتى النهر . كان علي أن أمشي الشوارع القديمة نفسها ، عائداً ، هذه المرة . عائداً بخيبة ، لا يمكن إخفاؤها ، قبل العصر؟

أعود و«سَيرْي» وبنتها لم تعودا بعد!

لم تعودا بالخبز المُلَطَّخ بسماد الكباب الحسكاوي اللذيذ ، المُطعَّم بشحمه المحروق ، وببصله الأحمر المشويّ! / عباس .

***

كان علي أن أكف ، منذ زمن بعيد ، عن اعتبار الحياة

لعبة . ولكن لماذا كان علي أن أفعل ذلك؟! لماذا؟

ما إن اقتربت من البيت ، حتى سمعت الصياح . الصياح البغيض ، نفسه . يخالطه بكاء كثير : بكاؤها ، وبكاء الصغار المنتشرين حولها كالجراد . وصرت ، أنا الآخر ، أصيح : «طرفة» ، طرفة! الدم الأحمر الأزرق الأصفر يتماوج في القاع .

كانت يد «أهمد» في رأس طرفة ، ورجلاها بين رجليه ، وهو يتهيأ للقضاء نهائياً ، عليها . وبأعلى صوتي صحت : أهمد . أهمد! ولَقَحْتُ نفسي كالبرغوث فوق ظهره . وتَفّ أهمد كتفه العريضة الهائلة مني ، فوقعت ، متهالكاً ، على الأرض . كفاني التهديد اللئيم ، وحده : إبعد ، وإلا خلطت دمك بدمها . إبعد . وتشبثتْ طرفة بي : يا خيّي خليك . يا خيّي! وتشبثت ، أنا الآخر ، بها : تعالى . تعالى . وتَجمَّع الصغار حولنا كالعصافير . وشيئاً فشيئاً أخذوا يَثْوون على الأرض ، وهم ينتحبون : يا يُمّا! وبعضهم صار يزيد : يا يُمّا جوعان . وكالذئبة المجروحة ، قفزَتْ من مسقطها «طُرْفَة» . وكأن شيئاً لم يكن ، راحت تركض باتجاه الغار : التنور . الخبز احترق . النار انطفتْ . النار . وكالمرضع التي فقدت ، إلى الأبد ، رضيعها الحبيب ، أجهشت في بكاء غريب صامت . وتعلقَتْ أعين العصافير المكسورة الأجنحة بحركتها الملتاعة ، فكفَّتْ . وعلى الفور ، أحاطتهم ، جميعاً ، بحنان مفاجىء وهي تضحك من جديد . وابتسمتُ ، أنا الآخر ، مغالباً انفعالي العنيف . كدت أنفجر ،

ضاحكاً ، في الجو . كاد الحزن اللئيم الذي ملأني منذ الصباح الباكر أن يجف . أن يسقط في الأرض . أكَلَته الرهبة والصباح! ولفترة شديدة القصر ، نسيت ، فعلاً ، وجه المدير الغبي ، وشوارب معاونه الكَثة الدسمة ، ونظارات المراقب السود الكبيرة ، وزنود الآذن الأسمر القوي ، وفخذيه الشديدين ، وحذاءه الغسقي ، وهو يلحق بي حتى الغياب . ولم أعد أسمع حتى صرير الباب المعدني الأسود الكبير ، وهو يغلق دوني . وقبل أن تسألني «طرفة» عن اليوم الأول في التجهيز ، خرجتُ . وعلى التراب ، الأصفر المختلط بالروث والسماد ، تمددت ، والنحيب العاصف ينبثق مني عبرات عبرات . كنت لا أزال أتملى قطرات الدم الأحمر القاني تنفلت من سواد الشعر الفاحم الطويل . وأرى ، رفيف اللحمة الصغيرة ، لحمة لوح الكتف المبلولة وهي ترتجف! ترتجف ، مثلما يرتجف المحموم/ عباس .

الحياة قصيرة حتى الموت فيها قصير .

ليس لنا أن نعيش مع احتقارنا للآخر منذ أن نعي هذا الاحتقار .

معنى أننا تطورنا ، هو أننا صرنا قادرين على أن نحكم على الماضي حسب معرفتنا الراهنة ووعينا الجديد ، لا أن نحكم على الحاضر حسب معرفتنا السابقة ووعينا العتيق .

العلاقة بين كائنين ، هي الأخرى ، كائن حي : تحيا وتموت .

لم أدر متى نمت . نعاس قاتم وعميق لَفَّني لَفّاً . على التراب الملوث غفوت . ولولا مرور الأفعى الرقطاء المخيفة قربي ، لبقيت مَلْقوحاً حتى الزوال . حفيفها الخافت ، ونفيحها المرعب ، أيقظاني من سباتي الرهيق . قفزت برهبة شديدة إلى أعلى . ولم أر إلا لمعة ظهرها العضل الطويل . وانسحابها العجل المميت ، وهي تختفي لمعاً في ضوء القمر إلى الشمال . بحثت عن حجر . عن أي شيء آخر ، دون جدوى . كنت أتعثر بالأحجار والأشجار والأنهار ولا أرى شيئاً! وصرت أتكّمش بالشُجيرات اللاطئة وأنا أصيح : خسئتِ ، خسئتِ . أفعى ابن جليوي . أفعى ابن الكلب . ومن هَبَّة إلى هبة ، كنت أضربها بأشياء كثيرة دون أن أصيب منها مقتلاً . كنتُ أريد أن أقضي نهائياً عليها ، كيلا تعود ، مرة أخرى ، إلى هذا المكان . ولم يكن ثمة في القاع سوى ضوء القمر الفضي المنحدر بهدوء ، وبريق التراب الأبيض الناعم الحار . كنت أدور في مكاني وأدور . أبحث عن الحية ، والحية آمنة في الغار . الغار الضيق والعميق . لا ، لا شيء خارجاً إلا الصفير ، صفير النهر الذي لا زال يجري جنوباً ، ولمعان سطحه المترجرج في البعيد . ومن جديد ، صرت أبكي . أبكي بكاءً مراً محروقاً ، وأنا أصيح . وعلى صياحي ، هجم الصياح ، في ذلك الليل . عباس .

وفوراً ، صعدت الهُضيبة الصفراء الصغيرة ، عائداً بوجل واستعجال . كدت أقع على وجهي ، أكثر من مرة ، ليلاً . وكالمذنب الذي جاء يعترف بما اقترفه من ذنب ، جَثوتُ ، بصمت ، عند رأسها المدور الكبير . كان لهاثها الحبيس يخرج بصعوبة من ثنايا صدرها . وبشكل آليّ تأملت ارتفاع ثدييها المليئين ، وانحناءات جسدها المشحون . وبرجاء فائق لمست شعرها الأسود الكثير . لمست مفرق الشعر الذي يقسم رأسها قسمين متناظرين باتساق . كنت لا أزال مشغوفاً بالخط الأبيض الرفيع ، الذي يمتد ، صاعداً إلى الخلف : خط واحد لا يتعرج ولا يتدرج . وفي ضوء القمر الباهت ، المنعكس بخشونة على الحائط الطيني العتيق ، لمحت اللحاف الغامض ينسدل على الأجساد ، جميعاً : لكل جسد فيه لون ومكان! لحاف الليل وبساط النهار . وبصوت منكسر ، ملحوق ، صرت أونُّ . وأونّ : جوعان . يُما جوعان! وظلت تنام . تنام النوم الخائف الملتاع ، نفسه!؟ لا . لم تكن قد نامت بعد . لم تنم أبداً ، ذلك الليل . الهاجوس الأزلي استبد بها ، كما كل ليل ، لا أكون لصقها في الفراش . وبحركة متشنجة قمت . قمت أبحث عن شيء . لم أر شيئاً : ظلام شامل يملأ الأنحاء .

عبثاً ، بعثرت الخرق ، والهُدوم البالية ، والمواعين المثقوبة . عبثاً كنت أبحث عن بعض الخبز الذي يمكن أن يكون قد بقي حتى الآن! ومرة بعد أخرى ، اخترق جسدي الهش الهزيل

ضجيج أوعية التوتياء القديمة ، ورنينها الفارغ النَوّاء . أحسست بنوبة حادة من الجنون تركبني . وكالمأخوذ ، صرت أخبط بقدمي الحافية القِدْر المرمية ، خبطاً عنيفاً وبلا انقطاع . ودون أن أغلق الباب الوهمي ، المصنوع من التنك القديم ، خرجت . استقبلني ، من جديد ، ذلك القمر الجهنمي البارد . وباحتقار شديد : بصقت بصقت . وأنا أبتعد . أبتعد حتى الزوال / عباس .

ننتظر ظمأى . سئمنا البحث في الكلام . لا نريد أن نحكي . نريد أن نضاجع . أن نضحك . أن نسافر في رحلة . الفن يسمئنا . إننا بحاجة إلى قليل من الابتهاج .

(على حائط في الحي اللاتيني)

انظروا! خارجاً يوجد الكثير من الفن . وكثير منه زائد عن اللزوم . تخيلوا شيئاً آخر . ليس كل شيء فنا .

(على جدار في شارع السين)

أحدهم قال : أن تمارس الحب ليس شيئاً جديداً . الجديد هو أن تحب .

(على نافذة في شارع چاك كالو) .

قبل أن يغتنم الفجر الفرصة ليطل برأسه ، بعد ذلك الليل

الأحـــمق الطويل ، كنت أخـــبىء ، تحت الغطاء ، رأسي . وكالعادة ، كنت أسترق السمع ، متلصصاً من شقوق عيني . كانت تسوّي ما لا يمكن له أن يُسَوّى : هذا أحطّه هنا . وهذا أودّيه هناك . ولازم أغسل الغسيل . وأدقّ الجريش . وأعجن العجين . وأجهّز الخبز قبل أن يعود . لا ، ما عدت أريد شجاراً ولا نقاراً .

وفجأة ، صدح الغناء ، غناء عذب حار . وأصخت السمع عميقاً : إنه حِسُّهُ . حِسّه الحنون أعرفه من الحسوس جميعاً .

أعرفه بحرارة الجوف ، وغزارة الشوف .

ولكن ، لِمَ أخذ الغناء يتقطّع وَينوس؟! يتقطّع ، ويغيب بلا استئذان!؟

ودفء الجوف الذي يحمي من الخوف لِمَ تبعثر ، فجأة ، وكيف؟

آه! الآن فقط أدركت أنني لن أستطيع أن أتحدث بفهم كامل عما كان يجري!/ عباس .

لا توجد كلمات دون معنى . ولا معنى دون حقيقة .

أن ننتهي من الوعي القديم : هو أن نكف عن أن نجعل ، بعد الآن ، من «الضمير» قضية .

لا يأتي سوء التفاهم إلا من انعدام المودة .

غياب الحب يصنع المعجزات .

ودفعة ، ركبتني الحمى السوداء الرَجّافة . ركبتني وبدأتُ أختلج كالطالع من سيل جارف . شيء ما في كياني بدأ يتداعى . انهيار عارم ، صار يأخذني إلى كل مكان . يأخذني مني إلى مكان بعيد ، بعيد . إلى أين وصلت؟ لم أعد أدري . وكالضوء الدليل انبثقتْ في كينونتي فكرة سديدة : ثمة أشياء يجب أن تبقى سراً وإلا فقدت الحياة طعمها الخاص . وتحفزت أن أسألها سؤالاً جديداً ، إلا أنني أحجمت في اللحظة الأخيرة . لن أسأل أحداً بعد اليوم . منذ الآن علي أن أكتشف كل شيء بقوتي الخاصة : قوة جهلي . السؤال يقتضي دوماً جوابه السخيف . جواب القوة الأخرى ، الكائن الآخر . الاكتشاف لا يتضمن سؤالاً . ولا يقتضي إجابة . إنه نوع من سيطرة اللذة على الذات . من تفتيت العالم بقوة الرغبة .

إنه الحياة نفسها! من قال هذا!؟

بتمهل ، فتحتُ عيني . كان القمر قد بدأ يميل ، غامراً وجه الكون بنوره الجليل . قمر بدت بفعله الأشياء شفافة وقريبة من القلب . في الوجه المقابل للضوء ، أدهشني الفراش القديم الذي تضاعف حجمه ، فجأة : مرة أخرى واحد فوق آخر! وتلك الحركة الذاهبة الآيبة . وذاك الَرجّ المتواصل المتفاصل . وصوت

الندم العميق . ندم الآهات المتكررة برتابة متخامدة حتى القرار .

برعب شديد ، أغلقت عيني ، كلتيهما ، مستبقياً فيهما ما استطعت من ضوء القمر البعيد . أغمضت عيني؟! أغمضت كياني كله . كانت الرغبة تشتعل في جوانحي الملمومة ، ليلاً . كنت أريد أن أذهب بعيداً . بعيداً . أبعد من البعيد . ضوضاء الفراش المضطرب تحت ضوء القمر كانت تبعث الارتباك في أوصالي؟ ماذا يجري في ذلك الكون المغلق تحت الغطاء!؟

مَنْ فوق؟ مَنْ تحت؟ مَنْ يتحرك؟ مَنْ هو الساكن العَوّاء؟

لا ، أريد أن أرحل . أن أروح . أن أبعد . أن أصل أقصى حدود الدنيا القصية . أن أخلّي الأجلّة والآهات والأفرشة المليئة بالأجساد النائمة ، كأجساد الفطائس الفاسدَة ، خلفي . أريد أن أموت . أريد أن أفوت/ عباس .

وبأقصى ما أملك من قوة وبصيرة ، صرتُ أبحث عن القمر ، من جديد . القمر الذي لم يغادر ، بعد ، مكانة في السماء! تتبعت حبال ضوئه الأبيض السليط ، أبحث بشغف عنه . أين هو الآن؟ كيف استطاع أن يفارقني هذه الفترة كلها؟ أي بقعة تحويه ، هذه الساعة؟ اللعنة! أيكون ، هو الآخر ، تغير إلى هذا الحد؟!

وبدأت أسمع في الصميم صوت عوائه المثير!

«سِمْر» سِمْر ، تعال يا سِمر! ولَمْ أدرِ إلا وهو يتنفس أركاني . يشمني كالمرأة العاشقة التي تشم ثوب حبيب مات .

سمْر ، جِرْوي الحبيب ، ها أنتذا ، جئت!؟ لَمْ يبق غائباً إلاّه! إلاّه! وبقوته ، كلها ، هرَّ قربي ، وخرّ ساجداً ، ودموعه تهمى! سمْر ، أنت الآخر ، تبكي؟! كان كل شيء يلتوي! وقررت : غداً صباحاً سآخذه معي إلى التجهيز .

ليست المشكلة تغيير الشخص .

المشكلة الأساسية هي قلب الوضع .

الحب أنواع ثلاثة : - حب الشخص

وحب الدور

وحب الوضع .

في ذلك الليل المريب بدأتُ رحلتي الأولى في الحياة . وتبعني «سمر» يعوي . يعوي عواء مراً ، وهو ينثر التراب . ومن آن لآخر ، يتوقف ليشم القاع : القاع التي بدأت تظل بعيدة في الخلف . قاع ابن جليوي ، قاع ابن الكلب . وشيئاً فشيئاً ، غابت الدور في غلالة الليل . وغدا القمر واهناً وضعيفاً ، مثل شيخ كبير . واختلف طعم التراب وملمسه . أين صْرنا يا سمر؟ أين؟ ومن مشقة السفر الطويل ، قعدنا نستريح . قعدنا . نمنا .

غبنا . كان برد الفجر يحيط بنا من النواحي ، جميعاً . فيه ، في ذلك البرد السافر ، أحسست بحرارة الجسد تدخل بي . تلمُّني . وألَتمّ . وبين النوم واليقظة صرتُ أدسُّ نفسي فيها دَسّاً ، دَسّاً . وأخذتني الحرارة من البطن والعانة والصدر . وأخذتها . وأخذتني . وغبنا معاً عن الوجود! وفجأة ، انتزعنا الصياح الغبي من قلب النوم : يايُمّا تعالى! لقينا خليل . تعالي شوفيه : نايم بحضن الكلب ، والكلب بحضنه نايم .

(٣)

تجاوز اللغة القديمة هو تجاوز المشاعر السقيمة . مشاعر الخضوع المعمم ، والشعور بالإثم .

اللغة الجديدة : هي إعادة ترتيب الوضع من جديد . وضع الكائنات داخل اللغة ، وقلب علاقاتها الأولى ، معها ، وفيها ، معاً .

الظلام ، نفسه ، يملأ المكان . الأنفاس القديمة ، نفسها ، تتخالط ، كالعادة في الأنحاء : أنحاء العالم القديم . وعلى الفراش الوحيد ، ذي الألوان المختلطة الغربية ، امتدت الأجساد الأساسية كلها : جسداً لصق جسد .

الفضاء مكشوف . وهو أيضاً محجوز . محجوز عما يحيط به ليلاً - نهاراً . محجوز بحواجز سحرية لا تراها العيون ، ولا تمسها الأعضاء : حواجز - حالات . لم يبق ، بيننا وبين العالم ، بفعلها الغامض ، إلا النافذة الخشبية الوحيدة ، جنوباً . نافذة الظلام المخيف : ظلام قبل أن يطلع القمر من جديد . وكما تترك الأفعى الجائعة غارها الخَليّ باحثة عن فريسة ، تركت الذراع

الصغيرة قاعدتها الملتصقة بالأرض ، وامتدَّتْ تزحف نحو الغار : الغار الفضّي الخاتل في العمق . ومن المخدة الواطئة إلى الطرف القريب ، قطعَت الذراع آلاف الأنواء والأنحاء . قطعَتْ مسافات مظلمة سوداً . مسافات مسكونة بهذا العضو ، أو ذاك . منها ، تخرج روائح ليلية متماثلة إلى حد الاختلاط : روائح أجساد متلاصقة باستمرار . وبمهارة لا تقدر ، تجنبت الأول والثاني ، وعلت البقية واحداً بعد آخر . عَلَتْها ، دون أن تثير خشيتها ورؤاها . وأخيراً ، مسَّت اللحم . وكالمصطلي ناراً ارتد اللحم الطالع إلى جذعه .

ارتَدَّ ، وتقلصت الأحشاء تقلصات خافتة ملجومة . واختلج الكيان النائم ، كله . اختلج اختلاجات رعناء أشبه ما تكون باختلاجات المخنوقين . وكأنما أصابها العطب ، وحدها ، ظلت الذراع المرسلة ممدودة في الفضاء ، دون حراك أو لغة أو اتصال . ظلَتْ مَلْقوحة . جامدة . فارغة من الحس ، حتى الفجر . حتى الفجر الذي لم يعد يأتي . فجر عباس الذي سرى ، ذات ليل ، حاملاً ذلك البؤس الظامىء المليء بالتوتر : توتر الحياة . سَرَى وهو يُعَلِّمُني : اسمَعْ يا عجي ، الموت الحقيقي هو موت النار . نار الحب المتقدة في جنباتنا . ألَمْ ترَ العطار الجائف؟ هل تعرف هو جايف ليه؟ وأستدير إلى البر . أرى الثعالب المتعالقة كالنبات . ثعالب ابن جليوي المُربّاة نعيماً ، ثعالب ابن الكلب! أراها . ولا أقول شيئاً . ولا يأتي الفجر . ولا

يرجع عباس . ويظل الجو يعبق برائحة غريبة ، حامضة ، ساقطة حتى الفؤاد! أية رائحة هي هذه الرائحة المثيرة؟! هذه الرائحة الغريبة الحارة كرائحة الشواء المحروق!؟ عباس في هذه الأنحاء!؟ أيكون اقترب ، الآن ، من البئر ، بئر الرِجْم القديم ، التي تدلىّ بها ، ذات يوم ، هارباً من الدرك والمختار؟!

إنني بحاجة إلى كل شيء لأحيا : إنني بحاجة إليَّ .

من تحت الغطاء الوسخ القديم رأيت عينيها الشاحبتين تتسللان إليَّ . إلى جسدي الصغير الذي لا يزال ممدداً كالعمود . رأيت دهشتها المريعة وهي ترى الأصابع السود النحيلة تدخل ، تواً ، جوف حوضها الدافىء المستثار . ومنها ، كلها ، تنبثق حركات متشنجة مهمومة ، مملوءة بالرفض والاستسلام . حركات جوانية مضطربة ، تلتها أخرى أكثر عمقاً واضطراباً . حركات لئيمة غامضة لم أرها ، بشكل مباشر ، من قبل . انهزمتُ ، من جديد ، داحِساً رأسي تحت الجِلال الملون العتيق ، والفجر يتسلل في الخلاء البديء من شقوق الحيطان الطينية الضيقة ، جاءتني أولى خطوات ضوئه . الضوء الأصفر البريء . ضوء الشمس الأزلية الحمراء ، التي تصعد الكون ، كله ، قبل أن تصل إليَّ . تصل باهتة . حائلة اللون والقوام . ليس لها حرارة أو شرارة أو كيان . امتصتها ، قبل أن تصل الدار الغربية ، المَدْمومَة تحت الأرض ، الحقول المتناثرة في الفضاء

الشرقي ، كله . حقول ابن جليوي . حقول ابن الكلب . في ذلك الشحوب الكوني المهيب ، لم أفهم شحوب وجهها الأصفر المخيف! ولا من أين جاءها التعب القاسي ، وهي لم تترك الفراش بعد؟

وبدت لي في الضوء المتكسر ، ذاك ، غضون جسدها ، الذي كان مشدوداً ، ذات يوم ، عميقة متخالطة . وتدلّى ، بازائي ، لحم وجهها الصامت الخلق . الوجه البيضاوي الصابر ، الذي لم يكن عابراً . تدلّى كل شيء فيها وبدأت تنهار ./ عباس .

أين ذهبت طفولتك التعيسة السعيدة ، تلك؟!

أنت الآخر تغيرت؟!

لن أمسك حتى بسوء

لا يمكن لأحد أن يصل ، وحده ، إلى هذا القَدْر من الكره للآخر .

الحاجة لأن يكون الآخر بحاجة إلينا هي التي يجب أن نتلخص جذرياً منها .

أخيراً ، علت الشمس بعيداً ، وتسلل نورها الفائر إليّ . وأحسست بالسقف المقشش يرتبك بفعل الضوء ، الضوء الذي نفذ عابراً من شقوق القش والحصير . الشقوق التي تنتمي إلى

السقف أحياناً ، وأحياناً إلى الخلاء . وبإصرار مفاجىء غطيت رأسي ، كله ، وأنا أستعيد الذراع الممدودة ، دون أن أعيد مَدّها من جديد . ألمٌ غامض صار يعبرني ، دفقات . دفقات : ألمُ الارتداد الخائب إلى الذات!؟ بلى! شعرتُ فجأة أنني كنت أنزلق نهائياً نحو الخراب . وأنها خلقت عندي ، بشكل سري ، حاجة لم أكن أعرفها ، لم أحتجها ، أبداً ، من قبل . حاجة صارت تتملكني قبل أن أستطيع تحديدها أو السيطرة عليها . الحاجة إلى أن أكون بحاجة إليها باستمرار : الحاجة إلى الخضوع .

أمد يدي ، مرة أخرى ، في عمق الليل ، إلى هناك! أمدها ، خلسة ، حتى أطراف القدم الممدودة باستمرار! القدم التي لم تعد قدماً : تَغيَّر حالها . تبدل لونها . ثَخُن جلدها . وتفاقم بها الإحساس . وفوق جلدها الأصيل تراكم ، يوماً بعد يوم ، عرق وغبار ودسم وأشواك وتحولات وندم وأراض كثيرة وغريبة . كل شيء تراكم فوق كل شيء ، وظلت القدم القديمة فائقة الحس والانتباه! ما إن تمر بالقرب منها يد حتى تجفل وتستطير . تغدو اشتعالاً واضطراباً . مرة أخرى ، أعيد الكرة! مرة أخرى ، أتحسس صلبي مستثاراً ، وأنا اتهيأ للتوجه إلى هناك/ عباس .

من ذلك الحيز المجهول ، الخاتل بين النار والنار ، انتشلَتْني اللمسة الملعونة : لمسة الصبح الموقوتة . وفوراً ، غدا فضاء المتعة المبهج كابوساً . لم يحدث شيء مما أريد! اللمسة تتلو اللمسة .

العينان تزدادان غموضاً وإبهاماً . ولم أكن أريد أن أفقد ذلك المشروع الجميل : مشروع اللذة الأولى ، هكذا ، دون مقاومة أو عناد . أنام أكثر فأكثر فأكثر إذن؟! لكن اللمسة ، الآن ، غدت حَكّاً . حكاً لَحوحاً . والرِقْة صارت ، في طرف الأصابع اللامسة ، عُبوساً ونَدْغاً : المدرسة راحَتْ الدنيا نهار . وأنت تنام؟!

وأقفز مرعوباً . أتطلع حولي بعبوس واكتئاب : لا أحد في الحال! البيت فارغ . أمي ، وحدها ، تروح وتجيء كالمحكوم بالإعدام . تكاد تحمل البيت ، كله ، على ظهرها . تتمتم فرحاً : خليل يروح على التجهيز! ولم يكن أحد يسمع لأحد مَسْمعاً . أحياء الحي الغابر كلها تتحرك ، معاً ، في الوقت نفسه ، وفي الاتجاه نفسه : المدينة . على المدينة يا شباب . وبقيتُ واقفاً . أتأمل المكان بروية وهوس . أبحث عن شيء أعرف ، تمام المعرفة ، أنني لن ألقاه . مع ذلك ، كنت أبحث عنه باصرار . ذلك ، كله فاجأها وآذاها . معي ، صارت ، هي الأخرى ، تتطلع بغرابة في المكان . تتطلع دون أن تميز سراً . وبرقة أحاطتني ، وهي تسألني ، بعجب : ضيّعتَ شيئاً؟ تبحثُ عن شيء؟ عن أي شيء؟! وانتظرت إجابتي دهراً : لم أقل لها إنني أبحث عن حذاء . ولم أقل لها ذلك حتى الآن/ عباس .

(٤)

قبل أن يترك النظر القدمَ الحافية وأنحاءها ، استوى خلفي . وتَملّى ، بمودة فائقة ، شعري المنفوش من الخلف والجانبين . ولم يتسنَّ لي أن أرى وجهه المغضن الممتلىء بالرَشّ ، ولا يديه الكبيرتين المختلطتين بالحطب اليابس والخرنوب . من اللمسة الخاطفة عرفته . ومع أشعة الشمس النافذة التي غدت ، الآن ، بيضاء كالحة ، رأيت المحيط ، كله لامعاً : الأواني القديمة المربوبة ، الأثاث المهترىء المنفوض . والقامة الطويلة باعتدال . ابتهجت قليلاً وأنا أكاد أصدق ما أرى! وأعدت النظر ، من جديد ، وأنا أفركُ عينيّ فركاً عنيفاً . وقبل أن أقضي على آثار النوم الكابوسي المخيف صرت أردد باقتضاب : جئت؟! جئت؟! كان كل شيء يمر سريعاً كالنهر الفائض في الحماد . ولم أدرك ، في مدى البصر اللصيق ، إلا ابتسامته الوالهة الغامضة التي اختفت كالبرق . وحركة يده البيضاء الساطعة التي امتلأت بها يدي . بخجل شديد ، ضمَّني وقام . وتبعتُ قَوْمته ، بشغف . عالياً ، شهلت أكتافه العريضة رادءه البني الكالح . شهلتْهُ إلى

أعلى ما يمكن ، تاركه بعض نواحي إليتيه عرضة للنظر السديد . ومع مشيته الراكدة العميقة ، رأيت ارتماء وركيه . الارتماء الذي أثار فضولي إلى أبعد الحدود . كنت أعتقد أن أوراك النساء ، وحدها ، ترتمي في الفضاء . كدت أضحك من حالي غير أنه استدار فجأة ، وعاد . وبشيء من الاضطراب قال ، وهو يتربع على التراب : أريد أشوفك وأنت تمشي على التجهيز .

وبعد فترة من الصمت ، أضاف : احلفْ . احلفْ إنك ستعلمني القراءة والكتابة . قلت : بلى ، أعلمك كل ما أتعلم . اختفى صمته القاحل وهو يتملاني بشراهة وتسديد . ومع ابتسامته الرديدة مَدّ يده الطويلة إلى ما بين فخذيه . من صرّته العتيدة أخرج بعض النقود المحروقة والمسروقة ، ودسّها في جسدي الصغير ، دسّاً وأنا أتمنعُ بإلحاح : يكفي . يكفي . كنت حقاً على حافة البكاء .

يكفي؟! ردد ضاحكاً ، فاتحاً فمه الأرعط الكبير ، مُكوِّماً عضل وجهه ، كله ، في وجنتيه : خدّاه ، كتلتان مزروعتان في الوجه . كتلتا زعل وعظام . وكيانه ، سفر واختلاط . اختلاط العرق بالحرارة المقيمة ، بالتعب الذي لا راحة بعده ، بالغضب والحياء والاستياء . كدت أرى الجبل والحماد والبر في مقلتيه . ولأول مرة ، رأيت ، قريباً مني ، أسنانه البيض القاسية تملأ فمه بلا انتظام . في ثناياها ، عثَرْتُ على بقايا الخبز المأكول منذ

دهور . وعلى فتات الأعشاب البرية المجهولة ، والحيلوان . في بعض أنحائها كان يتكوّم شيء أبيض فطري يشبه اللبن الخربان . وقريباً منه ، كانت تصعد ثنيات اللحم الأحمر - الذي غدا أسود وهشّاً - إلى أعلى الجدار : جدار الفضاء / الفم . وكأنه فرح من عجبي به ، صار يغالي في تضحيك نفسه ، كاشفا ، أكثر فأكثر ، عن أعماق حلقه الواسع ، وعن خفاياه . وفجأة ، أصابني غثّ يشبه الحمّى والارتباك : الجوف اللحمي المفغور ، إزائي بدا امراً مثيراً للعجب والخوف! من هنا يعبر كل شيء؟! كل شيء من هنا يمر! الطعام والكلام واللوعة والاحتضار والكره والاستياء والتعبير عن الحب وعن الرغبة وعن الانكسار .

الإنسان صفاته . وصفاته قوامه

الحياة؟! ما هي هذه الحياة التي لا تني تخيفني بها؟

وقبل أن أحدد هدفاً أغمضت عيني واختفى الزول الفاغر فاه .

اختفى فوراً . أشياء أخرى عديدة صارت تختلط في فضاء عيني الغامض . وبدا لي ، كالحلم ، أنني كنت في وضع متحرك ومحرج . وضع تمتزج الرؤى فيه بالمرئيات . ليس لي منه خلاص ، برغم يقيني الغريب ، بأن الفصل الأساسي ، من

ذلك الوضع ، الذي اندخل في كياني اندخالا لا فكاك منه ، صائر إلى زوال . إلى زوال آني وكامل . وإلى الآن ، لا أدري كيف ملأت نفسي تلك الرغبة السحرية المحرقة! ولا كيف كسرتُ العود الرفيع الذي كان بين يدي . كسرته وأنا هائج وحزين .

في صمت ذلك الصباح العنيف ، كان الحسّ ، الذي انبثق ، فجأة ، في الكيان ، يختلط باللمس الصلب المدروس . كنت أرتجف ارتجافاً أخاذاً ، وأنا لا المح إلا الظلام .

آه! لماذا تختفي البهجة من هذا العالم ، ولا يسود فيه إلا الخوف؟!

ومن أين ينبع ذلك الاهتزاز الدائم ، الذي يحرك القلب ، ويملأ النفس بشيء جارح كالحقد؟ حقد مطلق يشل الرغبة في الضحك والبكاء ، معاً .

ومن جديد ، صرتُ أحس رأسي ثقيلاً . ثقيلاً حتى القيء . لم أعد أقوى على حمله وإسناده . لكأنه كتلة من الرصاص . وبدأت أشعر ، شعوراً سليطاً ، بأنني لم أعد أرغب بشيء آخر ، في هذه الحياة ، غير سنة طويلة من النوم/ عباس .

أنت مخطىء . وخطؤك الرئيسي هو العجز! وطالما تظل عاجزاً فستظل مخطئاً : هكذا تكلم العراف .

في عمق الليل أيقظني ألم حارق . ألم حارق في المعدة والأحشاء . ألم اليقظة الأولى : يقظة الحس في عالم بلا إحساس .

صرت أحث نفسي على أن تستسلم! ولكن لمن!؟ لعدوها السخيف ، الذي استسلم لها من قبل؟!

أبحث عن حبك لي ، لا عن فهمك العميق للعالم . ولكن ، هل يستطيع أن يحب من لا يفهم؟!

لم أخلق لهذا «الانسجام» ، خلقتُ لأبقى خارج كل نظام .

لم أعد أريد أن ألقاك ، لم أعد أريد أن ألقى أحداً ، بعد اليوم ، بوجه حزين .

وهذه المرة ، في عمق الليل القادم ، تأتيني الذراع اللَّدنة الضفراء الطويلة . تُمسِّد شعري . تمر مروراً مريباً على وجهي وشفتي . تتأكد ، كما كانت تفعل دائماً ، من أن عينيّ مسدلتان ، وفمي مزموم ، وجوانحي مملوءة بالقشعريرة والاهتزاز .

ومن جديد ، تُطلقُ من بدني الخفي تلك الروائح الغريبة اللَّجَّاجة . روائح التفتّح والانتشار . وتجعلني أرتجف كالمحموم : أرتجف ارتجافاً مصحوباً بمتعة غريبة ، تشعُّ مني شعّاً .

أين كانت هذه الأشياء ، كلها ، تختبىء حتى

الآن؟! في أي جزء مني ، وفي أي مكان؟!

الإنسان البائس هو الذي لا صفات له ، ولا قوام .

الحب كالحياة ، إذا انتهى مرة ، انتهى إلى الأبد .

وتستمر الذراع الهائلة في نزولها إلى القعر : قعر الكيان الذي لا مثيل له ولا شبيه . وأحسني أنشهل ، أنشهل عالياً حتى الطير . أقارب السماء . ألجها من أي مصدر أريد . ألجها ، وأنا لا أدري ما أفعل . توتر مفاجىء وعذيب يحولني من المكان إلى الجنان . توتر مشبع وسيّال يستولي - أول ما يستولي - على حواشي فخذيَّ . بعدها يهبط سريعاً حتى الركبتين . ومن ثم يصعد حتى الغلام . يصعد مستديراً ، بعد أن يحيط بفوهة شرجي ومغبني . ومنذ أن يتخلل جلد الخصيتين الرقيق ، تغشاني النوبة القصوى . نوبة الارتكاس الجهنمية التي تودي بالحوت إلى الموت . تغشاني وأغشاها . وأخرُّ صريعاً ، وأنا أصيح باهتزاز : دثروني ، دثروني .

وفجأة ، يتحول اللمس قَبْضاً . والرِقّة شدّة . والمقاربة حصاراً : الذراع اللينة الصغيرة تحتَلنُّي كلي! أحس بها تسرقني من مكاني وحوائجي وأحشائي وأنحائي . تأخذني إلى حيث أدري ولا أدري ، والبلل الهش الثخين يتساقط مني ، هبّات . هبّات! تَجرُّني . وأنجرُّ . وبالفعل أترك منامي الدافىء إلى منام آخر . وأترك جلدي إلى جلد آخر . وكينونتي إلى أخرى . وأريد

أن ألَتمَّ فأتمدد . وأن أنام فأصحو . وأن أصيح فأسكت . وأن أفرّ فاصمد . وألا أفعل فأفعل : كل شيء يصير ضد كل شيء . قبضة الذراع العليمة ، التي استولت علي ، من قبل ، تستولي علي ، من جديد . وشيئاً فشيئاً يجيء الموت/ عباس .

ماذا تعني العودة ، مرة أخرى ، إلى هناك ، غير الوقوع ، من جديد ، في غموض ذلك الوضع المبهم!؟

ما أنا بحاجة إليه ، هو الوضوح . والوضوح ليس نقداً ذاتياً ، ولا يكتسب عن طريقه . إنه نقد الآخر بقسوة ، والوقوف نهائياً إلى جانب الذات . إنه الفعل الذي لا يعيدها إلى جادة الصواب الغبية ، بل الذي يدفعها خطوة أخرى على درب القطيعة .

الانتصار على الذات هو التخلي جذرياً عن أوهامها القديمة .

انتهى الحلم قسراً . قبضتها العنيدة شدتني من كل شيء شدّاً . شدّتْني لتضع الضياء الباهر في عيني ، وهي تشير إلى الكون الخارجي ، الذي امتلأ صياحاً وضوضاء : انظُرْ! انظر الناس أين ، وأنت أين . وأُنظرُ أسفل العين . وأرى كل شيء : الدلالين والبياعين وحاملات اللبن والحليب والوَرادات والعمال والسقائين وسائقي الحمير المحملة عشباً وقصباً وروثاً . كل شيء يمتزج بكل شيء إلا أنا . إلا أنا الذي لا زلتُ أغط في خمول

عجيب . وأغمض عينيَّ على الصورة دون نواح . وتعود تلمسني باهتمام : يا وليدي رأسك حار . العرق يزخُّ منك زخّاً . جلدك رطب ، مبلول ، مثل جلد المدفون تحت القاع!

وبقسوة أبعد يدها الواقفة فوقي ، وأحفز . ولا بد أنها رأت ارتفاع الثوب بين الطرفين . رأت العُسْرَ الذي لم يتحول بعد ، إلى يُسْر . رأت انتصاب الجسد الصغير الذي صار يتمرد الآن . يتمرد على الحافظ والمحفوظ . وكالجدي الفَجوع ، أصل الكوخ القِبْليّ ، سريعاً . أصله ، قبل أن يرتد ، إليها ، طرفها . وأحس بها ، تلحقني وهي تتمتم كلمات ، كلمات . ماذا كانت تتمتم وتقول : امرأة الحُثول والبقول؟! امرأة الحقول الغبراء الضاربة في البر : من الحَسَكة إلى رأس العين ، ومن رأس العين إلى «الدِرْباسّية» . ومن هذه إلى «تل أبيض» ومنه ، من ذلك التل الأسود الأجرد ، إلى الحماد : الحماد الذي يضيع في خلاء الكون ، جنوباً ، حتى «الدير» .

ماذا كانت تقول ، تلك المرأة المرغوبة عن نفسها ، الغارقة في الضيم؟ لا أحد يدري ، حتى ، ولا أنا! ودون تأخير ، ألج الكوخ الغاطس في الحضيض . أصب الماء الصقيع على هامتي الراجفة . وأتابع القطرات اللاسعة تترى حتى جذري . تسيل ، في انحدار إليتيَّ الضامرتين ، باعِثة فيَّ إحساساً مائعاً وبديعاً . وبثوبي الوحيد ، الذي كان يرتفع حتى العُرْف ، جففت شعري ، ووجهي ، وبطني ، وإليتيَّ . جففتها قبل أن أغادر

الجوف الطيني الرطب المليء بالعفن والهباب الأسود المتراكم : هباب نار القِشّ والروث والكَعّوب .

النار التي تسوي الخبز والحنطة والماء والهواء . وتحرق الأخضر واليابس . وعليها يَتَحَمّى الباسم والعابس . وفوراً ، قلَبْتُ وجه الثوب ليحتل مكانه كما كان . قلبته بلا اهتمام . كنت أعرف ، هذه المرة ، أن المدرسة قد فاتت . وأنه ، لم يعد أمامي إلا الركض . الركض الهائج حتى انقطاع النفس والموت . كنت أريد أن أصل التهجيز . ولم أنس - مع ذلك - قطعة الخبز الناشفة المُسمَّدة الكَرْداء المتآكلة القلب والأنحاء ، والتي لا تنقص ، برغم ذلك ، كله! لا . لم أنسها ، ولم أمسها بسوء . مررت بها عابراً ومغيراً . لا ، لم أكن قادراً على تأمل المشهد أكثر من ذلك . كان عليَّ أن أستطير راكضاً حتى الغياب . بلى! رأيتها ، تلك القطعة الغريبة ، ولم أقربها . هذه المرة ، أيضاً ، لم أكن عازماً على الوثوب . لم أكن راغباً في الأكل . راغباً في الشرب . راغباً في أي شيء آخر سوى الاهتزاز . الاهتزاز بحرقة واكتئاب مثل القرّائين الأئمة الكبار .

كنت أريد أن أُحاذي ، من جديد ، جدار الشط الأزرق المخضرّ . ماشياً سطح القاع من الجنوب إلى الشمال . راكباً ظهر النهر . مبتعداً في زوايا المدينة المجنونة ، الحمقاء . كنت أريد أن أصل التجهيز ، قبل فوات الآوان . إلا أنها أمسكت ، بحنان آسر ، بعضاً مني ، وهي تقاوم : لا . لا . كُلْ شيئاً . أي شيء .

لن أدعك تذهب على الريق . النهار طويل . اشرب قليلاً من الماء . الماء بَلاشْ يا وليدي . وبَهْمَهمَةٍ فارغة من الكلام أفهمتها أنني لا أريد شيئاً .

إنني لا أريد . وارتاعت . ارتاعت مثل كل مرة ، أُهمْهِمُ فيها دون أقول شيئاً محدداً بالذات ، مع أنني أعنيه . بعد ذلك لم تقل شيئاً! أعيتها المقولات السخيفة التي كانت تخترعها باستمرار . فيوماً بعد يوم ، كانت تتهاوى أمام إصراري العنيد تدابيرها الصغيرة . تدابيرها البائسة ، المستوحاة من فقر الوضع ورثاثته ، لم تكن تصمد طويلاً أمام القرف العنيد والاستياء المخيف اللذين ملآ نفسي منذ الخطوة الأولى . ودون أن أقول شيئاً خطَفْتُ نفسي ، وطفِقْتُ أركض في البر . كان علي أن أنط من فوق التل الكبير : «تل غويران» الناهد بكبرياء . أن أقفز النهر الأملس الموحل سطحاً وعمقاً . أن أمر ، برقاً ، في الشوارع الأخرى ذات الأطراف الدامعة ، متحملاً نظر المارة والقاطنين ، متجاهلاً حذرهم المجنون : ياه! حفيان . عريان . زبه يلوح . ويركض على التجهيز!

الدنيا خربت؟!

إي والله .

وفجأة ، صرتُ امشي الهوينى : هيأتي ، كلها ، تغيرت ، وأنا أقترب من الجدار الأصفر المخيف . خشية رعناء ، وشيء

يشبه الخشوع ، أحاطا بي من هنا ومن هناك . آه! ها أنذا أقف ، من جديد ، أمام الباب . الباب الذي انطردت البارحة منه . طردني القوم ، وأعود اليوم/ عباس .

وفوراً ، أرسلتُ سمعي في الفضاء الصاخب الحامي : فضاء التجهيز المليء بشراً وحكايات! من هنا ، خرج المحامي ابن جليوي . وابن جليوي المحافظ كان يدرس هنا . ومنه تخرج «التَخْتور» أبو نظارات سودا . ومنه ، أيضاً ، طلع صاحب الصيدلية وأستاذ الفلسفة الأشقر الضعيف . ومن هذا التجهيز الأصفر ، بالذات ، نبغ السياسي اللاسع ، ابن جليوي ، وابنه الآخر ، الذي ينظم الآن حركة الحومة والأنحاء : يرغب الزعماء والشيوخ . ويرهب الفروخ والحرامية . ومنه ، خرج صاحب الكراجين : «كراج الجزيرة» للسيارات و«كراج الجزيرة والفرات» لكميونات الشحن الكبيرة من ماركات : بيريللي وفولفو وبوزينغ الهائلة الحجوم ، ذوات الدواليب السود القاسية ، التي تدوس كل شيء دون أن يضرها شيء أبدا! وقبله ، أخوه الذي يملك «ساحة العرصة» كلها يؤجر دكاكينها لمن يشاء . بما يشاء . كيفما يشاء .

ومن هذا التجهيز الذي أقف الآن على أطرافه ، خرج ذات يوم ، أيضاً ، ابن الغسالة ، أم جرجيس ، الذي صار مِثالاً : جرجيس الطويل النحيف الخائف المطارد دائماً . والذي لا يخبىء في حواشيه إلا الكتب العتيقة ذات الأغلفة المزورة .

الكتب التي تحكي عن الحتمية والتقدم والثورة . جرجيس الحذر ، ابن غسالة البُسُط والصوف والأواني . ابن أم جرجيس ، التي ، ما إن تراني ، حتى تضمني باكية مذعورة ، لكأنها تفشي سراً : أمك كيفها؟ أبوك كيفه؟ عندكم خبز؟ عندكم ماء؟

وجَرْجيس ، يا أم جَرْجيس؟ أين هو الآن؟ أنا؟! صرتُ أروح على التجهيز .

ويخبرني الدمع شيئاً ، والقول شيئاً آخر : جَرْجيس يا وليدي راح يتاجر . ويختلط الصمت بالتوتر والاكتئاب . وأكاد أسمعها تضيف ولا تضيف شيئاً آخر غير ذلك الصمت الثقيل . صمت أم جرجيس التي تبدأ كرها على الماء ، وفرها منه . بيديها أكوام الغسيل المبلولة باستمرار : شوفْ يا وليدي المي لَوَتْ ايدي . وصار جلدي مثل جلد الأفاعي له أثلام وحراشِف وامتدادات . ولم يعد غسيلي يرضي الخواتين!

آه يا وليدي آه!

آه! البَلَلُ يتساقط منها حَبّات . حَبّات . أصابعها الهزيلة المرتجفة توحي بالخَرف والقرف والامتعاض . وتلمس كتابي لمساً خفيفاً ، وهي تحثني بحنان : عَجّلْ . عَجّلْ . المدرسة راحتْ . وأروح ركضاً . وتظل هي قاعدة على الماء . تفرك أصابعها الركبتين والثياب والأشياء الأخرى ، والماء نفسه تفركه بالماء .

آه! التجهيز ، الذي أصله الآن ، يضجُّ بالصياح والهياج . الكلام ، في ساحته الواسعة الرهيبة ، يتلو الكلام . وفوراً ، أمد قامتي الضئيلة نحوهم . أراهم واحداً واحداً . أعرفهم ولا يعرفونني . بلى! أعرف الجمع المجتمع هنا ، وهناك ، وهنالك . وفي الزوايا الأخرى البعيدة ، كلها . وركضاً ، اقترب من مصادر الضجيج واللجيج . وبلا تأخير ، تتوافد نحوي الكلمات واللهجات والنعوت والصفات والاحتمالات . وأسمع الكلام ولا أفهم معناه . وأرى الحركات ولا أدرك فحواها . وأكاد أطير . ألاقي الأول والثاني . أسألهم عما يتحاورون . ويصدني الجدار . ومن خلف الجدار ، العينان العابستان الملفعتان بالنظارات السود المليئة بالغموض . نظارات المراقب الذي حال البارحة بيني وبين الولوج .

ولأول مرة أحس بالحب . بالحب الذي يشبه الحب فعلاً : حب غريب يقربني ، كلما اقتربت منهم ، من نفسي!

أليس ذلك وَقْعاً؟

كدت أنسى أهلي . ونسيت تماماً ، أنني جائع حزين .

شعور غامض كان يملأ أركاني .

وأقترب ، أكثر فأكثر ، من مصدر الصوت . وكالبارحة تماماً ، أفتح أفواهي ، كلها ، للإنصات . ويجيئني الكلام مختلفاً ، هذا الصباح : لم تكن الضجة فارعة مثل البارحة عصراً! كانوا يتحدثون عن أمور كثيرة لم أسمع بها من قبل . عن أساطير .

ماذا يقولون؟!

أدنو . أدنو ، أكثر ، أكثر . أشقُّ الجدار . ألجُ الجَمْع وُلوجاً بلا تَماس .

وبتوتر ، لا حدود له ، ألمُّ أشتات الكلام : القول والفعل والحركة والسكون والعقل والمادة والانعكاس والانبجاس ومثال الحية التي تسقط من عل دون أن تنكسر ، والعصا التي تنكسر من دخولها الماء . والشَعْب . أي شعب؟! كدت أنادي الرائح والآتي .

وتتتابع الأقوال والأمثال . وشيئاً فشيئاً ، تختلف الأحوال : فجأة يدق الجرس النحاسي الأصفر ، ذو اللسان المعدني الطويل . وترن دقاته الحادة في أركان العالم ، كله . ودفعة ، يحل الصمت . تموت الحركة . ويسود السكون . وأظل وحيداً خارج الخلاء . وحيداً ، أتملّى الباحة والساحة . وأرى ، لأول مرة ، مشاجر الأعشاب اللاصقة بالتراب . أعشاب التجهيز الحميمة . وأكاد أمد يدي ، أقطف غصناً منها ، لولا الهجمة المفاجئة التي صدتني : ابعد ايدك .

أبعد . أبعد . وأبتعد داخلاً جوف الزاب . جوف الحقل العتيد . حقل ابن جليوي . حقل ابن الكلب . الحقل الملاصق للتجهيز . المستند إليه . وعن كثب ، تتراءى لي شوامخ الحور هفهافة ، يُلَطّفُ وقعها العابث سكون التجهيز الذي خلا فجأة من الحياة .

وفجأة ، في ذلك الفضاء الكبير الفارغ ، أسمع صوتاً لئيماً . أحسه يناديني : تعال . لم أتحرك . لا لهفة ولا خوفاً . العالم ، حولي ، مات . غدا جثة . جثة تمتد من أطراف التجهيز القصوى ، حتى أطراف تَلْ غَرّة البعيد . الحياة صارت مرتبطة بدقة الجرس . بهمهمة المراقب اللئيم ، ذي النظارات السود ، الفارغة من الطيش . النظارات الآجرية الصماء . ويستعيد الصوت المؤدب نفسه ، من جديد : تعال . لم أتحرك . كان رأسي الصغير قد امتلأ أصواتاً وجراحاً وضوضاء ونداءات وخيالات وكلاماً كثيراً وكبيراً! كلاماً لم أكن أفهم له معنى وكنت أحفظه عن ظهر قلب . ومقولات سوداً حمراً بيضاً أحسها ولا أدرك مغزاها . وعبارات غريبة أخذت بمجامع قلبي ، ولم أعد أنام . أنا أيضاً أريد أن أحكي . أن أحاور . أن أداور . أن أحاكم الأمور . أن أتملى الوجوه عطشى إلى استماعي ، والاستمتاع بما أقول! ويوماً بعد يوم ، كنت قد تعلمت ، تعلمت سَمْعاً ، أشياء كثيرة : تعلمت الفعل والواقع والأشياء الواقعة فيه . وكثيراً غيرها! ولكن ، ما هي هذه الحرية التي لا يخلو منها كلام؟ ولم يتعلق بها الجميع إلى هذا الحد؟

وحسبتُ ، في خضم تلك التساؤلات المريبة ، أن ذلك الصوت ليس لي . ولكن بلى! ولكن لا . ولكنه الصوت الواحد . ذو اللحن الواحد . والشدة الواحدة . وأصَخْتُ السمع ، من جديد بلى! إنه هو . صوته الواجف . الذي يصدم بصفافة ،

جذوع أشجار الحور النحيلة . ويخرب هدوء ذلك النهار الجميل . مَنْ غيره يستطيع ، يجرؤ بالأحرى ، على تعكير صفو الكون؟! أيكون هو فعلاً؟! أكاد ألتفت . ألتفت حقاً . أكاد أطير . أطير ساقطاً في القاع : المراقب السيد المهيب يناديني! أجيء لاهثاً ، أرتجف كالعصفور : نعم أستاذ . لم يقل شيئاً . أشار بإصبعه الناري إشارة واختفى في الجدار . وفجأة ، نبغ المدير : الرجل الأسمر السمين ، ذو اللغدين المليئين بالشعر والبثور ، والفم الغليظ القابض على الحياة . على عينيه ، هو الآخر ، نظارات خضر ، أكثر سماكة وتبجيلاً . ومنذ أن حاذاني ، تملاني وبغتة قال : أخيراً ، في أمل . أخيراً في أمل!؟

تطلعت نحوه بعجب كأنه يسقط من السماء . وبلمحة أحَطْتُهُ : بذلته رمادية غامقة . أذناه عاريتان ، ومكشوفتان للريح . عيناه تلتمعان كالجمر . فمه سريّ غامض . وبطنه ينهض إلى أمام . هز رأسه وهو يسألني بتواطؤ : أليس كذلك؟! لم أقل شيئاً . من حركته المبهمة السريعة فهمت أنه يطلب مني الانصراف الآن . وبالفعل بدأت أمشي . أمشي وأنا لا ألوي على شيء . نوع من الامتصاص المريب بدأ يحتل اركاني . لم يكن الأمر واضحاً بعد . ولم يكن كذلك في أي يوم من الأيام! ومع ذلك ، أحسست ببهجة غامضة ، تشبه ، إلى حد بعيد ، بهجة الإخفاق/ عباس .

(٥)

صراع الحب تعبير عن علاقات التسلط بين الناس .

اللغة الجديدة : لغة فيها إنذار بالشر .

التحرر ضروري من «مبدأ ضرورة التحرر» .

لكي تحل علاقة جديدة ، محل أخرى قديمة ، يجب ألا تبْني علي أساسها وألا تحمل منظورها .

بما أن الوضع القديم لم يعد موجوداً ولا ممكناً ، فإننا لا نفهم كيف يظل بعضهم يعتقد بأنه كان من الممكن لذلك الوضع أن يحدث على نحو آخر! وأنه ، لو حدث على ذلك النحو ، الذي لم يحدث عليه ، لكان من الممكن له أن يؤثر ، وحتى أن يغير ، ما جاء به المستقبل - تحت ضغط ظروف أخرى - فيما بعد!

السقطة التاريخية هي الاعتقاد بفكرة الذات

الأولى عن نفسها ، والرضوخ لتصورها الأولي للعالم .

الوعي يكتسب لئلا يبقى وعياً .

الآن صرت غريباً غربة مطلقة : هناك لم يعد موجوداً ، وهنا لست عندي .

تمايلَتْ صاعدة كتف العَلْوة الترابية النابعة من الأرض : الأرض الغبراء المحشوة زبْلاً ورملاً . على رأسها ، تنوس تَنَكَةُ الماء الصفراء المضيئة بعد أن ملأتها من الخابور .

وعلى مسافة مني ، وقفَتْ . وقفَتْ تَعُبُّ الريح الحارة ، عَبّاً عَبّاً . وكأنها كانت على علم بوجودي المستثار ، تصنعتْ وقفة خاصة ، أبرزتْ ، بشكل علني ، جمال ردفيها الصغيرين . وحررتْ ، قصداً ، قساوتهما لتصل ، بين الريح والريح ، إليّ . وبوضوح حسي كامل ، حددت مكان الثلم الفاصل بين الفلقتين ، وتحته ، إلى اليمن واليسار ، معاً ، خط انكسار الردف المستدير . الخط الذي يعلن دقة ارتماء القمتين ، خلفا وإلى الوراء : خط الاستواء المقدس والمحظور . مع الخط ، صعدتُ وهبطتُ . وقبل أن أصل النبع ، غيرَتْ هيأتها ، ومشَتْ في الطَلَقْ . بعدها ، في المكان ، نفسه ، وقفْتُ . وقفتُ أتأمل التراب والسراب . وقفتُ أتمثل تلك الوقفة الحادة ، التي لم تكن تنَمُّ ، إلا عن التحدي والحرب! كانت ، حقاً ، وقفة قتال وصدام . وقفة إنذار عاصف بالشر . مع ذلك ، تبلغتُ الرسالة .

مثل أقدام الناس - الآلات . لم يعد للأرض ماهية أو لغة أو ملمس أو قوام . صارت مَداساً . مَداساً . أرض رخوة صفراء حارة مرمية في التراب . أرض ابن جليوي . أرض ابن الكلب . وسريعاً لِذْتُ بأقرب كَوْم من الرمل ، وعليه ارتميت . ارتميت آخذاً وجه القاع ، كله ، ببطني . بطني التي انحَطَّتْ ، دون حواجز ، على القارة الرملية اللاهبة المشموسة . ولم ينتظر السماح له بالولوج . صار يَنْدَسُّ عميقاً في بطن الأرض الرخوة ، المتورمة من الحرارة والقيظ . ومنذ اللمسة الأولى ، بدأ الدفق السارّ . الدفق الملتهب المأزوم . وكأن شيئاً لم يكن ، رِحْتُ أنام . أنام مرتمياً على التراب/ عباس .

كان عليَّ ، بعد ذلك ، أن أصعد الدرب الضيق المَلْحوس . درب القطن العتيد . أن أحاذي الجِيلان العلوية الحادة . جيْلان الخابور السائب في السراب . أن أرى ، يساراً إلى البعيد ، تلك الأراضي الواسعة المتشققة من العطش والخوف . أراضي الفلاة المستقيمة كالخط العَدْل صواباً . وأن أتملى ، في الوقت نفسه ، ذرات الماء المتماوجة كالشَعْر الجميل ، تغوص في العمق القريب . تغوص دون فواصل أو حدود . لا يرد الأُخدود عنها سوى الأُخدود . كان الجوع الأسود قد تمكن مني . وأحسست بجسدي الصغير يتهالك . ينطوي على نفسه . يموت . وأنا أقطع الفيافي والقفار من «غويران» المترب إلى «الليلية» البائسة . ومنها ، من «الليلية» إلى أرض «الحَمْزات» ، حيث ينتظرني

تبلغتها كاملة وعلى استعجال / عباس .

الخطر العظيم هو أن تظل ترى العالم كما رأيته للمرة الأولى .

لست أنا السبب ، السبب هو الوضع الذي تغير كثيراً ، والذي مع ذلك ، لم يتغير قط!

لا يهمني أن أكون أكثر سعادة . ما يهمني هو أن أكون أكثر جذرية .

يجب أن تقامر بكل شيء للخلاص من شيء ما .

بنوع من الخدر رحتُ أتتبع آثار أطرافها المنهجية . أطرافها الوالهة وهي تطأ القاع الساخنة واها ، واها . ولكي تسدد الضربة القاضية إليَّ ، مدَّتْ ، دون احتشام ، كفها الأيسر اللوّاح . مدته إلى ثوبها المبلول الذي التصق بجلدها الأملس التصاقاً شديداً . وبحركة بهلوانية ساخطة ، حَطَّت الثوب حول خصرها المتهالك ، حطّاً . حطاً . تغيّر الوضع كله في ثوان : الدنيا صارت حمراء من القيظ . السهل امتلأ فيضاً . الخابور الموحل صار يجري أنهاراً . أنهاراً . ولم أعد أرى مني إلا عيني اليابستين ، وهما تمتلئان بللاً واضطراباً . ورأسي وهو يرتجف من الخشية والموت . يغدو ثخينا ، واجِفاً في الفراغ ، مثل رأس الثور المنحور . ومع ذلك ، ظلَتْ قدماي تتتابعان . ترتميان الواحدة تلو الأخرى

«بَرْهوم»(*) وقدرية التوتياء العتيقة المَلْحومة! التوتيا تَنْلَحِمُ يابرهوم؟! ويتعجب برهوم من العجب : إحْنا نلحم الما يلتحم ، تحسب أننا هِبْلان؟! قدرية التوتياء الوسخة المملوءة بنقيع البندورة الخربانة والبصل والزيت الحائل والخرنوب . منها ، أتعشى وأعود . وإن لم أتعشَّ هناك فلن أتعشى في مكان آخر من هذا العالم/ عباس .

وكالعادة ، سأقضي اليوم التالي جائعاً ، ملموماً على نفسي . أتفرس في الوجوه الحائثة قدامي . في الأبدان المنشورة كالزنابير . وفي الأرداف المليئة مثل أكياس المحاصيل المتضاعفة ، عاماً بعد عام : محاصيل ابن جليوي ، محاصيل ابن الكلب .

وكالعادة أيضاً ، سأتملّى حانقاً اللُغْد الأستاذ السمين . اللُغدْ المرتمي على الفك كالزائدة . فوقه ، تماماً ، ترتكز ، بأبهة بليغة ، نظارتاه السميكتان الخضراوان اللتان يعدلهما تعديلاً مبالغاً فيه ، كلما طلب من أحد منا الظهور ، أو القدوم ، أو المثول بين يديه ورجليه : اِجلس! اجلس يا بني لأعلّمك . اجلس! المرة القادمة أقُصُّ منك قَصّاً . هل فهمت؟ أقُصُّ لحمك إن تخلّفْتَ . وإن لم تحفظ درسك آخذك معي إلى البيت . وفي البيت أحفظك الدرس . هل فهمت؟! وإن لم

(*) أخو الراوي ، يعمل مُياوِماً زراعياً ، واسمه إبراهيم وهو يصَغِّر الإسم تحبباً .

تفهم أتكفل بك من جديد . يقول هذا وهو يلتصق بالواحد منا التصاقاً حميماً! ألتصق أنا الآخر ، بالدرب : البيت هنا؟ لا . هناك! بيت العجاج والدجاج المسروق . بيت الريش المَنْتوف ريشة . ريشة : هذي ما هي عيشة . بيت من البيوت الكثيرة . بيت لا حفيظة له ، ولا قرار . أي بيت هو؟ وكيف ألقاه؟ كدت أصيح بأعلى صوتي ، برهوم! برهوم! لكن الليل الذي كان يحط بسواده البهيم منعني من الصَيْح .

مع ذلك ، ألقاه! هو ، البيت الجواني ، الخاتل في زوايا البيوت جميعاً . البيت الوحيد البعيد . أول بيت أشمُّ في حناياه رائحة الشواء والعواء . والذي ، على عتبته المصنوعة من التربة والريح ، سَيَقِفُ برهوم واجماً وهزيلاً . ينتظرني حتى أجيء : يا هلا يا خليل . يا هلا وحَيَّاكَ الله . تعال . تعال . ويدلج خليل الوافد من الغربة والاضطراب . خليل ، القادم من أم الدروب ، سيتَقَدَّم بهيبة النازل من الشبح والقراص . يتعجب وهو يرى الوجوه مَلْجومة ، كالحة ، كحِزَم الحطب القديم . الحطب الذي جف ومات : لا نار ينفع ولا أقوات . وسيأخذ «برهوم» بيد الخليل الطالع من الظلام ليرميها ، بمحبة وإصرار في صحن المرق والثريد : كُلْ يا خليل . كُلْ . الصحن كله لك . لك وحدك . نحن أكلنا . نحن نأكل كل يوم .

وأصير أتملّى ، كما الدَوْم ، وجه برهوم المعفر بالتراب ، ويديه السوداوين الناحلتين ، وهيكله البني القانط . وتقع عيناي

الخفيتان على قدميه الناشفتين كقشور القطن الجافة . قطن العام الفائت في «الحمزات» . وعلى بطنه اللاصقة بالظهر . وعلى النحر . برهوم المائي يسد وجه البيت! يومىء بيديه ، من بعيد! لكأنه ينادي شبحاً خرج تواً من الغيم . يصيح عالياً وباستمرار : ترانا هينْ . يا مضيعين الدرب . ترانا هينْ! وعلى الحس أجيء . أقاسمه لقمته البنية ، المغمسة بزيت القطن الحائل ، الملفوفة بقشور البصل الأحمر الوارم : بصل أرض الحمزات الطالعة من الماء . وأرى ، في ذلك الضياء القاحل ، أعناق الشجر القصير تتطاول مع الغروب . ومن بين كثافات النباتات التي صارت تحاصرني الآن ، ألمح ، من آن لآخر ، ذؤابات العروق البرية تتخالط في الحضيض . وأظل أتابع ، بوجل ، نقل قدمي العاريتين ، محاذراً لَسْع الشوك الأسود الوخّاز . الشوك الوحشي البارد . شوك ابن جليوي . شوك ابن الكلب . أسرع أكثر . العشاء صار جاهزاً حتماً . وبرهوم ينتظرني بفارغ الصبر ، على الباب . وأكاد ألا أصل البيت : شوك يحاصر شوكاً . نباتات برية يلتصق الغصن منها بالغصن ، تملأ وجه الأرض . وأفاع صُفْر خُضْر طويلة ، ذوات رؤوس صغيرة مسطحة ، وألسنة لاذعة ، تختل في كل مكان! أين أدوس؟ أين أضع حالي؟ كيف أتابع المسير؟/ عباس .

وفجأة ، ينبثق الصوت من السكون . ويرجُّ النهر صراخ قاس جارح : واَعْ . واَعْ! ومع ارتماء الصوت في الفضاء ، أرتمي ،

أنا الآخـر ، على الأرض . وأحـسني انجـرُّ طولاً . سـائلاً على النبـات . هابطاً نحو الماء . وأتشبث ، باحثاً عن مسند أو قرار . ولا أجـد شيـئاً . وجـه القـاع أملس مثل إبط العـروس . أحجـار القاع السود المنخورة ، كلها ، لَمْناها ، حجراً ، حجراً . وكَوَّمناها على الخابور . وقبل أن أتعلق بقرار الشوك الواهي ، كان الصوت يغـادر المكان : البـومـة البـرية التي أخـافَتْني عـافـتَنْي! ووجـدتُ حـالي انْلَقِحُ على الأرض ومـشـتـقـاتـهـا ، وأنفـاسي تتـلاحق كالعصافير . أطير ولا أطير .

كـالبـرق ، ابتـعـدت البـومـة في مـسـاء الشـمـال الصـافي . ابتعدت صافقة بجناحيها العريضين . خارقة هباب الليل القادم من الشـمـال . تعجبتُ : لـيل شمـالي!؟ أأكون انْهَبَلْتُ؟ وتسقط اليـد مني على القلب . على القلب الصغير الخافق ، باستمرار . غـثيـان حـامض ورديء كـان يصـعـد النحر واللسـان . وأريد أن أصـيح لكن الصـوت لا ينبع من الرغـبـة . الصـوت ينبع من الأحشاء . والأحشاء تموت ، أحياناً ، كما تموت الخيل .

وكـدقـات جـرس خـرافي صـارت تتـتـالى ، مـتـخـامـدة ، صيحات برهوم الغاطس في البعيد . تتتالى مقتربة مني دون أن تمسني أو أمـسـهـا . آه! كـيف أحـرك العـضل والجنان؟! كـيف أخترق هذا الصمت الأسود البغيض! كنت أستأنس بالصوت . الآن لم يبق في المحيط سوى التـلاشي : لا شيء يتحـرك . لا يحمل الريح نداء . والماء يجري هادئاً كالحرامي . لا شيء أبداً ،

لا شيء . وبغتة ، ينبثق الصوت : خليل . خليل . خليل . وأحس ارتعاشته القلقة تدخلني من هنا ومن هناك . وينتظر الصوت صوتي الذي لن يصله . ويتردد الصوت ، من جديد ، مبعثراً في كينونة الليل . يجتاز المسافات الشاسعة ، كلها ، ليصل إليَّ . يصل نحاسياً ، فاتراً ، محبطاً ، ومريراً . وكأن تلك كانت صيحته الأخيرة قبل أن يولي الأدبار ، عرفتُ ، كأني رأيت ، أن برهوم يستدير الآن ، داخلاً باب البيت الذي لا باب له ولا أسباب . يتوقف حائراً ، هنيهة ، ومن ثم يعود . يعود ، يداعب شاربيه الكثين بمرارة ، قبل أن يصيح ، للمرة الأخيرة : خليل . خليل . خليل . وهذه المرة ، لن يقطع الصياح قطعاً ، بل يكسره ويشظيه ، دافعاً بجزئياته المتناثرة حتى حدود الضياء : ضياء المدينة الغارقة في الظلام . وبكياني كله أحفز . أجيء حثيثاً مع الصَيْح . لكأني صرت أعرف الأمكنة والسواقي والجوالي والأواطي والأعالي . أعرف أخاديد المطر المحيطة بالبيت . أعرف أيضاً مصدر الصوت . شدته . اتجاهه . منحاه . والريح التي تحمله شرقاً حتى أوائل البر . وهدأ روعه ، دفعة ، منذ أن رأى الزول . وكالأم التي افتقدت وليدها والتقَتْه ، هجم عليَّ هجوماً . وضَمّني ضَمّاً ، وهو يردد غير مصدق : قلبي اشتعل عليك! وصلت؟! ويعيد بلهفة : أخيراً وصلت . تعال . تعال . ويتملاني ، ولا يرى إلا الظلمة والخُتول . وينتظر الكلام ، ولا يشم إلا ، إلا الصمت . لم أقل له شيئاً . كانت البومة الجهنمية ، ذات المنقار العصبي الحاد ، كمنقار السيف

المسنون ، تلوح لامعة في الرأس . والارتجاف يأخذ باللباب : اللون الأسود خداع . الأبيض موت . الأحمر نار . والأصفر؟ العتبة الأولى من عتبات الدرك الأسفل والغياب . لا . لم أقل له شيئاً . لم أقل إنني ارتميت . لم أقل إنني خفت . لم أقل ، حتى ، إنني جوعان/ عباس .

***

بين النظر والنظر ، يمر الحسُّ المخبول ، صواباً : هذه الدنيا الحقيرة من ينتقذني منها؟ من؟! ويتبع الحسَ المنهك جعيرٌ خالص مستثار ، مثل جعير الثور المذبوح : آخ . آخ . بعد الجعير الحافي يرث الصمتُ الخلاء . يرثه ، برهة ، قبل أن يصعد العواء المشقوق ، مثل عواء الكلبة الوالدة ، من جديد . يلي ذلك ، كله ، وقع ارتطام الجثة المفاجىء بالقاع . وأستجير : برهوم! ودون أن يقول شيئاً ، ينظر النظر القديم المسالم ، نفسه ، وهو يردد بصوت خفيض : لا تخَفْ! هذا هو المَلاّ صالح . صالح المزعل ، ابن لعوب ، هل نسيته؟! وأردد وراءه : صالح! والبقر الكثير الأصفر الأحمر البني المخطط يتقافز في رأسي . «بقر» المَلاّ صالح الذي ضيَّع شبابه لاحقاً به ، كما يلحق الوغيد أمه . آه! الجعير . العواء الكلبيّ العائر ، ومن ثم ، تقع الصدمة الرهيبة : صدمة الرأس القاسي بالجدار! رأس صالح المزعل الذي لا يكف عن الترديد : الظلم ظلام ، يا ناس! أجيروني من الظالم! أجيروني . أجيروني . يردد الكلمة بعد الكلمة وهو ينظر ،

خلسة ، إلى هناك : إلى الدار البيضاء القاطعة ، التي تحجب شمس الصباح الساطعة ، عن البيوت النازلة في القاع .

لم أقل شيئاً . كان الليل الوليد يملأ المكان . والناس تَخُرُّ في البيوت المحفورة خَرّاً ، خَرّاً . وشيئاً فشيئاً ، أخذتُ القاع بمقعدي ، وصالبتُ ، ببراعة رِجْليَّ ، وأنا أتملى الوضع ، حولي ، بخشية وازدراء . أتطلع يميناً ، أتطلع شمالاً . خلفاً وقبالا . أتطلع كالخائف الرَقَّاب . باحثاً في كل شيء . عادّاً كل شيء : اللحاف . المخدة . طاسة العصيدة . الفراش الملحوس . الحذاء الأصفر القديم . تنكة الماء الملطخة الملحومة لحامين . كيس الطحين الفارغ . والأشياء الأخرى التي لم أرها من قبل . أعدُّ هذا . أعدُّ ذاك . أغيّر ، في الوقت نفسه ، جلستي ووضعية ساقيَّ . أفعل ذلك ، كله ، في الصمت : صمت أول الليل القاسي . الصمت المرهوب الذي يسبق العشاء . آه! شيء ما ينقص . أحد ما ينقص . بشر كثير لا أراه ، هذا المساء . ويتسع المكان الضيق . يغدو متاهة ، ضرباً من الخشية والغلواء . يصير الفضاء المحصور كوناً يضيع العالم ، كله ، فيه . ماذا دهاني!؟ ولِمَ لا أرى إلا ظهر برهوم المُقْفيّ ، مُقَرْفِصاً ، ينفخ النار؟ ينفخ النار ، ساحباً أزمات الدخان الأزرق الحارق . دخان أغصان القطن المبلولة ، التي تعاند الاحتراق . ينفخ ويسُبُّ : قطن ابن جليوي ، قطن ابن الكلب . حتى النار ما تقدر عليه! وفجأة ، أرى الغطاء يعلو عن الأرض : هناك ، تحت الكومة البالية . الغطاء يتحرك!

يكاد يمشي . يريد أن ينهض ، ولا يقوى . الغطاء ، كله ، يتململ وكأنه يخبىء أفعى هائلة! كدتُ أصيح . لكن الجرذ العصبي ، ذا الحركة المحورية الحادة ، أضاع صوابي . جرذ آخر ، طلع من وراء العمدان المنخورة ، الملاصقة للغطاء المسحور! ولكن لماذا لا يلتفت برهوم؟ لماذا لا يطرد الجرذان من البيت؟ لماذا؟! جرذ ثالث خالط الاثنين الطالعين من الأفق . وكأنها تشاورت على أمر ما ، اختفى الأول ، ثم الثالث ، ثم الثاني . بترتيب مثير ، اختفت الجرذان تحت الغطاء! وأصابت الهزة الرجّافة الكوم! اللعنة ، من أين نبع الرأس المدور الملهوف؟! أين كان يختبىء؟ ومنذ متى ، مات؟ وأخذتْني الرجفة العنيفة ، نفسها . كدت أصرخ . لكن الظهر المُنْكَبَّ على النار استدار ، بغتة ، وقام . وبخطى يائسة ومَلولة ، اقترب برهوم من الرأس المُلثَّم . ومسح العرق المتناثر ، كحبات البُرْغل ، عن الجبين . مسحه ، وهو لا يلتفت إليّ : تمزق أصفر وغريب ، تمزق جوفي مفاجىء احتلّ كياني ، كله . شَلَّني عن الحركة والانتصاب . ها هي ذي تمدُّ لسانها اليابس لترسل السلام إليّ . ترسله ، كالعادة ، بعد الغروب بقليل . ترسله ، هذه المرة معزولاً : لا قبلة . لا حركة . ولا التصاق . أتكون هي الأخرى ، تريد أن تموت؟!/ عباس .

بلى! السلام رخو . مشلول . متهامل . يكاد يكون مسلولاً . سلام ميت . ميت منذ دهور : (بَسْ) اشْلونَكْ؟! ولا أعرف ماذا أقول . كلمات عجلى . ساخنة ، ملتهبة من الحرارَة والحمى ،

تراكمت على شفتيها المحروقتين . كلمات تتالَتْ دون معنى ، أو سياق؟ واختلط بِدَنين صوتها المتخافت عواء الملا صالح ، المفاجىء ، الذي راح يشق الفضاء . :

«هذه الدنيا الحقيرة من يجيرني منها؟ من؟» تلاه ، ذلك الجعير المشئوم . جعيره وهو يعد البقر الأصفر السمين بقراً بقراً ، قبل أن يعوي من جديد . واكتفيتُ بأن همستُ ، أنا الآخر . همستُ أشياء كثيرة لا علاقة لها بما يحدث فيّ الآن . وسمعت نفسي ، جلياً ، دون أن أفهم شيئاً مما أقول . صرت أخرس؟!

رأْتني أتمتم . صارت تُتِمْتِمُ ، أكثر فأكثر ، وبلا ارتباط! وأراد برهوم أن يعيدها إلى القفص الجهنمي : خُشّي . خُشّي . البرد ما هو زينْ . وتَيَبَّستْ . قاومتْ ، بما ظل لها من بقايا القوة الصفراء المنتهية قطعا : لا! خلّني أشوف خليل . أريد أشوفه قبل أن أموت . ماذا كانت تعني تلك الـ«لا» التي انطلقت ، كالرصاصة الحمراء ، إلى مكان غير محدد ، ولا معروف؟ كاد «برهوم» ألاّ يرضخ . عنَّدَ . وعَنَّدَتْ . صارت الأنظار الصفر الثلاثة تلتقي ، لمعاً ، وتغيب . تغيب لتلتقي من جديد . وبين كَرّهاً وفرّها اختفى الجوع القديم . وأحسستُ بي متخماً حتى الاقياء . لكأنني قمْتُ ، تواً ، عن صحون «الداموك»(*) المليئة

(*) من وجهاء القبيبلة ، وهو مشهور بكرمه ، وبتقديمه للضيوف صحوناً ملأى باللحوم وبالثريد .

لحماً وثريداً باستمرار . آه! الغثيان . الجيشان . اللّعيان . الحرقان . الحمضة الطالعة من الساق إلى الترياق . الحمضة المنبثقة ، كالحجر الهابط ثقيلاً إلى الرأس ، من أين جاءتني؟! أنا الآخر ، أريد أن أقيء؟! وأفرُّ كالثعلب الذي قارب الانصياد . أطأ الأرض ، منلقحاً ، على وجعي ووجهي ، والماء الحامض ، النابع من الشُرْسوف ، ينبجس مني سيولاً ، سيولاً . وكالقنفدة المرعوبة تدخل ، كلها ، في الغطاء . ويعود برهوم ، كله ، إلى النار . يعود ينفخ الحريق . ينفخ بملل واستياء . ويصير يسبُّ ، وهو يزيد النفخ نفخاً : حطب ابن الكلب لا يحترق ، ولا ينسرق . اوفْ . اوفْ . اوفْ . ينفخ . وينفخ . وشيئاً فشيئاً ، أصير أسمع النقيق : نقيق النقيع الذي قارب الغليان . ويظل ينفخ . ويظل الشرر يتطاير ، كالفراشات المضيئة ، في خلاء البيت . والسماد الناعم ، كالطحين المدقوق ، يتراكم فوق وجهه وشاربيه . ولا يمسح فمه ولا شاربيه ولا حاجبيه . يظل ينفخ ، منهمكاً ، ويسبّ : نار ابن الكلب ، تسلّ وتعلّ . نار ابن جليوي نار النهاب ابن النهّاب . وبلا التباس ، يحلُّ سراوله ، أو ما يمكن أن يسمى هكذا ، وبامتعاض صارخ ، يقف فوق النار ويرسل الصبيب . صبيب بوله الذي اندفق كالسيل : وِيشْ! وأصير أرى سحب الانطفاء . سحب اللهب المنكفىء ، وهي تتعالى في الريح . يرافقها أزيز مكتوم ، مقفل ، مَصْكوك ، مثل أزيز الوحل المداس . وتتحول النار ، سريعاً ، إلى رماد . ويتنفس برهوم الصعداء : نار ابن الكلب ، ما يؤكل حاراً يؤكل بارداً .

يقول هذا ويبصق . يبصق / عباس .

بين البصق والبصق ، نَاسَ الغطاءُ : غطاء الزاوية السوداء الخفية . وارتفع الرأس المثخن بالحمى والاصفرار . ارتفع ، ليلقي النظرة الأخيرة على الساحة . ليتأكد من أن الطعام ، الذي كان ينتظره منذ الصباح ، غدا جاهزاً ، وصار . وتحركت الشفتان الغليظتان المحشوتان بأوائل الموت ، احتجاجاً : ليش طفيّت النار؟! صمت . صمت أسود مكتظ مليء وقاهر . الاحتجاج والارتجاج : ليش طَفّيتها!؟ خليل جوعان . خليل بردان . وأجد نفسي ، من جديد ، أحكي . أحكي قليلاً . أحكي كثيراً . أقول أشياء لا عدَّ لها ولا حَصر . أشياء لا تتعلق بها ولا بالنار ولا بي ولا ببرهوم . آه! من أين كانت تتوالد تلك الأشياء الغريبة مثل الجراد الهاجم في الخريف؟ ولِمَ امتلأتُ أنا الآخر ، فجأة ، بالاصفرار؟! اصفرار وجهها المخيف! وجهها؟! وجهها الأخضر الداكن . وعيناها اللبنيتان الصفراوان المحروقتان . أي لون كريه ، هو هذا اللون العتيق ، الواهن ، الثخين الطيني ، الغميق ، الذي يلوث بضاضة جلدها القديم! وكأنها أشارات إليَّ : أسكت . ولم أسكت . كان الكلام يتطارد في رأسي كالجرابيع .

وهتفتُ به : برهوم! وبحنان غريب ، استدار نحوي . استدار دون أن يقول شيئاً . كان يتوقع السؤال الكريه ، أكيداً . ومن جديد ، أدار ظهره المسنن الطويل ، وراح يُسَوّي الرماد . ليش ما توديها على الطبيب؟ ليش؟ ومشى إلى النار . مشى بخطى

طويلة خَشْناء . وألقى بالحطب على السماد . ألقى بالحطب كله ، وبلا استثناء! وفجأة ، انبثقت أولى الشرارات ، ومن ثم التهب الموقد التهاباً . التهب من المحيط إلى المحيط . الموقد المطفأ غدا ، فجأة لجّة من النار! وأخذت ألسنة اللهب النقي تلتهم الظلام . ألسنة شمطاء مستطاولة . أطرافها حادة مسننة كالحراب . من حواشيها تفيض الحرارة فيضاً : كانت الريح قد بدأت تهب . ريح الغروب الآتية من بعيد . في وجهها أحَّ برهوم وقَحّ : آه يا هلا بالريح! وكأنه لم يكن ينتظر إلا هذا ، زَتَّ بقية الأغصان في النار ، زتاً ، وعاد ساكتاً من جديد . ولم يعد يسمع إلا صرير احتراق الحطب المكسور . الطبيب؟! البارحة ، جاءتها لعُوب ، أم عُوَيِّدْ ، سَوّتْ لها حجاباً من الوَدْع والخرز والصُوّان . وسقَتْها من نقيع الخرنوب الممزوج بالدفلى والزيرفون . وَبخَّرَتْ رأسها بحريق السُمّاق وطحالب النهر البعيد . «أم عويد» تعرف كل شيء . أنت تعرفها جيداً . هي التي شفَتْكَ يوم أردت أن تموت . نسيت؟؟ لكنها صفراء . صفراء صفرة عجيبة . صفرة ثخينة تلتصق بالجلد والأحشاء . حتى أظافرها ، يا برهوم ، صفراء! «والذبيب» . الطبيب أحسن . أحسن يا برهوم . الطبيب هو الله . أم عويد قالت : هذا هو أبو صفار . ومن أصابه أبو صفار ، عليه أن يقعد بالدار ، منتظراً حكم الواحد القهار . وكأنها أرادت أن تشاركنا بحث مصيرها الرهيب ، تحركت ، في العتمة الشاملة . تحركت لامَّة ، بحركة رخوة ، أطرافها الصفر الهزيلة ، إليها . تكوّمَتْ بإعياء على مقعدها

المنتفخ السقيم ، كاشفة ، هكذا ، هيئتها المريبة التي لم أستوعبها ، أبداً ، من قبل . غريب! كيانها منفوخ مبتذل ، كأنه محشو بالماء . لا أصابع لها . ولا مفاصل . ولا أنحاء : امرأة كتلة! جلدها توسع حتى الانفجار . وحل محل تكوناتها القديمة الجميلة تكونات مستحدثة . تكونات كريهة . تكاد تكون تشويهاً مقصوداً . وبحركة مملوءة توتراً واضطراباً ، لمسَتْ ، لمسَتْ مراراً بطنها المتكوّم أمامها ، وقالت : لولا هذا الشيء الذي في بطني ، لولاه ، لما همني الموت/ عباس .

طالما أن التراجع ليس ممكناً في التاريخ ، فأي شيء آخر يمكنه أن يمنعنا من أن نتقدم ، غير القمع؟

إن كان هذا ، كله ، قد حدث بسبب أخطائي ، فلأخطيء مرة أخرى ، فلأخطيء .

استهلكت الاحتمالات ، كلها ، لكثرة ما تصورتها ، واستهلكتني : التصور ، هو الآخر ، كالحياة يقتضي زمناً ومقاماً .

عندما نخاف نشجع الآخرين على ألا يخافوا .

احسست بالنقيع الصامد يكفُّ عن الغليان . يهدأ قليلاً . تنفقيء فقاعاته البيض الأهليلجية . تنفقيء ، تاركة صوتها المائي البَلِل ، يطير على السطح . ومع طيران الصوت الساخن ، كشفت القدر عن بعض مكنونات جوفها . جوفِها المليء بالمرق

والنزيز . وفي البعيد ، صرت أرى ، ثملاً من شدة الجوع ، كِسَر الخبز القديم تطير من شقوق النَخْلية(*) إليَّ : النَخْليّة النحاسية الصدئة ذات الأسلاك الواسعة المحفورة في الخشب الرطيب : نَخْلية ابن الكلب لا تحمي شيئاً من شيء . الفيران تدخلها ، والحشرات ، والبق ، والخنفساء ، وحتى الأفاعي .

كان برهوم يردد مستاء . وبالفعل ، غدا أنفه دقيقاً ، حاداً ، يقطر حرقاً ، ومرقاً وسيلانات : سيلانات بيضاً لزجة مطاطية رجراجة . لها إشعاعات مثل إشعاعات القمر الداني من الذبول . وعلى جبينه ، صارت تسيل حبوب العرق المكفهر : عرق النفخ والحاجة والرضخ . وفجأة بصق : تفو على هذه الحياة!

وانكمَشْتُ أنا انكماشاً لم أفِقْ منه بعد : لماذا لم يأخذها على الطبيب . الطبيب . الطبيب . مع الطبيب ، رأيت الصفار الغامق يخفُّ فوراً . يتلاشى . محله ، تحل حمرة سمراء ندية . ويزول الوهن العميق الكاسح الذي كان يتملكها حتى الإعياء! وشعرتُ بنفسي تمتلىء بقوة خفية ، تنبض بالتوتر والازدراء : قوة شيطانية ، ولدَتْ من حضيض الشعور القاتل ، الذي

(*) خزانة صغيرة يصنعها أهل شمال الجزيرة من الخشب أو من مادة أخرى ، بها ثقوب كثيرة ضيقة لتهوية الأكل وغيره مما بداخلها ، دون أن تسمح بدخول الفيران والحشرات والجرذان .

انتابني بلا انتظار . وزال ، فجأة ، أثر الجوع المُحِطّ الذي كان يستولي ، بفجاجة ، عليَّ . صرت أريد أن أجرَّ نفسي . أن أخرج إلى البر . أن أتنشق قليلاً من الهواء . أن أرى الماء الذي لا يزال يجري ضائعاً ، في القاع . أي شيء تغير ، حتى أتغير ، أنا ، إلى هذا الحد؟!/ عباس .

وبغتة ، ركبني الصَقْع . وملأني السواد بالرهبة والارتباك . التساؤل الخَفيّ الهائب ، الذي التجأ منذ الوهلة الأولى إلى الباطن ، بدأ ، الآن ، يمدُّ نفسه . يتمدد كالحديد الحامي . يغدو مُلِحّاً ومخيفاً كلما تقدم الليل في الليل . وصرت أتمتم كالمجنون : ولكن أين هما؟! في أي بقعة ، في أي بيت ، في أي خربة أو جرف حطَّمها؟! أين اختفيا عني ، هذا المساء؟! اللعنة! أية أفكار جهنمية تراودني عن نفسي ، الآن؟ ولِمَ لا يعود ، فجأة ، عباس!؟

ورأيتُ برهوم يحوم . يحوم كالمضُيِّع شيئاً لا يمكن العثور عليه . ماذا جرى له؟ أي سوء أصابه؟ أي يأس غبي يملأ أوصاله الملتهبة العجفاء؟! ولِم لا يكلمني اليوم ، كعادته ، بحنان؟! أين ، أين حَطَّمها ، إذن ، هذا اللَقيّ الشقيّ العاثر القَطِب؟! آه ، في غموض ذلك الليل الملعون ، وضحَ لي ، فجأة ، كل شيء : لا بد ، لا بد أنهما ماتا! ماتا؟ وقد تركتهما ، منذ قريب؟! لا . لا . وبين الصيحة والصيحة ، التَفتَ برهوم هادئاً ، مغلوباً على أمره . راضخاً - مرضوخاً . كنتُ أصيح : برهوم .

أين هو «فجر» ، الصغير؟! «فجر» الوليد الذي لا يكف عن التقلّبُ والإرهاق؟ وأين هي «خَزْنة»؟ خزنة الرضيع ، ذات الوجه الخانس ، والفم الكانس؟! وكالجِلال العريض ، يرتمي برهوم ، فوقي ، وهو يردد بآلية مخيفة : اهدأ يا خليل . اهدأ يا خويْ . فَجْرُ فداكْ . خَزْنة فَدتْكَ ، الله يعطي ويأخذ . اهدأ يا خليل . اهدأ . تعال نأكل ، تعال ، تعال .

وأحسست بي أدخل التربة الطرية ، تربة الخابور اللئيم . أنا الآخر أحسستُ بي ، اندمُ مثلهما في التراب . وبدأ رأسي الصغير الأسود يَنُوس ، مثل رأس الذبابة المذبوبة ذَبّاً . لكأن شيئاً ما انتهك فيَّ . وهذه المرة ، لم يكن المنتهك ابن جليوي ، ولا الدرك ، ولا المختار . هذه المرة ، كان المنتهك هو . ولكن هو من؟! لم أعد أدري؟ أين المفر إذن؟ أين المفر؟ فجر راح ، وراحت خزنة . ولا مطر يُسيِّح المكان ، ولا مزْنة! ولْمَّني برهوم بحنانه القديم : القصيد ما يفك أحداً . الأولاد ياخويْ راحوا . والبقية بحياتك . وعبر هيكل برهوم الذي غدا شفافاً ، التقَتْ عيوننا معاً : عيوني الحمر الذابلة التي ارتدتْ إلى أحشائي ، وعيونها الصُفْر المنفوخة . العيون التي لم تعد تملك ماء لتبكي . ولا عرقاً لتنزّ . ولا سيولاً لتقطر . ولا دموعاً لتمطر! آه عيونها ماحلة ، وأرضها قاحلة . وانتظرتُ أن تقول لي شيئاً : أي شيء . كان لسانها الأصفر المنفوخ يستدير ويستدير ، ولا يقول كلاماً . وعيناها تتابعان الفَتْح والإطباق ، تصلان إليَّ ولا تصلان . أي

شيطان رجيم ، هي ، هذه الحمى اللعينة! وفجأة ، كفَّ برهوم عن حركاته العصابية العنيفة التي كان يَبْعَجُ بها بطن الأرض الهشة بقسوة ، واستدار من الطرف إلى الطرف . من أعلى إلى أسفل . وليس العكس . وراحت نظرته المريرية تسقط عليَّ . تأكلني أكلاً . نظرة غامضة . مرعبة . مرعوبة . نظرة مليئة بالتحدي والقسوة . قسوة الحب المسلوب! نظرة تخبيء اضطرابه ولا توحي إلا بالنقمة . النقمة التي لم يعد من الممكن إخفاؤها : نقمة على كل شيء . ولكن ، من أين جاءته تلك النظرة الشاملة ، بعد نظرته الخاملة؟ وكيف صار يعبّر ، حتى بلا كلام ، عن قراره الجديد؟! قراره مواجهة ما لا مفر من مواجهته ، بعد الآن؟! أيكون هو الآخر . مُسّ؟! وكالبرق البعيد ، لَمَّ شمل نفسه ، وبتمهل وكبرياء ، صار يقربني من الطعام : العشاء جاهز ، تعال نأكل . عشاء الموتى؟! لا . لا أريد أن آكل . لا أريد . وبهدوء ردد : عشاء الموتى أو الأحياء ، أي فرق؟ تعال نأكل . تعال . لا! مَنْ يستطيع أن يأكل بعد اليوم؟ مَنْ يستطيع أن يفعل شيئاً من لا شيء/ عباس .

وكالملسوع أخرج خَطْفاً إلى البر . ويلُمُّني من الشليل : أين تروح؟ ولا أرد . أبتعِدُ ، وأنا ، أصيح : أريد أن أبول . أن أبول . وعلى التراب أنْلقحُ . وأقوم وأنلقح . وأقوم . وأنلقح من جديد . وأقترب . وأبتعد . ولا أستدير . وأستدير . أستدير ظلاماً . أرى خفوت الضوء ومواته المستديم . ويتراءى لي البيت قابعاً ،

وحـده ، في المكان . بيت الشـيـاطين المُقَـرَّنة والأزوال . بيت الأموات والأحياء . آه لا بد أنه دفَنَ الاثنين معاً ، تحت أرض البيت . ولكن كيف استدل إلى نهج الخلاص ، ومن أي الزوايا ألتمس العون؟ ابتعد إذن؟ ابتعد . على حدود الكون الواطئة ، أصير . على حدود السراب الليلي ، أتوقف . أتوقف وأستدير من جديد . أستدير غرباً ، غرباً حتى الهباب . ولا أرى سوى الدمع يتقاطر من المقلتين . يرافق الدمع إفرازات غريبة ، شتى ، تنبع من أنحاء بدني المرتعش ، جميعاً ، وبلا استثناء . ودفعة ، أبداً الركض . أبدأ الركض في الفضاء . وشيئاً فشيئاً . يأكلني الظلام . الظلام الغـاشم واللئـيم : ظلام كل شيء . لا ليس قدامي إلا الأرض المفلوحة بعمق ، المملوءة بالأتربة والأحشاء والأقياءات والحشائش المختلفة الأنواع والأجناس . تعلوها حزوز القطن المستقيمة . قطن ابن جليوي . قطن ابن الكلب .

على حدود القاع والأفق أرتمي . أرتمي ، ربما جوعاً – ومن لم يهن بالجوع هان بغيره – والجوع قَتّال . الجوع الأصفر المخيف . جوع الجزيرة الخضراء . وأتطلع يميناً . أتطلع يساراً . أتطلع خلفاً وغُرّة وأماماً . وتحت إبطي وعند قدمي . وفي الأنحاء العديدة الأخـرى ، أتطلع ، ولا أرى سـوى القطن . القطن يملأ النوء والظلمة والضوء . القطن في الماء . في الهواء . في الأرض . في السماء . القطن في كل شيء . حتى في القبور . عجباً! من أين ينبع القطن المسـعـور ، هذا؟! قطن فـوق قطن . فـوق قطن .

وكالمنوم ، عدت ركضاً . ركضاً . ركضاً ، وأنا ألهث : الطبيب . الطبيب . الطبيب . ولصق البيت الأسود المشقوق ، توقفت عن الحركة والكلام : نهيت عميق ، وتأوه قاس ، يصدعان سكون الليل . ومن منافذ الضوء الخافت ، تجلىً لي المنظر المريع : أشلاء . توسلات . احتجاج . وارتجاج . كل شيء كان يختلط بكل شيء : آه! الحقد الآسر الذي كان يملأ أركانه ، هو الذي دفعه إلى التهام اللحم المريض ، بمثل تلك القسوة والانتقام!؟ كان هجومه حاراً . شبقاً . حيوانياً . عنيفاً . لا رحمة فيه ولا احترام : هجوم متوتر . لا يمكن رده . ولا صده . ومع ذلك ، كان الاصفرار السقيم يدافع عن نفسه ، كما يدافع سُقْم عن حاله . ولم يُفِدْه ذلك الدفاع الواهن شيئاً . كان القضيب الأسود البارز ، المحشو بالدم والغيظ حَشْواً ، يتقدم الهيكل الناحل إلى الأمام . يتقدمه!؟ يَجرُّه . يجرُّه بخيوط لا مرئية . خيوط لا خلاص منها ، ولا انفكاك : بَرْق من الفورة المتفجرة المجنونة . بَرْق لم يفلح صياح الرعب في صدِّه : دخيلَكْ ابعِدْ عني! تراني أموت . أموت . آه! حاولتْ أن تصده ولم تقَو . إن ترده ولم تقدرْ . أن تهرب منه ولم تَنْأ . كل ما كانت هي قادرة عليه ، هو أن تستدير . أن تستدير ، منقلبة من جنب إلى جنب ، دون أن تبرح المكان . وبهمجية لا مثيل لها ، اعتلاها . وكأنه أراد أن ينتقم من موتها المحقق والقريب ، أولج قضيبه الهائج في طيات لحمها الوارم ، وراحت تموت/ عباس .

(٦)

لا تعادل قوة الحقد إلا قوة الحب ، ولا قوتيهما معاً إلا قسوة النسيان .

الناس الذين يخافون يخيفونني .

النهر يبتعد . غابت الأرض والسماء معاً . ولم يبق في الكون إلا الأشجار القصيرة النابتة ، تواً . بحذر شديد ، كنت أنقل أقدامي . أريد أن أروح . أن أذهب بعيداً ، إلى أبعد نقطة في الأرض . أن أضل طريقي ، منذ الآن ، وإلى الأبد . لِمَ علي أن أعود؟ أن أسكن في نقطة ثابتة في القاع؟ أن أساكن أناساً ساكنين أعرفهم ويعرفونني . أحبهم ويحبونني ، حتى الموت؟ أي ربط مخيف ، هو هذا الربط!/ عباس .

قبل أن الَتفَّ حول العَلْوة المملوءة بالشوك والحُمّاض والقرّاص والخراء وحُفَر الأبوال النازلة من علٍ كالمزاريب ، قبل أن ألوف حولها من النبض إلى النبض ، لاقاني راكضاً ، رافعاً شليله ، ويده الصغيرة تَهُفُّ في هواء القيظ الحامي . وقبل أن يرى علائم الغيظ والشر على وجهي ، قال لي باسماً ، كما من

قبل : شَوّفْني ، وأشوّفك . بقيتُ صامتاً . أذرع الأرض المدورة التي لا تكف عن الانحدار إلى النهر . وبدا الماء ، في حضن القاع ، أحمر ، قانياً ، شديد اللزوجة . ومن جيلان الأرض الهابطة حضيضاً يخرج ، بين الحين والآخر ، ما لم أكن أتوقع خروجه أبداً : يخرج السيف والحصان والقلم الأسود العابس والشيطان . إبليس الرجيم ، ذو القرون المقرونة بحبال حمر نارية مشحونة بالشر والخطر . ودون أن ألتفت إليه ، قلتُ له : امش . امشِ . لم يمش : الغبيّ ، ابن المختار . ابن الرجل الطويل العريض اللابس الألوان كلها . الملثَّم صيفاً وشتاء . المثقوب الرأس ثقوباً ، ثقوباً! من ثقوب الرصاص القديم . إلى ثقوب الحفر والتنقيب عن الأورام . إلى ثقوب العاهات العديدة الأخرى .

لا . لم يتحرك ذاك السافل المختال . بلى! دنا مني . دنا متأهباً لرفع ثوبه إلى أعلى . ليكشف لي ، كما هي العادة ، عن قبة بطنه البيضاء اللامعة ، تاركاً زبه الصغير يلوح بحرية في الفضاء . يلوح أبيض أحمر مَسْلوخاً كمِصْران الديك : استطالة لحمية غامضة تتوسط فخذيه البضين . ويضحك ، في الوقت نفسه ، من أعضائي السفلى ، بهمجية وامتعاض : دحق هيه! زبه أسود مثل العربيد! أخْ ، كَهْ ، كهْ! يصير يقهقه باصقاً حثالة لعابه الأزرق في القاع ، فاتحاً للريح شدقيه . من أين نبع ابن الكلب هذا ، الآن؟! وكيف يخلق التراب مثل هذه الأشباح اللدنة الصماء؟ لا . لن أكشف أعضائي لأحد ، بعد اليوم .

امشِ . أمشي ، أنا الآخر ، مستاء والأرض ترتجف تحت قدمي . أَمْرتَني؟! أَمْرتَني! أعاد من جديد . ومن جديد ، قال متهكماً مَلْغوماً : أتأمرني يا ابن الشحاذة والشحاذ؟! وبَرْقاً ، طلع الربوة الترابية القاحلة . وشَمَّر ، باعتداد ، عن زبه وخصيتيه : هاك انظر! انظر ، وأرني في التو مقلتيك . مقلتي طيزك الأسود الهلكان . كان الاصفرار الغامق يهيمن على الفضاء ويؤذيه . لون الكره . لون الموت المفاجىء . لون الحنطة حين الحصاد . كان كل شيء أصفر . السنابل تسقط حين تصفرُّ . العشب يموت أصفَرَ . الإبل تَفْطس عطاشى وصُفْراً . ولا تَهْذُب الخيل اصفراراً . والأرض القاحلة ، تكون هي الأخرى ، صفراء . صفراء مثل الموت . وهي؟ آه! ها هو ذا ، لا يزال واقفاً في الفوق . مِحْزَمُه عارٍ . وَسَطُه مُتَدَلٌّ في الريح . والكون معتم وكئيب . بأي حق يدلّ آلاته عليَّ؟ ولأية غاية؟ وبأي سلطان؟ لا . لن أرضخ لأحد ، بعد الآن . لن أرضخ/ عباس .

وكالعصفور الذي يلتقي بَوليفه ، نطَّ مقترباً مني . نطَّ مبتسماً ، ولكن بتحفظ ، هذه المرة . لكأنه استشعر خللاً في المسار . وبلمح البصر ، تناولت الحجر الأسود الصلد . حجر الصُوّان القاسي وعلى قرنه الأيسر الصغير استقر فجأة ، كل شيء : الحجر ، وثقل ذراعي ، وآهتي . وانصباب الكثافة وقَدْح الشرّ من عينيَّ . وكتلة اللحم الأصفر . والتوتر . والاستياء . وبعد الاصفرار القاحل ، احمرَّ كل شيء . الجلد والثياب .

والفجوة والتراب . ووجهه . ووجهي . وبقعة السماء المكشوفة للريح . والحقول المترامية الأطراف . وحواف النهر . وبقية العالم ، الذي لم أعد أرى منه شيئاً سوى الدم ./ عباس .

وحلَّت المصيبة على العصيبة : لماذا ضربته؟ اين اخبئك ، أين؟ أبوه يلقاك ولو دخلت بطني . تعال . وأختُلُ ، كالعصفور الملهوف تحت الثوب الأسود القديم . تحته ، بانت علي الإغواءات جميعها ، دون حجاب : آه! ما هو ، هذا الشيء الأسود الصغير الكبير الذي يكاد يكون مُغيراً؟! وهذا الفم الآسر المتذلل المتطاول المختبىء في التحت والارتفاق؟! وبدأت أخرج من الغلاف . أشق الجلد الرقيق الساتر . أي جلد لعين ، كان يحجزني ، قبل الآن؟ وأي مدى ، بعد الآن ، يَلمُّني ويُشْفيني؟! لا! اختل يا عجي . اختل . وأختل فعلاً . ألزم الصمت والاندهاش . أحطُّ حالي في حالي . وأنا أتبين الانبهار والانكسار . شيء ما أحال خوفي إلى طمأنينة . ويأسي إلى انغماس . انغماس في تَهوُّر الكلأ الأسود والمطر النزيز . لا ، لا نأمة من الأعلى ولا سلطان . تبجُّج هائل يملأ الجسد والأحشاء . ويحلّ الكَلَبُ والخماش في أجزاء من أجزائي . وفجأة ، أغادر المكان . وتصير تتلمسني ، ولا تلمس إلا الهباب . كنت قد صرت خارجاً وإلى الأبد . صرت خارجاً منذ الآن/ عباس .

هذه المفارقة المقيتة لصالح مَنْ وكيف : كثيراً ما ننبهر بالبعد اليومي لحياتنا . به أساساً . ونخفي ، مع

ذلك ، هذا البعد أدبياً . نغيّبه فنياً . نكاد نلغيه! لصالح مَنْ نفعل ذلك؟ ولِمَ نفعله؟! ألأن هذا البعد غير مستقر . غير ثابت . متحرك . سيار . حيوي . إلى حد أنه لا يمكن حتى كتابته؟! أمن أجل ذلك ، أيضاً ، نعمد إلى تأليه بعد الحياة الميتافيزيقي : البعد الغامض . المستسلم الساكن . الركود . الذي قلما يعكّر صفو حياة الآخرين؟ من يدري! ربما . ولكن ، لماذا نبني أحكاماً أساسية على أساس هذا البعد الميتافيزيقي ، في الأدب ، كما في الحياة؟! ولصالح مَنْ؟ مرة أخرى ، لصالح من نفعل ذلك ، بل ونفتعله أيضاً؟!

كيف حدث هذا الانشقاق اللعين بين الكتابة والحياة؟ ومتى؟ لماذا لا نكتب حياتنا كما هي . كما حدثت فعلاً . فهي إن لم تكتف بنفسها ، فلن يكفيها شيء ، حتى ولا التشويه المكتوب . أي إغراء ملعون ، إذن ، غير الانسلاب العميق ، يجعلنا نشوّه عظمة «الحادث» ، ليتطابق مع تفاهة الأفكار؟ لماذا كل هذه الحماسة الكتابية ، والمغالاة البائسة فينا؟ أمن أجل رسم صورة لعالم لا يخصنا في شيء ، في حين أن الحياة الأساسية - الحياة الوحيدة التي عشناها - تموت!

كان علي أن أبتعد أكثر . أن أضع الخابور في ظهري وأن أروح . ولكن إلى أين؟ إلى أي مكان؟ أية نقطة يمكن أن تحميني . يمكن أن تشفيني؟ آه الأرض محدودة : الماء شمالاً ، والصحراء جنوباً . اللعنة/ عباس .

أحس أن رأسي يابس ، مع ذلك ، أريد أن أحكي : أن أحكي ما مضى . ولكن أي ماض؟ هذا؟ ذاك؟ الآخر؟ ذلك ، كله ، زيف مطلق ، وتفسير ملفق لذهنية أكثر تلفيقاً من التفسير . لماذا هذا الهذر ، إذن؟ لماذا هذا الهَذْر؟!

كان الصوت يقترب فعلاً . صوت أجشّ أرجّ أبلَق مثل صباح الثلج الكبير . صوت أشبه ما يكون بصوت الطاحونة الخشبية الراسية في أعلى التلال . مع الحسّ الملّوث والمخيف ، ذاك ، يتراقص ، ملوعاً ، حسّ آخر . حسّ ضامر مضطرب هائب يتلون بين الهَدَّة والهَدَّة . يجيب ولا يجيب : هو الذي ضربني . هو . هو . وبين الهواء والعواء ، تَنْدَسُّ اليد الحديدية ، تندسّ في الجسد الصغير : هو الذي ضربك!؟ ابن الشحاذ ، صار الآن ، يضرب ابن جليوي؟ تعال نشوف . تعال . وتتعالى الناقة الحمراء عليَّ . تجثم فوق البيض والقيظ . وصوتها المنكتم يستمر في الصعود والهبوط . ضربته! أخبئك أين؟ وممن أقدر أن أحميك؟ وأتضاءل كالمهرّ الملوث بالماء . أتجسَّد قنفداً وفحيحاً : أين اختفى عباس؟!

باستمراري ، هكذا ، أُشوّه كل شيء . ومع ذلك ، أحس أن علي أن أستمر . هل هذه هي مهمة الكتابة؟ هي ، هذه بالتأكيد .

عالم قاحل يملأني بالقرف والانسداد .

أين هي اللغة الحسية القاصمة التي ثرثرت عنها كثيراً؟ ولماذا يغدو الكلام مبتذلاً منذ أن يصير مكتوباً؟ أية رقابة حمقاء تشل قوتنا النقدية ، وتحيل اضطرابنا الحميم إلى إشارات؟ ولِمَ نعيش شيئاً ونكتب شيئاً آخر؟ ألا تنبىء هذه العملية السمجة ، التي تكاد أن تكون قسرية ، عن قدر هائل من القمع المستبطن العميق؟ ليذهب ابن جليوي إلى الشيطان .

علي أن أكون أكثر قسوة مع نفسي ، لا مع المحيط الرهيب ، فحسب .

***

ارتَمَتْ عليَّ . ضمَّتْني بين فخذيها العميقين ضَمَّة أراحتني ، وأنبأتني بالمرارة والقذارة . الرائحة الحامضة المُمِضّة ، المستورة منذ دهور ، صارت تفوح في العمق والإنحدار . الرائحة الشُمّامية العفنة ، المنشورة على الجلد والأنحاء ، رائحة الحياة الأولى ، لم تعد تَكفُّ عن الانتشار . وأتعالى على الجانبين اللعينين ، جانبيّ الجبل العاري والوديان . أريد أن أصل النبع .

أن أشرب ماءً قراحاً . أن أستبيح الثَغْرة والقرار . لكن الصوت الرائح الآتي ، صوت ابن جليوي النائح الباكي ، كان يطنّ مثل كوم هائج من الزنابير : الدم . يابا ، الدم . صوت! الصوت اللعين ، ذاك ، خرّب كل شيء . دفع بي إلى الانحدار عمقاً ، حتى الزوال : اهُربْ قبل أن يمسكوك ويأخذوك . أهرب . أهرب . حالاً . حالاً . أهربُ إلى أين؟ إلى الأحشاء الأولى التي ما كدت أصدق كيف هربت منها ، خارجاً ، إلى الحياة؟! لا . لن أبرح المكان . لن أندفع كالعجل المرعوب إلى البر . لماذا الخوف ، ونحن من سقط المتاع؟/ عباس .

بلى! بلى! انظرْ : انظر الجموع السُود الهائجة . ألا ترى الأيادي الطويلة حاملة مذاريها الحديدية الحادة ، وسكاكينها البيض تبرق في قساوة الشمس ، كالسيوف! وتلك الأرجل الشاحبة المسوّرة بالوسخ والصديد ، أرجُلُ الرجال الحمقى ، كأرجل الخيل المطرودة ، وأجسادهم العملاقة ، التي لا تني تهتزّ ، مهددة بالموت والثبور ، ألا تراها؟! أين تريدني أن أخبئك؟ وكيف تريدني أن أحميك؟ وعباس ليس هنا . وليس هنا أبوك . ولا أخوك . ولا أحد من الناس! وهم ، كلهم ، يجيئون جموعاً ، جموعاً . يجيئون من «العزيزية» ، من «الليلية» ، ومن «العالية» يَلْتَمّون : مات ابن المختار . ابن جليوي الصغير انقتل . اقتلوا القَتّال . خرّبوا البيت . احرقوه . أشعلوا النيران فيه . امسكوا العجي الصغير ولا تتركوه . خذوه فغلوّه ،

وإلى المختار ودّوه .

من شق الثوب الأسود العاتي ، أتَناوَقُ . أرى الجموع الغاضبة تحتشد في الفضاء ، كله : هنا ، جموع صمّاء لا تني تنادي عليَّ : اطلع يا ابن الكلب ، اطلع يا ابن الحرامية . يا ابن القحبة . اطلع . وهناك ، في طرف النهر الآخر ، تُتابع بقية الجموع الدَورَان ، والتقدم والاقتراب . والفلول الأخيرة تحتشد ، هنالك ، في البعيد ، على أكتاف نهر «جَغْجَغْ» الآسن ، شمالاً ، وشرقاً ، حتى نبَّاشو القبور هَبّوا! هَبّوا تاركين الجثة مُسجّاة بجلال ، مكفنة بكفن شديد الأناقة ، محطوطة في تابوت لامع من خشب الزان . بلى! هَبّوا منذ أن مر بهم جمع المختار المتكاثر خطوة بعد خطوة . آه! المدينة كلها تنقلب في الفضاء . تصير هنا ، لا هناك . أي عرس صاخب يحدث في الأطراف ، الآن؟ وبدل الاثنين ، صرنا واحداً ، ورحنا نموت / عباس .

لم أفعلها قصداً . ومع ذلك . فعلتها . فعلتها ، بقصد آخر .

وهجمت الأصوات ، كلها ، دفعة واحدة : اخُرجْ . أخرجْ . لكي نذبحك . ونسلخك . ونشويك . ونأكل لحمك أكلاً . أكلا . وأحسني أدوخ . أسقط في الغميق . تدوخ ، هي الأخرى ، وتسقط علي . تسقط والضجيج يتلو الضجيج ؛ إن مسكْتم أمه نيكوها . نيكوها .

وألْتَوي كالقَرادة المَمْطوطة . ألتوي : أبلَهَ . ألْصَقَ . مختوماً . يتسايل الرشيش البولي الحار مني ، كلعاب الأرامل الشبقات ، عليَّ : آه! اين هو ، الآن / عباس؟!

وأخرجُ ، أخيراً ، من تلك القبة الغريبة ، محموماً من العرق والنفاس . كان كل شيء قد انتهى! لَمْ يبق ، من ذلك العالم ، إلا تلك الرقعة التي امتدت أمامي وعليها نثار الخبز الأسود ، وفَصْم التمر العَطِن المأكول ، وشيء من بلل الزمن الفائت ، وبقايا أخرى غريبة لم أرها من قَبل . شعرتُ بلعابي الأصفر يغادر حلقي ، وإليه يعود : هذا كله لي؟! هذا كله ، لك . لك وحدك . لك الرقعة ، والقاع ، والتمر الأسود الجائف ، ودوده الأزرق المتطاول الأذناب ، دود الحشيشة الشتوية المخزونة أعواماً . ولك الصِئْبان البيض المتسابقة بين أفواج الشعر الأسود الطويل الملتوي من شدة الليل . لك هذا ، كله . لك أيضاً ، جدران التجهيز المشدودة بحبال الطين الصُفْر المشوية في حرارة القيظ . زِدْ إذن . زِدْ . لكَ ، أخيراً ، كِسْرة الخبز اليابسة ، هذه . كسرة القاع المشوية في عمق التنور الآجري الأحمر . هذه الكسرة التي صنعتها يدا «طرفة» بإتقان . أيمكنك الآن أن تأكل دون لوعة أو مقت أو اضطراب؟ أم تريد الماء الآسن ، تُزيِّتُ به ، أنت الآخر ، حَلْقَك اليابس من الرعب والخوف؟! ماء الحَمْزات العَطِن اللعين . الماء المزموم المتراكم في الغار منذ قرون . الماء الذي قتل اباك وأخاك وعشيرتك الأولين .

لا . إن شربت الماء ، هذا ، أي خبز تأكل؟ وأي جمهرة من التمر الأسود الحَشْلان تمضغ؟ وبأي شيء تسدُّ الرمق عصراً؟ وكيف تجدد اللحظة بعد اللحظة ، قِواك؟ كُلْ قليلاً ، إذن . كُلْ . ولا تأكل . لا تكسر الخبز المكسور . ولا تُنْقِص الرقعة من محتوها . ولا تمس التمر بالسوء . ولا تقرب النثار . ومع ذلك ، لا تظل جائعاً ، بعد الآن! تعال . تحلّل وتعال . تعال نأكل معاً . ومعاً نتناول الماء الغضار . الدرس يحين بعد قليل . وبعد قليل ، يجيء الموت . ربما يجيء الموت ، بعد هذا القليل الذي يظل قليلاً . وقليلاً قليلاً . يجيء كما جاء ، مرة ، من قبل! يوم تحلقوا ، حولي مذهولين : عيسى وبِرّو وصَلْفيج وبقية طلاب قرى الشمال وأريافه . تحلّقوا ناظرين إلى خلاء الرقعة المَمْدودة ، على الأرض ، قدامى . ورأوا ، عجباً ، إلى لَوْكِ حَنكيَّ اليابسين ، قبل أن تنفقيء ضحكاتهم الهمجية : العمى! يأكل هَوَا أبن العَرْص! ودفعة واحدة ، تصيبني العيون والألسن . وبلا انتظار ، يحسّ الواحد بعد الآخر ، منهم ، محَسّاتي المرمية بإهمال ، على القاع . والعجب يلد العجب : شو تأكل يا ولد! ما معك خبز . ما معك شيء . هذا تمر؟ هذا روث يابس . تعال نأكل معاً . تعال . تعال . يقودني الواحد بعد الآخر . يشممني أكله الطريّ ، الطازج ، المطبوخ بلبن البقر والقراص ، المعَطّر بالعطر الجميل : عطر القرنفل والحَلْباء . وبتبجح شديد ، يصيرون يكشفون عليَّ أشياءهم الغريبة الأخرى : أشياء العالم الأسطوري التي لم أرها من قبل . وأتملّى

الهيئات العجائبية : هيئات الأطعمة الكثيرة ، المتمازجة بتناسق لذيذ ، ولا أمس شيئاً منها / عباس .

ومن جديد تقترب العيون أكثر فأكثر ، مني . تحملق ، بقرف وخوف ، في الأشياء المرمية قدامي : العمى! يأكل دوداً! وفجأة يعلو الصياح : تعالوا شوفوا . تعالوا .

وبلا تأخير أَدْحُسُ آخر اللُّقم المريبة في فمي ، وأروح أبلع الهواء . أبلع البَلْع . أمضغ ثمري ودوده والنثار . لا . لم تكن تلك هي المرة الأولى التي أبلع فيها التمر مشوباً بالأحياء الكثيرة المدورة ، المتطاولة ، المستديرة . ولم تكن الأخيرة ، أيضاً . فِلَم أُثير سوؤهم ، آنذاك!؟ / عباس .

مرتْ فترة من الصمت . بعدها ، انفجر الضحك عالياً وكثيفاً : آه يا ابن القحبة . بطنك مملوء دوداً . بطنك مملوء قملاً . بطنك . بطنك . صارت الأصابع الصغيرة اللئيمة تجسُّ البطن والظهر والأحشاء . تقلب الكيس العتيق . ترض العظم رضّاً ، رضّاً . تدخل وتخرج ، كالحراب الحادة ، بلا استئذان . ومنذ الرضَّة الأولى ، جاء الألم البائس المميت الذي أعرفه تماماً : ألم الحشا المخالف للطبيعة . الألم القارص كالعقارب : الألم القارعة . وألتوي . ألتوي ، كالجراب اليابس ، بعضي على بعضي الآخر . أخُرُّ صريعاً . ويظلون يتصايحون : تعال إلى هنا . تعال إلى هناك . تعال ، نخرج منك التمر والقمل والديدان المستطيلة السود ، والعناكب البُرْش التي مضغتها مع التمر

الخربان . ومن تعال إلى تعال ، أتدحرج على البر . أتدحرج ، مثل حِمْل القطن القديم : لا ألم ، ولا ارتكاس . هُوّة سوداء ملأتني . ملأتني . ملأتني مِلْئاً لاحد له ولا ضفاف . ولم أعد أرى من الأشياء إلا أحشائي السائبة في الخلاء . أحشائي التي بدأتْ تنطق التعبير تلو الآخر : تعبير بغثيان . تعبير بقيء حامض رديء . تعبير بمغص شديد . تعبير بلا تعبير . وتعبير بنوم مفاجيء وطويل . آه! للأحشاء لغتها الخاصة ، وتعبيرها الَفرْد ، واضطرابها ، كذلك! للأحشاء أحشاء! لماذا تركَتْني ، إذن ، وضلت الطريق ، لماذا؟! وكالغريق ، أمد يدي الطويلة نحو أغصان الحور النابتة في الهواء . أحاول أن أتناول أحشائي . أن ألمس البعيد منها والقريب . أن أعيدها إلى منبتها الأساس ، ولم أجد في يدي إلا السراب . الألم الحاد الوحشي استحال إلى نوم . إلى نوم أخاذ شديد الطول : دخل الآخرون الاصطبل وخلّوني . اصطبل البقر العتيق الذي صار مدرسة ، بأمر من المختار . مختار «الَسْنَجقْ»(*) القديم ، ذو العباءة الحريرية المملوءة بالتمر والزبيب والأعشاب السرية : أبو دَحّام وعيسى وصَلْخد وسنجار . بلى! جميعهم ، دخلو وخرجوا . دخل النهار وخرج ، أيضاً . حَلّ الغياب ولم يحل النوم عني . كان الألم يغيب ببطء

(*) إسم قرية في شمال الجزيرة السورية ، على طريق مدينة «عامودا» . وكان الراوي تلميذاً في مدرستها الإبتدائية .

شديد ، والصحو يظهر بالبطء نفسه / عباس .

ومع الدخول والخروج ، بدأ صياحها العالي يتطاير بين شظايا الليل ، الليل الغائر بين السَنْجَق و«عامودا» . ومع البرد المنطلق ، في ضوء العتمة الكونية الشاملة ، تلك ، تطوَّح صوتي الهَلع محمولاً بالريح الباردة السوداء : الريح التي لا عيون لها ولا أنحاء . من هنا تهب ، وتهب من هناك : وكيفما هبت ، تجلب المزن إليه . إلى ابن جليوي ، إلى ابن الكلب . وكالخارج من نفق طويل ، بدأتُ أعود إلى نفسي . أعود معدداً ، ومدهوشاً : أين . .؟ أين الأستاذ؟ أين صلخد وعيسى وهشام وعمرو وشَوّاخ والآخرون؟ ولِمَ لَمْ تعد الشمس موجودة؟ ولا القمر ولا الضوء ولا الظلام؟ أين اختفى النهار؟ وأين هو كيس التمر والدفتر العتيق؟ ولِمَ تَمتدُّ أقدامي بعيدة ، هكذا ، عني ، وكأنها تريد أن تركب ، وحدها ، الدربَ؟

وأحاول في حدّة الضوء الأسود الكثيف ، ذاك ، اكتشاف الليل والبرية والخفاء ، عبثاً! أسَئلة حمقاء شدت أحشائي بقساوة ويأس : لم تركوني وحيداً؟ وأين هو الآن ثوبها المربوع الفائح برائحة الخبز والسماد؟ وكيف أرد عني هذا الجوع البغيض الذي بدأ الدغدغة من جديد؟ وأقعد . وأقوم . وأتطلع . وأنظر . وأكاد أبصر . في ذلك العَتام الأصهب ، المنتشر غلالاً ، غلالاً ، «تَلْ كرْ خالد» واقفاً في الفضاء : نهداً مُكوراً وخالياً من الأثلام . نهداً أعذر . أكثر من نهد . شيئاً دابراً لا يُطال . من

تحته ، تماماً ، يجب أن أمرَّ . أن أمر دون أن أعير انتباهاً ، إلى الأحياء الشائهة ، ذات الألوان الغامقة ، المليئة بالوبر والأشعار . الأشعار الحادة الواجفة كالمخارز . بهدوء شديد ، أعدتُ قدميَّ المبتعدتين إليَّ . تلمستهما : باردتين . لا مباليتين . خاليتين ، تماماً ، من الحس والآثار . وبحثت ، قاعداً ، عن الكيس وأحشائه . عن الأوراق الصغيرة المصورة . عن المسطرة والأقلام . وأخيراً ، عن نفسي .

آه! بقعة القيء المفروشة ، قدامي ، على التراب ، هي التي ذكَّرتْني بكل شيء . وكالذي أصابه مَسّ مفاجيء وعميق ، حفَزْتُ واقفاً . اعتدلت مضطرباً على ساقيَّ . وبتوتر صرتُ أنتفض منظفاً ، كالعصفور ، حالي من الموت .

الآن . إلى أين أتوجه؟ وكيف؟ يميناً . يساراً . شمالاً . جنوباً . إلى هنا . إلى هناك؟

كان القمر قد بدأ يزهر . يزهر في ذلك الليل الخارق . نوره الأغبر المنثور فضَحَ الوجد والاستياء : حدود الدنيا من أين إلى أين؟! لا . ليس من السنجق إلى عامودا . ولا من عامودا(*)

(*) مدينة صغيرة مشهورة بـ«التَلّ التاريخي» فيها ، والذي هو رُكام لمدن «ما قبل التاريخ» ، وبنُهيرها الذي جَفَّ . وهي تقع في أقصى شمال الجزيرة ، في مواجهة مدينة «ماردين» التركية . وتعتبر عامودا «عاصمة للسهول الزراعية الشديدة الخصوبة» التي تحيط بها ، ومحطة أساسية في سُفوح الأناضول التحتانية .

إلى الدرباسية . ولا من الدرباسّية(*) إلى رأس العين(**)! هذا الفضاء الأسود المخيف ، ألا يحوي أشياء أخرى ، غير النُهَيْر الناشف ، والأبقار السارحة ، والروث ، والحشرات؟! بدا الليل غريباً ، حقاً . لكأن الأشياء غيّرَتْ مكانها ، وتغيرت الأنحاء . كيف أروح إذن؟ كيف؟ أحطّ السَنْجَق على اليمن . وعامودا في الظهر ، وعلى اليسار ، كله ، الحقول كلها ، حقول ابن جليوي ، حقول ابن الكلب .

هكذا ، يصبح البيت قدّامي . وما عليَّ إلا أن أسير . وأن أسير . أن أسير بحذر واكتمال . فالأفاعي البرقاء تملأ الدرب ليلاً . تبحث عن آثار الأقدام الآدمية . تبشُّ لها . وتلحق بها حتى المَراح . ألَمْ تقُلْ ، هي ، ذلك؟ وأخشى ما يخشى العرابيد ، والزواحف السود المرقَّطة بالأحمر والبني ، والحيات ذوات القرون ، الصفر ، الحادة التي تكاد لا ترى بالعين! وجميعها ، هَشّة طرية ملساء . تنام على القاع وكأنها منها . ما إن تدوسها حتى تهبُّ صافرة متلوية . تنطُّ ، كما تنطّ الطابة النطَّاطة ، لتقع

(*) ومعنى الإسم «درب آسيا» ، وهي على مستوى عامودا ، ولكن إلى الغرب . وكانت محطة أساسية على «طريق الحرير» نحو إنطاكية العظمى (أنْتيوشْ) .

(**) وإسمها السريانيّ : «ريشْ عينو» . وتقع على منابع نهر الخابور مباشرة . وهي مدينة تاريخية أيضاً ، وكانت مركزاً حضارياً وفلسفياً مهماً . ومن أهل العلم فيها : «الراسعيني» ، وغيره .

على الوجه واللحمة والبين . وكلها ، يتربص بالإنسان شراً . ولا يعطي أي منها أية إشارة تدل عليه . إنها المَنيّة ، وما من المنية مهرب . ألم تقل ، هي ذلك؟ ألَمْ تقُلْ ، إن أحسن الأسلحة ، لمن لا سلاح له : الصوت . فلأغنّ . إذن! فلأغنّ . وفعلاً أبدأ الصياح . أصير أغني . ويملأ الانشراح المفتعل أركاني المتجمدة من الرعب : الصوت ، هو الآخر ، علامة ، بها يهتدي الداشرون . وقاطعو الطرق . والحرامية . والأحياء السائبة في الحضيض : أحياء الوادي المستميت قيظاً . الأحياء السود المرصَّعة اخضراراً ، واحمراراً ، واصفراراً . فلأركض إذن . أُخلّفُ الصوت ومراميه . ولأحذر . أحذر الظُهورات ليلاً . ظُهورات الأزوال والأحوال . ظهورات الأكوام الترابية التي لا تني تسبقني على الطريق : في كل كوم جنية حمراء الشعر ، يفترسها الشبق والهبال ، ما إن تمسني وأمسها ، حتى ، أستحيل ثوراً لا يكف عن الجماع ثوراً عضوه يطول ويطول ولا يرتوي . ألمْ تقُلْ ، هي ، ذلك!؟ الجنيات لا يرتوين من مص ابن آدم . ولا يشبعن من النيك . الواحدة منها قادرة على التحول والإغراء . تُري الشيء لابن آدم . وتغويه . تنبطح له كما تنبطح المرأة العاشقة . تبدي له ما يسره ويدنيه . حتى إذا لامسها استحال ، هو الآخر ، شبقاً مجنوناً . يقضي ليله رَهْزاً . ونهاره شغفاً وعنيناً . إيْ! الجنية امرأة حذرة صيادة : إن تَملاَّها الرجل رَعتْهُ . وإن تغاضاها محتْه . إن جامعها ربطَتْهُ . وإن لم يتبعها تبعَتْهُ . إنها الشهوة . ألم تقُلْ هي ذلك؟ ألم تقل احذر النسوان والشهوة

والحيايا والمياه والوديان والرعيان والأعيان والرجال ذوي الأسنان المفروقة والأعضاء المرقوعة ، والأعشاب والأخشاب . ولا تسلك إلا الدرب السلطاني القويم . الدرب الذي يُوَدّيك من هنا إلى هناك ، والذي يجيبك سالماً كما وَدّاك . وامِش نهاراً ونهراً ولا تمشِ قهراً . قهراً . ألم تقل هي ذلك؟!

وأمشي . أمشي والدرب يطول! آه! قبلاً ، كنتُ أرى الاصطبل العتيق ، الذي صار مدرسة للبنين ، قريباً وبعيداً وعلى حد السراب . الآن . لم أعد أرى إلا الظلمة المختلطة بالتراب . اختفى السراب تماماً . وحلّ محله غمام فضي بارد وخَمول . غمام وجامد لا يتحرك ، ولا يلمع ، ولا يترك المكان . غمام ميت ، لا يوحي أملاً ولا يشف حياة . غلالة واحدة متجانسة الأنحاء ، تربط فضاء القمر العالي بفضاء الأرض الواطئة . هذا ، هو ، حتماً غمام الجن! فلأركُضْ إذن . فلأركض . وأركُضُ . أقطعُ النفس بالنفس . أتشمّمُ حواف القاع . أتنصّتُ وَقْع مشيتها المشدودة . وأكاد أحس رجيج التربة تحت وقع الأقدام القادمة من بعيد . أقدامها ، هي ، المشبعة بالخيبة والحياة؟ أقدامي - أنا - الراكضة بلا توقف أو أمان؟ أي شيء يطأ القاع بمثل هذا العنف والالتصاق؟!/ عباس .

ولكن ، لا ، ها أنذا أسمع ، في العتمة الكونية الشاملة ، صوتها الواحد والوحيد ، يدور صاخباً في الأعالي . يدلّني على الطريق : الطريق الذي لم أعد أريد أن أرتديه . بلى! إنه هو نداؤها

المؤلم المستطير : خليل . خليل . النداء العاتي المليء بالرأفة والانتكاس . وفجأة ، أتوقف كالمَرْسون . أتنشّق سَريَان الصوت وَفوْحه . ولا أرى ، على الطريق ، سوى الظلام : عتمة مستديمة حتى الأفق . ومن جديد ، أتملّى الدرب . وأراه ملقوحاً أمامي . ممدوداً حتى آخر الليل . درب التراب الناعم السحيق . الدرب اللعين ، نفسه ، الذي مشى عليه ، من قبل ، صاحب الوشاح ، تسوقه أحصنة الدرك السمينة الهائجة . الأحصنة التي لا تكف عن اجتراز العَلَف ، ولا عن التَرْويث . الواحد منها قَدّ الدار ، يأكل الليل والنهار! ولكن ، لماذا لا أسمع الآن ، صياحها القديم الصاخب ، يوم كانت تلاحق ظهره المبتعد ، وهو يغيب ، في السراب اللامع ، هناك؟! وأين هي ، اللحظة؟ وأين ، هو ، كوم البيت الخالي؟ وأين قتامه الظليل ، الذي ينحدر ، من فوق ، ممتداً على خد الأرض اللاطئة تحته ، كالماء؟! لا . ليس حولي إلا صوتي السرّي المكتوم : صوت الخشية والوحدة والقهر .

صرتُ أُقَلِّب النَظَر والنظير . فكرة قاهرة بدأتْ تستبد بي . تستبد بعنف وجداني هائل ، منذ أن رأيت القمر ، قبل قليل : لماذا نخاف؟ لماذا يخاف الناس؟ لماذا أخاف ، أنا؟ وممن؟ وإلى أي حد؟ الخوف ، الخوف المرعب الفعال وحده ، كان يسيطر ، ذلك الليل ، على الجو . اللعنة! من اخترع الخوف؟ ومن نَصَّبَهُ قهراً على الناس؟ وكدتُ أصرخ يا أماه . يا أماه! كان الأمر غاية في التعقيد . وبدا لي ، أن صوتها ، وحده ، قادر على تمييز

الالتباس . أركض ، إذن؟ أمشي الهوينى؟ أتابعُ الدرب؟ أتوقف؟ أعود إلى الاصطبل الذي صار ، بأمر المختار الأشقر الجميل ، مدرسة للبنين ، لا للبنات؟ لكن القمر ، هذا القمر الفائض عن الحاجة واللزوم ، لماذا يتوقف ، هو الآخر ، كالعَيّ في الفضاء؟ ولماذا صارت الأمكنة ، كلها ، متشابهة إلى هذا الحد؟

وبدأت رغبة غريبة تأسر لُبّي : أزتُّ حالي في الماء . الماء لا يسكنه الجن ولا الأفاعي ولا الأشياء الأخرى المميتة . الماء قرآن . الماء كريم . قائم . قاعد . حار . ساكن . ألم تقلْ ، هي ، ذلك : المَيْ ، يا وليدي ، يغسل الميت والحَيْ . ولكن لا . لا بد لي من أن أصل التل . التل العاصم . التل القاصم . وكأنني تلقيت أمراً سرياً صارماً ، توقفت ، فجأة ، عن المسير . رقيتُ ، بحذر ، كتف الدرب الترابي النابع من القاع . صرت أتطلّع في كل مكان . وفي كل ما يحيط بي : أبحث عن علامة . عن ضوء . عن هدي . عن سبيل . عن خليل . أنتظر الحسّ! الحسَ الواجف الذي لا بد وأن يأتي من نحو ما . لقد ضللت الطريق . وضللتَ الهيئة والمكان . وما علي ، بعد الآن ، إلا أن أسير . أن أسير . وبغتة ، بَرَق الضوء . ضوء حاد . ساطع . لماع . سَهْميّ . آتٍ من بعيد لبعيد . إلى أي الجهات أمضي؟! الضوء طائر فوق الأرض . متجه بكليته إليّ . مني ، يقترب بشدة . ومع اقتباس اللون الأبيض الساطع ، اقتبست الروع : صرت أعرف ، الآن ، إنها ، هي . هي سيارة المدير . سيارة الدرك . سيارة المختار . سيارة

الرجال الصفر ، بائعي الهِقْط والألبان والأغنام والأشياء اللدنة الأخرى . سيارة ابن جليوي . سيارة ابن الكلب . وها هي ذي تكشفني الآن : أميل يساراً . أميل يميناً . أميل وراء . أميل أماما . إلى أي ركن أميل ، يأخذ الضوء الساخط بأنحائي .

وكالجربوع المطارد أركض . أركض مبتعداً عن الزي والطريق : أروغ . وأروغ . أحسست ، راكضاً ، بلسع الشوك القاسي في باطن قدميّ . على لحم ساقي العاريين . بلصق خصيتي . في أعلى العانة . وحتى على جدار البطن والأحشاء . الشوك المجنون صار ، هو الآخر ، يلحق بي! يطاردني حتى يصيبني ويدميني . شوك أسود . طيار . فوار . ينبع من القاع . يهجم علي . أحياناً يصل الرأس . أحياناً ، يستقر في القلب . وأحياناً أخرى ، يرتمي على الوجه والدماغ ، آه! الآن فقط عرفت من أي شيء تظل أقدام «أبو الوشاح» تنزُّ دماً دماً . وبلا روية قذفتُ بنفسي على القاع . أحسست بسيقان الحنطة الغضة تنكسر تحت ثقلي . تَنْدهك كما يندهك لحمها تحت لحمه الثقيل . الحنطة الصفراء المسترسلة تنكسر ، كعيدان القصب الهشّ ، تحتي . وتحتي ، يتكوم الملح ، والكدر ، والتراب . العذاب العذاب . الضوء الغامر الطيار يهب مع الريح . يلقي بثقله الكاشف الفَضّاح على هيكلي الصغير . ضوء ، ضوء ، ضوء أحمق ينقلب فجأة إلى سواد وعدم . وأرفع رأسي ، بهدوء وحذر ، مستطلعاً سر الضوء وزحامه الذي فات كالبرق . كالبر .

كل شيء صار خلفي : الضوء التافه ، الذي غاب ، فجأة ، دون أن يخلف أثراً ، بدا مثيراً للكآبة والوَجْس .

آه! من جديد حلَّت الوحدة السوداء . ولم يبق في الفضاء المحيط بي إلا العتمة والضياع . وبمثل الخوف القديم ، تماماً ، حفزتُ من رقدني العاثرة ، وتوجهت ، ركضاً ، عائداً إلى الطريق . ثمة ، توقفتُ أتشمم الحس . كان على حسها الباطن أن يجيئني مع ارتجاجات الأرض . أن يعبر الزروع ، كلها ، ليصل إلي : زروع القزم اللئيم صنو ابن جليوي ، الآخر ذي اللحية الزانية المدهونة بالزيت والدخان . الرجل القصير ، البارد ، ذو الرجل الضامرة القَفْعاء . والثياب الزاهية المبطنة بالفستق والحرير . «جَلّو» جَلّو الجبار ، الساكت دوماً . سيد عامود ورجلها الكبير . الرجل النحيل الصغير القليل الضيئل المالك البر والضر والأنحاء والأمواء والزنجبيل والحرير والخام الثخين والرقيق والدقيق والفواكه والخضار . جَلّو الجنة والنار . يا ستار! «جَلّو» السحّار المكّار الدافن الحَبّ بالغار الذي يسخرنا كل صيف لحصد زروعه الصفر المنتشرة حَول شطآن النُهير المسور بالشوك والأحجار . حَصْدُها!؟ حصدها ونقلها وبَيْدَرتها ودرسها وتَذْريتها وعَزْل حنطاها عن زُؤانها وأخيراً دفنها في الأجفار . الأجفار التي علينا أن نقوم بنبشها كلما أردنا أن نرى كَفّاً من الطحين! ونحن الألى لَمْ نأكل الخبز مرة / ولم نشرب الماء القراح ولم نَبْنِ / نقلنا صخور الأرض من جانب اللّجى /

إلى جانب التل الكبير على المَتْنِ / صخور نقلناها وعشنا بظلها / وصرنا نعانيها وصارت بنا تُعْني .

بغتة ، صرتُ أرتجف : التل الأعور الكامد الذي لاذَتْ به شَقْحَة ودوابها العتيدة ، ذات يوم ، بدأ يشق الغمام! التل الذي ما إن ترقاه حتى ترقى بياناً وترى عياناً : ترى هاجر وبجعة وأباها الأعور وحمارها الأشهب المربوط وتراني وترى جروي «سِمْر» الهزيل الناعم الشعر والحواف وترى صاحب الوشاح الأصفر ذا الهيئة الجليلة والحركة القليلة . وترى الحوّاج الأحول وبغله الضحّاك الذي لا يخرج رأسه من كيس العليق المعلق بحلقه باستمرار والذي على ظهره العدل السمين تتوازن الحمول والحوائج والصناديق . وترى الجَرْجر العتيق الذي دارت شفراته الفولاذية القاطعة فوق أطرافي وقطعتها تقطيعاً . ترى أيضاً ، وكيل «جلّو» اللئيم ذا الرأس الباهت المدور والبطن النازل في الثياب . الذي لا يمشي إلا وحيداً . يتبعه المنديل الأصفر الحريري الطَيّار على بعد فضاءات منه : منديله الذي يلتصق به كالظل الكثيف ، والذي ما إن يرى الأزوال ، حتى يصير ينادي : تعال يا حمد تعال يا حمادة تعال يا ناصر وخزعل وحجر ونهير وعشبان . ونادوا من ورائكم على خابور وحسن وحسين وحسون وروث وغوث وبجعة وأبيها وأختها وأخيها ، وخلوها تنادي على وطْفة وحسينة وشمسة والشغيلات جميعاً . لا يتخلف أحد منكم اليوم . إنه يوم الفكاك . ويعيد

يوم الفكاك وهو يشير باعتزاز إلى جيوب جلّو المنتفخة بالأوراق ، صائحاً ، من جديد : تعالوا . تعالوا . ولا يتخلف أحد منكم . ومن يتخلف لن يرى درهماً بعد الآن . يصيح ، ونظراته البلهاء السادرة تتساقط ، كحبات البرد ، على مؤخرات البنات الناهدات . بنات الحنطة الصفراء والشعير الأسمر ، والعدس الملتصق بالأرض/ عباس .

وفجأة ، يرتج عصبي المستطير : تَفَجُّر سريّ صاعق يقلب البر والمكان . يغير مزاج الجو . حركة غامضة تنبع من الأرض . تأتي ، أحياناً ، مع الشجر القصير . وأحياناً أخرى ، تأتي مع الريح . مرة تزحف . ومرة تطير . يحيط بها ، نوع من الطحن العميق الصامت : خليل! خليل . كان علي أن أرد ، إذن ، ولكن كيف؟ كيف أرد وأنا لا أزال أضيع بعيداً! قاطعاً درب الليل الخالي ، ركضاً ، ركضاً ، حتى الضياء!؟ وخطر لي خاطر خطير : من يطحن اللغة والصوت غير سُكّان الليل؟ وسُكّانه كُثر وُمَتبدّلون : جنّ وسعالي وزواحف وعرابيد وثعالب وطحالب وبشر وذئاب وأحياء شوهاء لم أر منها حياً قبل الآن . وأركض جنوباً . وشمالاً أركض . أزت نفسي ، صامتاً ، مثل الموتى الفزعين ، بين أيدي العالم الأعمى ذي الألوان الغاطسة المسلوبة! من يحميني من الشيء ، من؟ وأحس بالطحن الغامض يقترب . يتبين صوتاً . صوتين . أصواتاً صغيرة ، وكبيرة ، مثل أصوات النائمين جماعاً ، جماعاً .

وأقفز . أنطُّ كالجربوع . الصياح ، هو الآخر ، يلحق بي . يناديني . يصيحني صيحاً . وقبل أن أواجه المدى والصوت ، التَوَت القدم . وانفتل الجسد . وهويتُ على القاع .

كان عليَّ أن ألحق نداء الليل ركضاً ، قبل أن يغيب ، في البعيد . وفجأة ، توقفت توقفت عجْبَة واضطراباً . وبمثل الرهبة الأم ، صرت أمرر يدي على عينيّ . أمسحهما من ضباب العتم والظلام . آه! الفانوس الصغير ، المعلق في الفراغ ، يلمع الساعة في وجه الليل؟ كدتُ أُهلّل . هناك ، في أفق القمر الواقف منذ أول المساء ، أراه . فانوس اللعنة ، أين كنت تختفي حتى الآن؟

بإنهاك مفاجىء أخذت القاع بجسدي ، كله ، قاعداً حتى التراب . قاعداً أستريح قليلاً قليلاً ، قبل أن ألج اللجة المستنيرة : لجَّة الفانوس العابس الذي أقتبس النور منه كل مساء .

وفجأة ، غدا الجو هادئاً ولطيفاً : صرت أشعر بأمان غامر يملأ قلبي حتى الشغاف . كنتُ قد بدأت أعرف طعم الأرض الأولى التي نَبَتتُّ عليها : أرضي القليلة المحصورة بين البيت والدواب . كدتُ أصرخ . يُمّا! يُمّا . تراني هينْ . لكن النباح اشتد من جديد . وهذه المرة ، لم يكن نباح «سِمْر» ولا نباح قرن من أقرانه . كان نباح كلب هرم بلا أنياب . كلب عبوس ، قدير ، فاقد البصر والأعصاب . أي كلب ، هو ، هذا العَوّاء؟ أيكون هو ، كلب المرأة السوداء ، ذات اللغود الهشة المتساقطة على فَكَّيْها ، والأرداف الصفر المتمايلة ذات اليمين وذات الشمال؟! لا هو

كلب آخر؟ كلب مسحور نبغ الساعة من جوف القاع؟! وأخُرّ ساجداً ، كليل البصر ، كسير القلب : من يحميني من هذا العواء الداخل في الأعصاب؟ هذا العواء المكلوم كنواح امرأة فقدت لب القلب . لا هذا ليس عواء كلب جائع . ولا عواء كلب ضائع . لا بد أن يكون هو عواء كلبها . كلب الحزينة أم الحزين . أم الحرامي الذي لم يعد مذ ذلك المساء . ذلك المساء العاصف الذي غاب فيه عن أمه الوحيدة . وكان ابنها الوحيد . بلى! إنه هو ، هو ، كلب المرأة الهائلة التي شممتُ ، مرة بعد مرة ، رائحة جلدها العرقان . والتي ، مرة بعد أخرى ، أحسستُ تكورات لحمها الشهواني المثير . لحم الحزن والانتقام . لحم الشهوة الملجومة منذ الأبد وإلى الأزل ، آمين! شهوة البدء لا الخلاص . الشهوة التي ما إن تنتهي حتى تعود أقوى مما كانت . ومنذ أن تكون لا يطفئها إلا «شَهْوٌ» أقوى منها/ عباس .

آه! صرتُ أتلَكّعُ وأنا أقترب ، رعباً ، منه . من نباح الكلب الأدغم المخيف . كلب عباس الذي كان ينبحني منذ المساء ، إذن؟ عباس الذي تصدى للدرك والهلاك . والذي داست أحصنة المختار السمينة بطنه والرأس ، وكلاب العرب ترقص ، من حوله ، وتصرخ : اعترف يا كلب . اعترف أنك أنت هو حرامي الحقول والبقول . سرّاق الحنطة والشعير . وأنت الذي أخذ أكوام العدس والحَيْلَوان . والذي حمل حمول القصب على ظهره هو أنت . وأنت الذي بَاقَ مَعاضِد الحّواج الأعور . وأنت هو أنت .

وعباس صامت لا يجيب . عباس كان قد غاب ، منذ زمن طويل ، عن الوجود . ويهتف المختار والدرك وأزلامهم : مات ولم يعترف ابن الكلب . ابن الحرامي . ابن الحرامية . ابن بيَّاعة الزبل والخرنوب .

فجأة ، يتغيّر كل شيء . يتغير العالم والوجود . والكينونة والانتظار . كل شيء يتغير ، منذ أن أصرخ في عمق الليل . عباس . عباس . ومع الصرخة الحمراء القانية ، ينبثق الزول العريض الطويل الفائق . زول الليل القديم . الزول الذي يبعث الرهبة والطمأنينة في القلب . بلى! أعرف الحس والمشية والاختيال . أكاد أطير : ها أنذا ، أخيراً ، في المجال ، مجال اللمس والنظر والأمان . آه! إنها هي . هي لا شك في ذلك . من أين خرجت هذه الجنية الشمطاء الوارفة الظلال؟ كن فتكون . وتأتي ماشية بتبختر يكاد يكون مَرَضياً . هي الأخرى ، لا تخاف! لا تخاف الليل . ولا الناس ولا الحواس . وبلا انتظار تأخذني هَلْكاً دَلْكاً : تعال يا وليدي تعال . وتملأ ضجة صوتها الأجش الفاسق كياني لهباً واضطراباً . ضجة غامقة تصاحب هَرير فَدْعوس الرهيب : هذا هو أنت إذن؟ هذا هو أنت! وتُريني العصا والسبحة والسكين : حسبتك هُمْ . حضَّرْتُ حالي للقتال . حسبتك عباس ، وجئت أخبّيء اللوعة والعذاب . لا أريده أن يراني ملتاعة . لا . لا أريده أن يراني إلا بالسرور . عباس يجيء كل يوم . يجيء ليلاً ، عندما يرتمي الليل . هذه ،

هي ساعته يقولون إنه مات؟ عباس لا يموت . عباس صياد الغزلان . عسّاف الخيل . الذئب الأحمر . مَشّاء الليالي الظلماء ، لا يموت . تعال ، يا وليدي تعال . الدنيا ليل . وفي الليل يجيء ، كما كل ليل . يجيء عندما ينام الناس ، وقبل أن أنام . وأنا لا أنام قبل الطلوع . قبل طلوع الشفق الأحمر الجليل . شفق عباس الحبيب . ومثلي فدعوس ، هو الآخر ، لا ينام .

وفجأة ، هجَمتْ عليه . عليه مراراً ، قبل أن تمر عَليَّ : فَدْعوس . يا فدعوس . نادِ على عباس . قل له خليل جاء . أخوكَ ، حبيبكَ صديقكَ ، نسيته؟ وهرَّ فدعوس هريراً خافتاً وحزيناً . ولحَس بلسانه الخشن العريض فوهته الغليظة المليئة باللُعاب والسيلان . ولَوى خطمه المخيف ، وعلاّه ، حتى غدا عمودياً طاعناً في الرَوْح . وبغتة عوى . عوى ، سماء وسماعاً . عوى مثنى وثلاثاً ورباعاً ، قبل أن يعب الهواء الليلي الصامت ، مُتَشمّماً ، بحركات عنيفة ، بعض الرائحة في الريح : رائحة العالم في ذلك الليل . وهز رأسه مرة ، ومرة بعد مرة ، أعاد الكرة ، وهو يفتش عن رائحة عباس الذي اختفى ، ذات ليل . اختفى منذ أعوام عديدة لم تعد تحصى . منذ أن كان فدعوس جرواً رضيعاً ، لا يزال . ومذ ذاك ، لم يعد فدعوس ينبح إلا ليلاً . ولا يأكل إلا ليلاً . ولا يتمَرْغَلُ على التراب إلا ليلاً . وليلاً ، دائماً ، يحافظ على وضعه الجالس المهيب . منتظراً ، بلا كلل ، طلوع الشفق الأحمر الغريب . شفق اللوعة . الشفق

المُحـرّر من الأوهام : الشـفق الذي بلا غـسق . أنا مـثله ، يا وليـدي . أنا أيضـاً أظل أراقب الليل والنجم والهـبوب . أعـد البروق والانحطاطات . نجمة براقة تظل قربي : نجمة عباس الأولى . النجمة العنقاء ذات الجسد الجميل والعرف الساحر . ألم ترها من قبل؟ والنجـمـة الأخـرى التي تمشي شـمـالاً . شمـالاً ، حتى منحدر الآبار . نجمة عباس الثانية . النجمة القانية ، الممتلئة دماً . نجمة الدلو الزانية التي شق بطنها الشَقّاق . النجمتان ، هاهما ، واقفتان ، هناك ، بلا حراك ، تراقبان . تعال . تعال ادخل جَوّا . الدنيا برد وصقيع . خَلِّ فدعوس وحده يراقب البروق . فدعوس يعرف نجمة عباس . ويعرف النجمة الأخرى . هو الآخر ، مثلك ومثلي ينتظر عباس . وأدخل . أدخل اللحم من جانب ومن جانب . وأشعر الدفء الساقط من أعلى البدن يتسلط عليَّ . يلج جوفي . يحرك أعضائي الخاتلة عضواً ، عضواً .

وفجأة ، يصيح فدعوس : عُوعْ - جَعُوُع - جعوعْ - جعوعْ وكالفرس الجافلة ، تَرْبعُ من فوق . ومن فوقي ، تمر ريحاً . تقذف بنفسها على القاع ، وهي تتمتم : تجيء اليوم . تجيء اليوم . تجيء الآن . أراك . أراك . ويهبُّ فدعوس الضاوي من تكومه ، ليـزتَّ هيكله الكلبي الهـرم ، عليـهـا ، تماماً . ومن ثم ، ينقطع النَفس . من بعد يَعُزُّ . يَعُزُّ . من بعدُ يعود . وشيئاً فشيئاً ، يجفُّ هرير فدعوس المنذر . وتتحول همهمته اليائسة إلى صرير خافت

وعميق . ومن خلل الغمام الليلي الباهت ، يصلني لمع بياض العينين المهمومتين ، وغياب الصوت الواجف الحزين : نذرت نذراً يا وليدي . نذرت أنني لن أموت قبل أن أرى عباس . عباس لازم يجيء . لازم أشوفه . لازم أقول له إنهم حاربوني . وراودوني . ومرة بعد أخرى ، خَشّوا عليَّ من شقوق البيت . لكن فدعوس الوفيّ ، كلبه الحبيب ، كَشَّم هدومهم ولحومهم . وكشف للريح عوراتهم . وصار العواء ، بغتة ، عوائين : عواء الريح ، التي هبت من أقصى الغرب ، وعواء الروح التي قاربت الانتشار : جئني بعباس! وقبل أن أجيء إليها ، ارتمتْ بهيكلها القديم ، كله ، عليَّ . ارتمتْ ترصَّعُ وجهي وأنحائي بقبلاتها اللاهبة : قبلة لك وقبلة لأمك وقبلة لعباس وقبلة لفدعوس . وقبل أن أسحب لهبي المستثار من اللَّغْط ، زادت القُبُل قبلة : قُبلَة القلبين الملهوفين على عباس . وأخيراً ، لك قبلتنا كلنا أنت وفدعوس وأنا والليل . قبلة نرسلها كلنا إليه . وتطول القبلة ، تطول ، ولا تزول . وبين القبلة والقبلة ، ترمي بثقلها الغريب كله ، فيَّ وتروح تحكي .

أحكي لك الحكاية الأخيرة : آخر حكايات عباس . اسمعني ولا تأت حراكاً . استلق ، هكذا . اجعل جسدك في مهب الريح . أكشف للنسمة كشُوفاتك ، كلها . الليل يحرر الوخز . يجعل النفس أقرب للحبيب . آخ من الليل! آه! من الناس والوسواس الخناس النابع من الطاس . ابقَ ، هكذا ، لا تأت حراكاً . سأحكي

لك كل شيء . أحكي لك الرجل والشيخ وراعي الدرع والحواصيد والحطابات والورادات وبياعات اللَبن والشيخ والحجر والدرك والحرامية وبياع الخواتم والسحار والعطار الأعور الملعون الذي يلبس جلد إبليس ليلاً ويعود رجلاً في النهار .

وفجأة ، ينقطع النفس والابتسام . وكما انقطع السرد فجأة ، فجأة يعود! وأتفسَّخ تحت رُكْنيها ، والهَذْوَةُ ، منها ، تتلو الهَذْوة . حكايات عباسُ لا بداية لها ولا نهاية . حكايات ساخنة ومثيرة . تبدأ كيلا تنتهي . وتنتهي لتبدأ من جديد : البارحة سرق عباس دواب الشيخ أبو عَمْرة ، وباعها في سوق «القامشلي»(*) . باعها والشمس تملأ النهار . وبثمنها اشترى لحماً وشحماً وخياراً وبصلاً أقرع كرؤوس الوِلْدان . واشترى لك أنت خبزاً أبيض محمصاً ومرصوصاً . خبزاً تدهنه بالداهون ، وتأكله ، كما تأكل الريح اليابس ، قرطاً ، قَرْطاً . ومثل الذئب الجائع دار السوق دورة ، دورتين ، واشترى لي من القماش قماشاً أطلَسَ من الملَسَ والحرير . ورأيته يركض كالمطرود .

(*) مدينة في أقصى الشمال الشرقي من الجزيرة السورية ، مقابل مدينة «نَصيبَيْن» التاريخية الشهيرة التي تبعد عنها بضعة كيلو مترات فقط ، داخل الأراضي التركية . وإسمها ، كما يُقال ، مشتق من كلمة «قامِشْ» وهو نبات القَصَب الذي ينمو بكثرة على ضفاف نهر «جغجغ» الذي يمر بها ، منحدراً جنوباً إلى «الحسكة» ، ليصب في نهر الخابور .

يبحث لفدعوس عن العظام : عظام العُجول المُكَوَّمة كالبيادر أمام الدور . والدرك ينطرونه في الميدان . ينظرون إليه ، ويخططون . ومثل الشياطين المجنونة استداروا حوله وشافوه . شافوه وعافوه . عافوه يشتري ويبيع . يأخذ ويعطي . يرتب ويهدي . وهم ، يحيطون به ، من هناك ، ومن هناك . درك ابن جليوي . درك ابن الكلب . كانوا يتناطرونه ، وبأيديهم الحديد ، والقيود ، والمطارق ، والمسامير . ومثل الكلاب المَكْلوبة نَطّوا عليه . وكالريح نفذ من بين أعضائهم الحاقدة . ولحقوا به كالمجانين إلى عامودا . ومن عامود إلى الدِرْباسية . ومنها إلى رأس العين . والمختار الحقير يحرضهم عليه : من يجيب رأسه أجيب له خاروفاً . ومن يجيب ، ومن يجيب ، أجيب له ، وأجيب . وكالقرادة الهائلة ، ٱلتمَّتْ عليَّ مهدئة روعي : لا تخفْ ، يا وليدي . لا تخف ما مسكوه . عباس لا ينمسك . الدرك والهجانة والمخاتير تلحق به اللَحَقان ، كله ، ولا تطوله : شاله الريح وعلاّه . وعلى ظهره المتين ظل يشيل ما اشترى من الأسواق لك ولي ولفدعوس الأمين . حق المحبة والحنين .

وفي الطريق الطائر التقى «بجَلْغيفة» «جلغيفة» العمياء العجفاء صاحبة الرَعَف المستمر والقلب الهائم . ورأيته ، أنا ، بعينيّ هاتين ، رأيته يناولها قَبْضاً من البصل والتين . يرمي عليها من عل حبوب الزبيب الأسود السمين : زبيب كركوك ونصيبين . وأخيراً يرش على وجهها الناحل القديم رشاش

البنفسج والمَحْلب والعناب . وبقوة يدعوها : افتحي ، افتحي المقلتين ، وانظري الريح ، وبَلّغي الأرواح ، أن الهوا طاح . أن الهوى طاح . وهوَتْ في الجفر . وهوَيْتُ فيها . ومعاً ، هوينا في الظلام . هوت ، وهي تبتعد في هيئتها ولغاها : هذاك هو أشوفه . سرب القطا يدل عليه : وور وور! حوله القطيع . قطيع النسور الهائمة في الفوق . بلى! ها هو ذا يجيء من أطراف البر البعيد ، مع المهرة ذات العينين الساطعتين ، كرصاصتين من فولاذ . اسمها زهراء . عيونها نجلاء . أطرافها فَتْلاء . جسدها لَهَب . وقلبها وَهَب . تفُضُّ الجَمْع إذا مرَّتْ . وتروي الظامىء ، إنْ درَّتْ . تلك هي امرأة عباس . لا امرأة له سواها . أنا أعرف الحب الجامع في قلبه وعينيه . وبللاً بعد بَلَل ، يحل الغياب والاضطراب . وتبدأ الهامة البيضاء الثقيلة انطواءها تحت أركان الهيكل المخيف . وكالنعامة ، تلمّ بُعضها بين جناحيها ، وهي تقول : من أجلنا سرى عباس ليلاً . سرى ذات ليلة من ليالي الشتاء الباردة الظلماء . ليلة لا نجوم لها ولا تخوم . كنتَ لا تزال صغيراً . كنتَ بلا كيان ، وها أنتذا الآن كبرت . صارت لك لحية وشارب ولُغود وخدود . ومن عيونك الصغيرة ينبعث لهب غريب يذكرني ببروق تلك الليلة العاتية التي أكلت عباس .

ومنذ تلك الليلة ، طلع القمر آلاف المرات ، وغاب آلافها . وهطل المطر . وجَفَّت القاع . كنتُ هَدّادة وصرتُ غماماً ورخاوة . فَدْعوس ، هو الآخر ، هرم وشاخ . صار عسير الحركة

والنباح ، ولما يعد عباس ، بعد . بلى! هوذا عاد . وكما تشمخ الناقة المحتضرة بعنقها الطويل اللّين ، ساحبة هواء العالم كله قبل الموت ، رفعت القَدّ القديم الهالك ، ووَسَّعتْ منخريها قاصدة صوب الريح . وَشمّتْ ، شمت عميقاً . وصَرّتْ ، صَرّت الهواء الداخل فيها . صرَّتْه صرّاً . أخذته إلى أعماق جوفها المتداني ، وبدأت تأكل الريح وهي تؤكد : إيْ يا وليدي ، أنا أشرب الهوا والمقام . أنا آكل الريح ، وأشرب النسيم . ولأول مرة رأيت زنديها الهاطلين يدوران شرقاً وغرباً . يبحثان عن شيء لا تكاد تلقاه . شيء يبدو قريباً منها ولا تصيبه . اللعنة! ولكن أين هما عيناها العابثتان؟ عينا الأرض . عينا البرية والوَجْس . ولِمَ تشم ، هكذا ، وبمثل هذا التوتر والارتياع؟!

وأصرخ . أصرخ الصرخة تلو الصرخة . أدلُّها على القلب والشيء . ولكن لا . هي لا تسمع أيضاً! وأحاول أن أردها . ولا تردّ . كانت كالسائل الوثّاب . تمر بين الغيم والتُراب . لا تُنْهى ، ولا تُصاب . وكأنه لم يترك الفضاء ، قط ، يعود صوتها المكتوم ، معلوماً . يرافقه كالناي السحري ، هرير فدعوس الضاوي لصقها باستمرار : لم أعد أملك إلا الشمّ . أشم فدعوس . أشمُّكَ . أشم الدرب . والريح . والطقس . والهواء . أشم الهُدوم والرُجوم . أعرف كل شيء شماً . أشمُّ الليل ، ساعة بعد ساعة . أشم النور والضوء والظلام . أشم الرعيد البعيد . وأعرف رائحة المطر الذي بَلّ عباس . أشمّ الكون من الطرف إلى الطرف . ألاحق عباس .

أعرفه متى يجيء شمّاً . وشمّاً أعرف منحاه وسرعته ووقت وصوله وملقاه . مطيتي الوحيدة هي الريح . أنت تعرف ، يا وليدي ، أن الريح تصل بعضها وصلاً . الريح الصريحة ، والخفية ، هي التي تنقل إلى كل شيء : رائحة عباس . ومن الرائحة أعرفه عندما يزعل . عندما يرضى . عندما يثور . وعندما ينام . عباس كله رائحة! رائحته تعبر المسافات والبوادي لتصل إليَّ . ومنذ أن تصل ، تستقر بي ، كما تستقر الروح في البدن . تتعجب!؟ الرائحة سيّارة ، يا ابني . وهي ، مثلنا ، تماماً ، تكون حية عندما نكون أحياء . تحسنا ونحسها . رائحة الموتى ، هي الأخرى ميتة . للموتى رائحة غريبة ذات طعم أسود . نحيف . وليس لها ملمس أو هبوب . بلى! عباس لا زال حياً . أعرف ذلك من رائحته الشهية النفاذة ، التي تلتصق بالجلد والأحشاء . رائحة الموتى لا تظل في خشمي إلا ثواني ومن ثم ، هي الأخرى ، تموت . تغيب ، فجأة ، كما يغيب جسد الميت في التراب . رائحة عباس تظل تحوم في الليل حولي . وقبل أن تطلع الشمس إليه تعود . هو الذي يأمرها بفعل ذلك . يعرف أنني أريد أن أراه عندما لا يراه الناس . هو الذي يرسل رائحته العذبة إليَّ ليلاً إثر ليل . يُحمّلها أخباره ومساريه . أنت تعرف ذلك . فدعوس يعرفه أيضاً . تتعجب! قلبي يقول لي هذا . قلبي لا يكذب . عباس لا زال حياً! عباس ما مات . عباس انذبح . الشَحّ .

القسم الثاني

(١)

على ضفة النهر الكئيب جلس عمر الأخرش . وسريعاً ، تربَّع ، مادّاً أمامه صفحة من جريدة «النور(*)» العتيقة . عليها ، وضع ، بلمح البصر ، الأغراض : رغيف الخبز الأبيض الطازج وبعض السكاكر الملونة ، ذات الأشكال الملس ، المبنية على هيئة الحيوانات . وعلبة السردين : علبة السردين الأزلية ، ذات الغطاء الصدىء المنخور . العلبة والبَحّار . البَحّار الذي ينظر بتواطؤ من وراء حاجبيه الهائلين . البحار الخبير الذي جاب البِحَار ، كلها ، بحثاً عن أحسن أنواع السمك والشبابيط . ليصنع منها ، كما يزعم الأخرش ، هذا الغداء الدسم اللذيذ .

بأسنانه البيض القاسية ، فتح الأخرش الهيكل المعدنيّ الساحر . هيكل العلبة المملوءة أسماكاً حُمْراً صغيرة . تصطف الواحدة منها لصق الأخرى ، بإتقان شديد : أسماكاً ميتة ، وبلا

(*) «جريدة النور» ، كانت جريدة «الحزب الشيوعي السوري» آنذاك . ووقتها كان نوع من الديمقراطية البرلمانية يسود في سوريا . والأحزاب ليست ممنوعة ، ولا موحدة في «جبهة تقدمية» ، كما سيحدث فيما ، بعد .

إحساس . ميتة موتاً قديماً ومستديماً . ودون أن يهتم بي ، لحَس الأخرش سيلانات الزيت اللزج من على حواف العلبة ، وأنحائها ، لَحْساً . لَحْساً . ورأيت لسانه الذَرِق يتطاول في الفضاء ، ماسحاً أركان فمه وشفتيه . ومنذ أن حلّتْ عيناه بعينيَّ ، تَلَمَّظ ، ساحباً نَفَس العرق الفضي الصافي : عرق الخابور الذي لا يكف ، هو الآخر ، عن الجريان . وبحركة أو حركتين ، لَمّ أشتات السمك الميت الصغير برغيف الخبز الطري الذي هوى دفعة بين فكيه . بعدها ، قعد الأخرش هادئاً . لا حركة ولا حياة .

ورأى إليَّ أتَلْمَّظُ . وبلا مبالاة ، زَتَّ ، إلى ناحيتي البعيدة ، بعلبة السردين الفارغة ، وانتظر ، كما هي العادة ، أن أحسَّها بلقمة الخبز الأسود اليابس حَسّاً ، قبل أن أقذف بها إلى الماء .

أحسست بطعم الزيت الأسود ملتهباً وصديئا . مع ذلك ، استمر الحَسُّ والمَسُّ والامتشاق . وشيئاً تكَسَّر خبز التنور الواقف في الحلق ، وهوى مَقْضوماً إلى القاع . ظل الأخرش يتمَطَّقُ . يصُغِّر خده الواطيء للماء والبشر والهواء . ومن آن إلى آخر ، يخُرُّ بصره السَمَكيّ الثخين عليَّ . يَخُرّ ، ليخبرني مرة بعد مرة ، أنه أكل السمك الميت ، وحده : آه! عندما تَقرُطُ الذيل ، تحسّ بعظامه الهَشَّة تتكَسَّرُ ، كالزبيب الجاف ، بين أسنانك وحناياك . ومثل السكر الديري ، يذوب السمك سريعاً في اللعاب . أولاد الكلب . أولئك البحَّارة الذين لا يأكلون إلا

من هذه الأسماك والأحوات ، والذين لا يدهنون أجسادهم بالماء ، بل بالزيت ، بالزيت الناعم ، يا غبي! قال . وقام . وقعد . وقام . قام يتنشق الهواء الرطب ، بعمق . وبجدية واكتئاب اقترب مشياً من النهر السائل . وبيديه البضتين غرف من الماء حَفْنا حَفْناً . به رَشَّ جسده ، وأعضاءه العليا ، والسفلى والحواشي والأردان ، وهو يردد ، كالمسحور : الصلاة قربَتْ يا غبي! البدو لا يُصَلّون . البدو ملاعين . لكن جهنم ألعن وأشد . ونَفَّ وتَفَّ : النظافة بعد الطعام سنة . والغسل بعد الجماع سنة . والاستماع إلى . . . وكالسيف قطعتُ الكلام بالملام : المرة القادمة ، إن لم تدعني أذق أذناب الشبابيط ، لن أكلمك . لن . ولم يدعني أكمل التهديد . سردين . يا غبي سردين . ألمْ تر في حياتك سردينا . ولم تتعلم ديناً؟! وأكمل بتفوق : السردين ، أصلاً يؤلم بطن الناس الذين لا يأكلونه كل يوم . إنه أشبه ما يكون بالسم لمن لم يذقه . احذر . تفَّرجْ قعيداً ، وظل بعيداً . ولا تقرب الأسماك ففيها الهلاك . ولا تنسَ أن اللّه يرى كل شيء . يرى بطن الماء ، وظهر القاع ، وبين ، وبين أخاديد التربة ، وفي الغربة كما في الديار . إنه الواحد القهار . وفجأة ، صار يبربر ويكبر : اللّه أكبر . ولله الحمد . وامتلأت عيناىَ غيوماً! ضاعتاً لست أدري أين! من أين له بهذه العلَب المعدنية اللئيمة؟ العلَب الصفر المُفَلْطَحة المملوءة أسماكاً ، أسماكاً . وقررتُ في أعماقي : في المرة القادمة أجيب معي البصلة : البصلة العملاقة . ذات القشور البيض القاسية .

وأمامه أفكٌ أزرارها زراً زراً ./ عباس .

في اليوم التالي ، أخرج الأخرش علبة السردين القديمة ، نفسها . وبالعنف الأهوج المسعور ، نفسه ، افتض قالبها الهش ، أمامي . وبلا مبالاة ، ارتمى بهيكلة الراغب على فتات السمك المهروس . وراح يأكل مهمهماً ، مستلذاً . وكالعادة ، مد قدميه المَحْذُوَّيْن على أطراف جريدة النور العتيقة . يقرأ . ويأكل . ويتغوط . ويَتلَوَّطُ ، معاً! هو الآخر ، مثل ابن جليوي . مثل ابن الكلب! وهذه المرة ، لم يزت لي علبة السردين الفارغة ، بل لَحَسها ، هو نفسه ، لحساً . لحساً . أخذ القيء يستبد بي : آكل خبزي؟ أشرب الماء؟ أتمشى حتى يحين أوان الدخول؟ أهجم عليه؟ أكسر رأسه وفكيه؟ أهشم أسنانه وأحُزُّ لسانه؟ لماذا يتجاهلني هذه المرة؟ ولمَ لحَسها وحده . لِمَ زَتَّها في الماء دون أن يمررها عليَّ؟ الماء . الماء الحَمّال الزمَّال . الماء المتآمر الذي أخذ العلبة ، بَرْقاً ، وراح . أخذها فعلاً . رأيتها تجري بعيداً . تتهادى ، هاوية في عرض الشط ، تاركة شمال الأرض ، لتروح جنوباً . وعَبْر كُرات الماء المتراكضة ، رأيت جموع الشبابيط الصغيرة ، ذات الأجساد الصفر اللامعة ، تركب أطراف العلبة ، ومعها ، تغوص في الحضيض .

تابع النهر سيره بهدوء . وبهدوء قُمْنا ، معاً . ومعاً ، سِرْنا . سرنا صمتاً . لا يكلم أحدنا الآخر ، ولا ينظر إليه : العلبة المستطيلة الصفراء كانت تملأ القلب والأحشاء . تَسدُّ منافذ

الروح . تجعل الحقد والضغينة جَعْلاً . جعلاً . الخبز الأبيض . والخبز الأسود . البصل اللبن والقمردين . جريدة النور العتيقة والتراب . ماء الجرار الفخارية النازَّة ، ووحل الخابور المرتوي : أي شيء ، يمكن أن يقابل أي شيء ، لكن العلبة التي لم تُلْحَس ، العلبة التي سافرت تواً إلى البحر ، علبة الشوق والتوق ، العلبة - الشغف ، لا يمكن أن يقابلها شيء آخر إطلاقاً . وكالمجنون ، هجم الأخْرَشُ عليَّ : تَزتُّ خبزك؟! أزتُّ خبزي . وأزت اللات والعزى والأوثان والأحجار اللينة والأعشاب والخرابات .

وأزتُّ نفسي . وأزتنّي ، زتّاً ، عليها . وأحس بليونة الحبل الأخضر تربط القلب بالحضيض . وكالفقاعة ، أنفقيء في انخفاضها الجهنمي . انخفاض رطب مسكون بالخوف والجنون . انخفاض عات ، شديد الوطأة . وأدع الموسى اللامعة المسنونة تخترق الكيان من العيان إلى العيان . وأحس المتعة الصامتة المتمنعة تتهاوى . وألتَذّ بانكسار الماء المقاوم . وتَلْتَذُّ ، هي الأخرى وهي تتقدم باستمرار . الالتصاق . الانتهاك . الاختراق . بلى! هذا هو بستان ابن جليوي . بستان ابن الكلب . وهذه هي الأشياء ، كلها ، شيء واحد . وهي ، كلها ، إياها . وأهزها وتهتز . وألزّها وتَلْتَزّ . ويخترقها الخارق من الظاهر إلى الباطن . ومن أمام إلى خلف . ومن أسفل إلى أعلى . فالقاً جسدها الدائري فلقتين متساويتين . متَمتِّعاً بخرير سيلاناتها الحمر التي استمرت تلوث القاع . فلتلوثْها إذن . فلتلوثْها . وما

إن رآني «أعبد» الذي نصب نفسه حارساً على الأشياء ، متحملاً أعباء مسؤولية لم يطلب أحد منه احتمالها ، حتى أفاق . أفاق خارّاً ساجداً . مُهّللاً . مكبراً : اللّه أكبر ، اللّه أكبر . ذبحوا البطيخ . سرقوا الدبشي والخيار والعَجّور والفجول . الحقل كله انسرق ، يا ناس . الله . الجار ، الجار ولو جار . تعالوا يا أهل اللّه ، تعالوا . صار يغني ويرقص وينوح .

وكأنهم كانوا على انتظار ، تجمعوا حوله ، فوراً . وبأسرع من البرق حملوه : إلى المستشفى يا شباب! إلى المستشفى! النوبة جاءته . إلى المستشفى؟! إلى أكوام الذباب والبرغش والبعوض . إلى مذارق الطيور وأوكار الزنابير ومناقع أبوال المارة والسائمة والحمير . إلى حيث ينتظر المرضى المتراكمون منذ أول الفجر . ينتظرون أمام البناء الحجري الأصفر الغَبور . البناء الوحيد الذي ، منذ أن تعبر الجسر القديم ، تراه . تَدُلّكُ عليه اللوحة . اللوحة السوداء الكبيرة : «وزارة الصحة والإسعاف العام . مستشفى الحسكة المركزيَ . ويرتجف «أعبد» وهو يصرخ : ماذا تصنع هذه الحشرات والأحياء الطيّارة والسيارة والأرواث والأخرية والأغطية والمرضى والمصابون ، هنا؟! هذه الأشياء المختلطة ، ماذا تصنع في هذا المكان؟ أليس ذلك ، كله ، من عمل الشيطان؟! يصرخ أعبد الذي يصحو فجأة . ومرة بعد مرة . يعيد الكرة : أبعدوني عن الموت . أبعدوني عن هؤلاء المرضى والمجانين . أبعدوا الحشرات والآلات والزواحف واللواحف عني .

ويقتربون به من البؤرة ، اقتراباً : بسرعة يا شباب . بسرعة . وكالطائر المتوحش ، يفر «أعبد» . ويغيب . يغيب كله . ولا يبقى في الفضاء ، إلا تماويج صوته اللين : سرقوا العقل أولاد الكلب . سرقوا الحقل أولاد الله . ويتراكض الجمع المعتوه ، لاحقاً به : المجنون انهزم . أمسكوا مجنون الزروع يا شباب . أمسكوه . وينطّ أعبد . ينط كالطابة ، يطير في الجو والنوء . يطير أمام أبصار النحّاس والحجّار والسقّاء والزبال والحمّال والدَلاّل . وكالموتى يقفون أرضاً وبصراً ، لا يتحركون . يقفون يسبحونه : سبحانه اللّه! سبحان الحي القيوم حارك الماء والغيوم! ويَخُرُّ «أعبد» عليهم . يَخُرُّ من السماء . بيده الطويلة عصاه القصيرة : يا أولاد الكلب . يا حرامية الحقول . يا مهابيل . يا عرصات . يا مناويك . يا حَوّاكه يا فتّاكة . يا ملاعين . يا مجانين يا مجانين .

وفجأة ، يبدأ الصَفْع . صَفْع الصغار أولاً . أصغر الصغار وأقلهم ذمة ودفاعاً . أصغر الصغار . أصغرهم جميعاً . ثم الأقل صغراً . ثم الأكبر منه . ثم الأكثر كبراً . ثم الكبير . وأخيراً . يجيئها الدور : آه! هذه هي أنت يا بنت الملعونة والملعون! يا قحبة ؛ يا منيوكة . يا منهوكة . تعالي إليَّ . تعالي أيتها الدنيا الحقيرة والصغيرة . تعالي أريك أيتها النفس الأمارة بالسوء . تعالي . وبغتة ، يأخذ الصفع منحى آخر . يصير له وقع القضيب على الرطيب : اللّه ، اللّه . ما أطيب النكحة ، وما ألذ النكهة .

آه! يضجّ وهو يتناول العصا الأخرى ، ذات اللين ، من وراء الحمول المرمية على الأرض : هاكِ . هاكِ! هاتِ ظهركِ والقفا والأنحاء . هات الفخذين ليأخذا حقهما مني . هات البطن والخواصر والأواصر . هات الشعر الأسود الطويل ، والخصر النحيل . هات العانة الرنانة والعظمين العظيمين والثغر والنحر . والأصابع والقواطع والأنياب . هات أعضّكِ . أنحركِ . أبقُرُكِ كما يبقر الباقر بطن الثور . هات يا بنت الحرامية والسراقين . هات ، أيتها المرأة الأمارة بالسوء . يا غواية الحياة . يا شيطان يا من ولدت خلسة في النفس .

ويشتد الضرب . يشتد . يصبح أقوى . أطول . وأحدّ . وبقوة تبعد وجهها الأسمر الجميل عنه . عن أطراف العصا ، والقضيب . ومع ذلك ، يظل يصيب . وشيئاً فشيئاً ، يتورد جلدها الأملس الجليل . وتفوح منه رائحة المْلب والقرنفل والزهور . وتنتشر على أنحائه البُثور . ومن بؤبؤيها الواجفين ، ترسل إليه إشعاعاتها العنيفة . ترجوه العفو والحنان . وتمر الإشعاعات البيض المخضبة على عينيه ، ولا يراها : الحقد يأكل كل شيء حتى طاقة العقل على الاستيعاب . وبقوة غامضة ظلّتْ عصاه تهوي عليها : مرة . مرتين . ثلاثاً . ألفاً . وأحستْ بالوجع ينطلق من أكنانها جميعاً . من أحشائها . من أنحائها الجوانية الغاطسة في الهياج . ولَمْ تصرخْ . وفجأة ، صار يصيح : خذوني . خذوني من حضن إبليس اللعين ، خذوني .

خلصوني من شر الجسد . فُكّوني من أسر الرغبة ومن قَسْرها . أبعدوا هذه المنيوكة عني . أبعدوها ، يا أهل اللّه .

وكما ترتسم المتعة الشيطانية في عينيها ، يرتسم النوح والارتخاء في أحشائه . وتستمر العصا في الصعود ، وفي السقوط . تستمر راسمة هالات موقوفة مستديرة . هالات تتقاطع على أنحائها ، كافة : على الأسفل والأعلى . على الفوق وعلى التحت . على البر وعلى الجو . في الداخل وفي الخارج . على المداخل والمخارج . ويتملّى ، بزعل وحنق ، تلك العلامات جميعاً ، يتملاها ، دفعة واحدة ، وباستمرار ، ويصير يسبّح ، والغيبوبة تلفه من الركن إلى الركن : سبحان الجبار ، المطفىء الماء بالنار . سبحان القنوت الذي لا يفوت . تموت . أو لا تموت .

لا! حركة الجذع جاءت قبل أن يخلص الكلام . الحركة التي انحبست في لحم الإليتين الصَلْدَيْن ، طويلاً ، انطلقتْ ، بغتة ، في الأعضاء . وقبل أن يرتد إليه طرفه ، تملّك الهيكل ، الذي حسبه ميتاً ، حركة عشوائية هوجاء . والتقطت اليد المخنوقة ميجنا البُطْم القاسية : الميجنا التي صنعَتْها يداها من جذع الشجرة التي التقت به ، تحت أغصانها ، أول مرة . التقت به ، في حر ذلك الصيف اللاهب ، والناس منهمكون . وبخوف غريب ، مثل خوف المقت والحقد والنقمة والتمرد ، معاً ، استقرت الميجنا في التوّ والقمة : قمة رأسه العريض . وهوى الجسد العاتي ، دفعة ، على القاع . وفجأة ، علا الصياح : يايُمّا

قتَلْتهُ . يا يُمّا قتلتُهُ . وكالكرة الصاعدة علواً ، تدحرجت العجوز القعيد . تدحرجَتْ ملفوفة بالرهبة والأسمال . على أطرافها العارية ، تتكتل أصباغ الطين القديم ، وتتناثر على هيكلها المهترىء نُثَرُ الطحين الأسود : طحين الحبّ المخلوط بالزؤان .

تدحرجَتْ وهي ترتعد : سدّي طيزه يا وَلّي ، سدّي طيزه ، قبل أن يموت . ولم تقترب منه . لم تلمس جَثته الباردة اللماعة . لم تندم . ولم تر الروع العنيف يحوم في الحفاف . كل ما فعلته هو أن أخذت الأرض بأطرافها الأربعة ، وهوت تنتظر المعجزة التي لا بد أن تجيء . وبلا انتظار ، حطت الساحرة العجوز قلبها اليابس عليه . وبقوتها العتيدة ، كلها ، سدّت طيزه سدّاً محكماً . ونفخت فيه من ريحها . وشالَتْهُ . وحطّتْهُ . وأخيراً ، نَكسّتْ هيكله ، تنكيساً . وفجأة ، بدأت الأطراف تتحرك . وتحرر النفس الحبيس . وتباعدت الجفون . وتميّز بياض العينين عن سوادهما . وبدأت الأهداب العليلة ترفُّ . ترف بعيداً . بعيداً جداً . على حدود الموت والغثيان .

كان يرى أشياء وأشياء . أشياء غريبة لم يسمع عنها شيئاً من قبل . وأشياء حمراء قرمزية مثل أزهار الدم والأقحوان . وأشياء لها أشكال مسننة يمتطيها أناس هيئاتهم مثل هيئات الثيران المذبوحة تواً . وأشياء . وأشياء . وبسرعة البرق ، غسلت يديها من الطين والطحين . ورشّتْ على جماد وجهه العنيف ماء ، وهي تسبح بآيات الوَدْع والخرز والحبوب . وتنذر للجوعى

والسائلين أرغفة مدهونة بالسمن والسماد . ومن بعد ، نثرَتْ فوقه بياضاً من بياض القطن والحليب الخاثر . وذَرَّتْ الملح والتراب ، عليه ، آمرة : اسكني أيتها الروح . أسكني الجسد المطروح . واستجاب لأمرها الكيان . استجاب بانفتاح هائل ومخيف . انفتاح تسلل عبره الضياء ، تسللاً مرعباً ومقيتاً . ومن ثم جاءه نوم عميق . أعمق نوم عرفه حتى الآن .

ومن جديد ، بدأتْ تصيح : مات . يايُمّا ، مات . ومثل السَبْعة الحانية ، هجمَتْ عليه هجوماً . حطَّتْ نفسها فيه . شمّتْ حناياه وإبطيه . مسَّدتْ شعره بيديها الغريبتين . وأسبلت بأصابعها الملتهبة جفنيه ، وهي تنادي : لا! لا تمت . ارتجف صلبه ارتجافاً خفيفاً بين يديها الباحثتين . وبهيكلها المرموق ، كله ، أسندت الجسد الذي غاب عن الوجود . وبشوق ممزوج بالأسى والالتياع نفضَتْ عن جبينه الغض الغبار . وتحت الأشعة المتماوتة بانت لها ، فجأة ، قسمات وجهه الأزلي . وكأنها تصيب ذلك لأول مرة ، ارتعشت عميقاً . ارتعشت ارتعاشاً غامضاً ، مليئاً بالبهجة والخوف . وكمَنْ أصابه مَسّ مفاجيء قذفَتْ بالرأس ، كله ، نحو القاع! وهذه المرة ، رأتْ كل شيء : رأت آثار السغب والجوع . وبانت لها الأعضاء في قرارها هزيلة ومبهمة ، تكاد لا ترى بالعين . عجباً من حَطّه حارساً على العالم والحقول؟ من وَكَّله بالعدل؟ من أدار له العالم إلى الجهة العكس؟ من؟ ومع ذلك . لَمْ تفصح الكلام!

البرد الرهيب الذي بدأ من أطراف الأصابع لم يعد يكف عن التقدم والصعود . البرد وصل الفخذ . والفخذ الأخرى ، والأوراك . البرد الذي يدرك البطن لا رادّ له . ولا شاف ، آه! البرد . يايما البرد أكل الرِجّال . وأحاطت بها البسوس . لمتّهاً بين أملاخها وأشلاخها : تعالي ، يا بنية تعالي . الليل جاء . وليلاً لا يموت الناس . ولَمْ يطُل الليل ، تلك الليلة ، طويلاً . من أقصى الشرق طلع نور الفجر الباهت . وهبّ على العالم نسيم الصبح الفاتر الخَدّاع . بفعله ، بدأ البرد نزوله الحثيث ، أخيراً . البرد ترك العنق والمنكبين . صار في الخاصرتين . منهما ، نزل إلى المفاصل التحتانية والأثناء . واستقر ، من بعد ، في القدمين اللتين حاولتُ ، جاهداً ، سَحْلهما ، ولم أفلح .

ومن جديد صارت أصوات المغارة القديمة تجيء . أصوات حادة حارقة سيَّالة . تخترق الحجر والشجر والكدر لتصل إليّ . لتصب في أذنيَّ الواسعتين ، صباً . ومرة بعد أخرى ، صرتُ أحس بالارتطام ، سَمْعاً . وسَمْعاً ، أرى ، من خلل حيطان الغار الهائل ، احتكاك اللحم باللحم . أرى ، تماماً ، لحظة الالتحام ولحظة الانفصام . ومع التيارات السحرية الخارجة من الغار ، كانت الأنفاس تخرج ، هي الأخرى ، متلاحقة . تمر بي ، وما تلبث أن تختفي في الفضاء . تختفي ، كما اختفت علبة السردين الصفراء البارحة ، راكبة تيارات الماء الموحل ، الساقط من الجبال . الماء الذاهب ، دوماً ، إلى الجنوب . حاملاً علب الأخرش

الصدئة المَلْحوسة ، كلها . علَب السردين الفارغة ، التي تذهب ، أبدا ، من النقطة هنا ، إلى النقطة هناك . وبرعونة ، أقذف بالحجر الأسود المشظى إلى أبعد نقاط الماء وأعمقها . وأسمع صوت ارتطامه بالسائل . ومن عندي ، أروح أتابع دوائر الماء العذريّ : الدائرة - النقطة التي تتسع ، كلما ولدت دائرة أخرى ، حتى تصير إلى العدم . دائرة تلد دوائر ، تلد غوائر .

انتفخ الأخرش ، زهواً ، وهو يتحدّاني : انظر . يا ولد ، انظر . هذه المرة ، أيضاً ، لم تغرق العلبة التي لم تلحسها . علبة ابن جليوي . علبة ابن الكلب . رأيتها تنفذ ، فعلاً ، من الغرق . تسير نحو الجمود والجنوب . تمر بهدوء كامل ، تحت قوائم الجسر الحديد ، الذي يوصل الأرض الحمراء شمالاً ، بالأرض الصفراء جنوباً . جسر الخابور الوحيد الذي عبرَتْ عليه ، منذ قليل ، سيارة المدير حاملة زوجه المكفوفة . ذات العيون المريبة مثل عيون الخيل . وكالبرق ، التقطت حجراً آخر من جال النهر ، وحذفتها به ، قوياً . وهذه المرة ، استقر الحجر في القلب : قلب العلبة الطافية . فهوت في الماء . وفوراً ، هجم الأخرش عليَّ : كلب ابن الكلب ، أغرَقْتَ علبتي . بديّ اغرقك . بدّي أغرقك . ودون تردد ، اختلطت الوجوه والأطراف والعيون والشفاه . وعلا الصياح الهائل المخيف . الصياح - الصوت : صوت أصوات هائمة متوترة وعديدة . صوت واحد ووحيد صار يملأ وجه الأرض . صوت الكون المرتاع الذي يلاعب السماء؟!

هَبّ الأخرش مأخوذاً . انتفَضْتُ أنا أيضاً : الصياح الهائل المخيف يقترب منا ، بعيداً . بعيداً جداً . يأتي من أقصى نقطة من نقاط الأرض . من الفج العميق . من البر الشاسع والماء . وأصخنا السمع بقوة : صوت هَوّاد . صوت أحمد . صوت الصيَّاح اللمّام . صوت العَجّبة النصرانية . وصوت ثوبها الطافح في الريح . والصوت الأجش الآخر؟! الصوت العديد الغريب المثير للشجن والحنان! صوت مَنْ ، هو؟ صوت الرفاق الذين خرجوا من أمكنتهم الشُهْب ، تواً . يرتدون بلا مبالاة أثوابهم الزُرْق العتيقة . وشعورهم السود المتربة تتطاير في الصُبْح!

صرنا نحث بعضنا بعضا : تعال . تعال - وبلا ضغينة ، تركتُ أكتاف الأخرش الملتوية ، وتركني ، هو الآخر ، وهو يخر ساجداً ، كله ، على القاع . صرنا ندور حولنا ، نستطلع الخبر الأكيد . من أتى بهذه الأحياء الغريبة ، من أنحاء الأرض الحمراء القاحلة ، الذائبة قيظاً؟ ماذا حدث في التجهيز وفي شوارع الحسكة الصهباء؟ وأثار عجبي ركض الناس الفَزِع اللاهث . الركض الواقف في المكان : ركض مستمر لا يؤدي إلى ناحية أو هدف أو عيان . ركض أعمى وأصمّ . آه! من يدفع بهم دفعاً ملعوناً هكذا؟ وصاحب صندوق العجائب الأعشى لماذا يهرول هو الآخر ، بين المهرولين؟ وهزني الأخرش ، فجأة : انظر! انظر جاركم الأعمى بياع المشبّك والقَضامة والعِلْك . ونظرت قسراً . اللعنة! سيسقط الآن في الماء . وكدت أصرخ ،

إلا أن ارتطام الجسد اللين بالماء القاسي قضى على الصوت فوراً ، وصرنا لا نرى إلا الطوفان : الأقراص الدسمة الشُقر فوق الماء تطفو . وركضنا سَبْحاً : أمسكْ يده! أمسك الرقعة الأخيرة والقرصين! الجسد الثخين المليء بالسكر والدهون ، جسد الأعمى الغاطس عمقاً ، نبغ ، فجأة ، من الماء .

بغضب شَدّ الرقعة الباقية وانتحى حالاً . انتحى حالاً وصار يعد : واحد . اثنين . اثنين . اثنين . وبغتة ، هوى في النحيب . لا ، لم يعد ، ثمة ، إلا دوائر الزيت تُرصِّعُ وجه الماء . وأصخنا السمع عميقاً . ودفعة تغالبنا : قرص أحمر أشقر لا زال معلقاً في الريح . فوق رأس الأعمى الغارق في النحيب ، تماماً على الغصن النازل في الماء . وفوراً سقطنا معاً ، عليه . وسقط القرص منا . سقط في الماء الأسمر الدافق . في أعمق نقطة من النهر ، عند قاعدة الدعامة السوداء القديمة . وبلا انتظار ، لَفَّهُ إعصار الماء العنيف ، وراح يسوقه بُعداً بُعْداً ؛ هذه المرة ، أيضاً ، خسرنا! هممتُ أن أزتَّ نفسي في الماء . أن ألحقه . أن أمسه . أن آكله في الطَلْق . لكن الأخرش الجهنمي أمسك بي بعنف : لا . لا! لا ، بعد فوات الآوان : كان الإعصار قد بدأ يلتَفُّ حولي أيضاً . كنتُ أغوص . بقوة أمسك بي وأمسكت به . سَحَلني على الأحجار والأنثار ، وانسحَلْتُ .

لم تدم الدهشة طويلاً . الآن ، صار الصوت الهائل يَرُجُّ الماء والأنحاء : نعيش احراراً أو نموت كراماً . وقعدنا نَنْهُتُ . يسحب

أحدنا ، نفسه ، من الآخر . فيرتعش من البللَ والاضطراب . الصوت اللاهب لم يعد مجالاً للغموض : يسقط الاستعمار . يسقط . يسقط . يسقط . ردد الحشد بقوة وحماسة . ردد مرات ومرات . وبين الهتاف والقذاف ، انطلق هتف آخر . انطلق كالرصاصة العلنية : فليحيا «أبو عمار(*)» شوكة بعين الاستعمار . وردد الحشد بشدَّة : يحيا! يحيا . يحيا .

نظرة على الحشد . نظرة على الماء . المُشبَّك الحلو ضاع . الأعشى المسكين ، وحده ، يبكي . يداه على عينيه . وجهه يختبىء مثل وجهه الهارب من الريح . تلَطَّخ جلده الأملس بالوحل والتراب ، وعلى رأسه حَطَّ غراب . نبهني إلى ذلك عمر الأخرش : إنْ مات كمداً تُفرِّقُ عجوزُه المُشبّك الباقي على الجيران ، غدا . لكن صوته الصغير ضاع في اللجة العاتية . لجّة الصيحة الحادة التي انطلقت من هنا ، ومن هناك . انطلقت من الأمكنة ، جميعاً ، مقاطعة ضوء الشمس الآخذ بالسطوع : «أمة العرب لن تموت وإني / أتحداك باسمها يا فناء»(**) . ومرة أخرى ، ضج الجمع الهائج صائحاً بانفعال . بانذهال . الأصوات هي الأخرى ، كانت تحتشد على الضفة ، وفي الماء . تتراكم في الوحل ، وعلى حواف الزفت الأرْقَط ، اللابس وجه

(*) «أبو عَمّار» ، كان لقب قائد الحزب الشيوعي السوري ، يومها .

(**) «أمة العُرْب . . .» كان الهتاف التقليدي ، يومذاك ، لفصائل «حزب البعث العربي الاشتراكي» في المظاهرات .

الناس . أصوات ، هي الأخرى ، تركض متسابقة ، متزاحفة ، تردد ما تردده الأصوات الأخرى بحماقة لا حد لها ولا ، ولا ، لا شيء . وكالمجنون ، أصعد طرف النهر المُتكَسِّر ، ركضاً ، حتى الصياح . وأقف على طرف الحديد العالي . الحديد الصدىء المقيم منذ القديم . حديد جسر الفرنسيين الذين عبروه جنوباً وشمالاً ، وفي الاتجاهين معاً . ويتبعني الأخرش راكضاً . فاغراً فاه : تعال . تعال ، نخُشُّ المظاهرة يا خليل . وأحبس كلامي قليلاً قبل أن أجيب . ويجرني جرّاً ، قبل أن أُتمّ صمتي : تعال تعال . وأظل واقفاً في مكاني . مأخوذاً بقوة الحركة وكمال هيئتها . منفعلاً بخطورة الصوت العام . قسوته وصداه . وتنهمر الدموع الصلدة دون إذن ، مني . الدموع اللعينة . دموع أبي الرهيف ، الذي قضى العمر بحثاً عن الرغيف . أبي الحكّاء البَكّاء . الذي قال لي ليلاً بعد ليل : العزّ في ظهور الخيل . أبي الذي ظل يحكي لي ، منذ أن بزغ النور في عيني ، كيف كان يسرق الجمال وحمولها . وكيف كان يبيعها في أسواق كركوك ونصيبين وديار بكر . وكيف كان يرد حقها للريح . ويجرني من جديد : تعال . تعال . ابتعَدَ الناسُ . ابتعدت الهُوسَة . الأصوات اختفتْ . سبقنا حتى الحمّالون! وأجرُّ نفسي منه : أين تراهم يختفون؟! المدينة الصغيرة ، هذه ، وحواشيها البائسة المملوءة بالروث والشوك والأبوال ، سوف يدورونها شبراً شبراً . ولسوف يصرخون في كل نافذة وكل ركن . وسيلحق بهم ، كما هي العادة ، جَمْع السقّائين وخيولهم الهزيلة والقصّابون المصابون

بداء الانتصاب المستمر وصِبْيَة المقاهي ذوو القدود العليلة والخدود المصبوغة وَرْداً وزعفران . وبلا انتظار ، دفعني وجرى : لَمْ يبق في الأرض مكان . المحافظ السمين وصل . قائد الدرك الرهيب كذلك . والقائمام الأصلع . أعوان السلطة وأشكالها والآخرون ، كلهم ، هنا . تعال .

كان كل شيء على ما يرام! الوقت ضحى . النوم جَفَّ منذ ساعات الفجر الأولى . الغداء قريب . الناس التي تأتي من أقاصي البر وصلتْ . النساء الآهلات انتشلن أجسادهن من هيئة النوم الثخين . الأساتذة في بداية الترقب اليومي . والطلاب يبحثون عن وسيلة لإعلان نفورهم العميق من المحيط . كل شيء على ما يرام . تعال! تعال .

وتلمع الشمس في عيني . تلمع الأحداث . والأشياء الأخرى الكثيرة ، المتراكمة بلا انتظام . الجمع الهائل يقترب الآن من السراي . أراه لمعاً : هذا هو المحافظ وهذا هو الـ . . ومِنْ هذا هو ، إلى هذا هو ، تستقر أخيراً عيني عليه . على النجوم الكتانية المصفوفة بإهمال ، وأحترق : أين هي الآن؟ إلى أي مكان خَلاّها؟ المرأة - الجهنم . امرأة الليل الأحمر ، المدورة مثل لفائف الطين . مَنْ لي بها الآن؟ مَنْ . وأضيع باحثاً بين أرجل الدرك والمارة وحفاري الحجر الأبيض المَسْلوق ، عنها . ومن الحضيض أتملّى الوجوه : وجهاً ، وجهاً . ومرة أخرى ، يستقر وجهي عليه . على الوجه الأملس الحليق . وأكاد أتقيأ . وأتقيا

فعلاً . ويجّرني عمر بقسوة : تعال ، نلحق بهم . تعال ، تعال ندخل الجمع ، يا غبي! وبتصميم غامر ، أسحب نفسي منه : لا . أريد أن أظل خارجاً . ومن بين الأعضاء الكبرى والصغرى ، يُلوَّح لي ، من جديد ، بزنده القصير ، داخلاً : تعال . ومن بعيد ، أهزُّ جسدي المستريب ، كله : لا . لا . وهذه المرة ، لا تدع الأصوات المختلطة مجالاً لحركة الذهن ، ولا لصوابه . أصوات غريبة ، تعبر الجلد ، فوراً . أصوات تختلف عمقاً ، وعمقاً تتحد . تغدو صوتاً واحداً ووحيداً ، صوتاً مخيفاً نابعاً من القلب ، صوتاً رجّافاً يُدوي مكاناً بعد مكان : يسقط الاستعمار . يسقط . ويَلُجّ الجَمْع : يسقط . يسقط . يسقط .

وكالبرق الجامح ينبثق «ملك» من الحشد . ينُطُّ فوق كتف «يعقوب» الذي يذوب عنفاً وحماسة . وبقسوة تذهل الجَمْع المتماوج ، من أوله إلى آخره ، يصرخ . يصرخ ، بصوته المبحوح ، الذي يغادر ، بصعوبة ، حنجرته الزرقاء المتورمة : فليحيا «أبو عمار» شوكة بعين الاستعمار . وقبل أن تلحق الراء الأحرف التي سبقَتْها يهجم عليه «هتلر(*)» وحنتوش وحسن والآخرون . وبسرعة الانغلاق يطرحونه أرضاً ، ويدوسون .

(*) اسم حقيقي لأحد طلاب التجهيز في الحسكة ، يومذاك . وكنا نلقبه بـ«هَتّوْر» . والمظاهرة التي انطلقت للتنديد بالإستعمار ، تحوَّلَتْ إلى صدام عنيف بين مجموعة الشيوعيين والبعثيين الذين كانوا على رأس المشاركين فيها ، والمحركين لها .

ويقابل الصياح صَيْحٌ أقوى منه وأشدّ . الجَمْع المستثار الذي انشغل عنفاً ، صار الآن يتلوّى . أطرافه تتداخل . قلبه يتكوّر ، مثل الدَحَل المقذوف . أوله يرتدّ . آخره يسرع ، كالفرس المضروبة . وأرى لمحاً وجه ملك ابن الأرملة غسّالة الثياب ، ينتقل ، خطفاً من قدم إلى قدم . وأكاد ألْمسُ الدم والفك الملتوي والحشا المقذوف من الجوف . وأريد أن أصرخ . وأصرخ ، عالياً : عباس! وتأكل الأصوات المجنونة صراخي . العالم كله ، صار كتلة من نار . وأنحني عنوة . أدلُسُ بين الأرجل والآهات . أريد أن أمسكه ، أن أجره ، أن أعطيه اللمسة الأخيرة ، لكن البصيرة قصيرة ، والرغبة لا تؤدي إلى مكان! صفوف الجمع المتلاطمة تردّني عنه ، رداً . تلقي بي بعيداً . تلقي بي خارجاً وبلا صواب . وأجد نفسي ، وحدها ، تتلظى في شظى القيظ والزوغان : ماذا حل في هذا المكان؟!

ومع ذلك ، يظل الذين يحفظون الهتافات عن ظهر قلب ، يتصارخون ، معاً ، وبلا انتظام . وتختلط الأصوات والهيئات عليَّ . وعبر الفضاءات الصغيرة المتناثرة بين الأقدام المتسارعة ، أرى الزحف العنيد المستمر : زحف الجسد الأسمر المهيب . جسد ملك القويّ الدافىء . في مسار ذلك الوجل والعَجَل ، تتوالى خيوط دمه القاني ، تدل عليه! تلحق به ، أينما راح . دم ملك الذي هلك . ملك الذي حملَتْه ، فيما بعد ، أمه الصغيرة ، ذات الأطراف الناحلة ، والهيئة القاحلة . بلى!

حملَتْ جثته الملفوفة بشرائط حُمْر بَرّاقة . حملَتْها على أعمدة من المرمر والريح ، ومشت به المدينة ، كلها ، وهي تصيح : قتلوك يا ملك ، قتلوك . ومن ورائها يردد الصبية المجانين ، صبية الحي الشرقي البله : قتلوك يا ملك قتلوك . وبين الصوت والصوت ينبثق دائماً صوت آخر : ناكوك يا ملك ، ناكوك . وترتد الأرملة العجفاء ، كالأفعى اللذّاغة ، تبحث ، عبثاً ، عن مصدر الصوت . تبحث . تبحث ولا ترى إلا أوجه السكان الحمقى المزدحمة بالعرق والدسم والصنين . وبعد أن تتوقف برهة ، تقذف صوتها في الهواء الطلق ، ومن ثم تلتقطه فرحة وحزينة معاً : تعال يا ابني تعال . ويضجُّ الرَّبْع حولها بالهتاف : سننتقم لك يا ملك . ورأساً ، تضيع صيحة الانتقام في خضم الشعار المريب . الشعار الذي يستوجب إرسال شعار آخر ، إلى آخر النهار .

وعبر الشعارات المزحومة ، أرى الطيز العجفاء السحيقة ، طيز أم ملك الذي هلك . وأرى كذلك بقايا ثدييها الضائعين تحت الثياب العتيقة ، ثياب السادة والمخاتير . ها هي ذي تناديني بعينيها الساهمتين : تعال . بلى! أم ملك المضروب الذي لن تجلب له بعد اليوم من ثياب السادة بعضها ، ومن جواربهم بعضها ، ومن كلاسينهم أيضاً . وأيضاً من أحذيتهم بعضها . والذي لن يمر ، كما هي العادة ، لابساً ألبسة بَرشاء ، متفاوتة الضجة والألوان . ألبسة تثير الضحك والبكاء معاً . لا ، لن

يصرخ ، من جديد ، في الجُملاء والمتظاهرين ، مُنددا بكل ما يحيط به من المحيط إلى الخليج ، رافعاً شرائطه الحُمْر القانية ، ومُطلقاً حيناً بعد حين صرخته الشهيرة : فليحيا «أبو عمار» . لا! ولن تركله الأرجَل بعد الآن . ولا الأقدام تدوسه .

كل شيء تغير اليوم ، يا ناس . ملك يضيع في قلب الجَمْع الهائج . إلتمَّ اللاموم عليه . وعليه هجم الهاجوم . وفوق صوته الذي انكتم قسراً ، علَتْ أصوات بغيضة : أصوات الترديد والتحديد . أصوات التبرير والتقرير . شيء مختلط ورذيل كان ينبعث من تلك الهيئات والأصوات . شيء نتن ، مثير للقرف ، والنفور ، يجعل الدم يفور . في ذلك الصخب المقيت ، أميل عليه . لا! يميل هو إليَّ . لم يعد لملك وجه . لم أعد أرى منه إلا الكتفين العريضتين تلوحان مرة هنا ومرة هناك . ويختفي القيء والصوت الذي لم يغادر ، حتى الآن ، حلقي : ملك مات . ملك مات! لا ، لم أكن ، لم أعد أرى ، ولا أسمع في الجو إلا الكلام يتلو الكلام : هجم الشيوعيون يا شباب . هجم البعثيون يا شباب . ويردد المرددون من الجهتين ، ومن الجهات الأخرى معاً : هجموا . هجموا . هجموا . هجموا . هجموا . هجموا . هجموا .

وفجأة يتخَلْخَل الجمع . يتفرق . يغدو شتاتاً فوق شتات . أقدام تركض شرقاً . وأخرى تركض غرباً . أعضاء واجفة . وأخرى خائفة . هيئات تتهيأ للتقدم ، وأخرى للتأخر ، دون أن

تبرح المكان .

ومع ذلك ، تخلو المدينة من البشر والأنس . ولا يبقى في الساحة إلا الجسد الثقيل ، جسد القتيل المنهك : جسد ملك الذي هلك . فوقه ترقص أمه . ترقص رقصة المسامير . ترقص . تنوح . تتملّى عينيه الباهتتين بلا ملل . تردد باستمرار وبلا قاعدة : ملك حياتي يا ملك . لوّعْتَ قلبي ، يا ملك . ترقص وتصيح عافِصَة في الريح : ملك يعنّ ، ملك يحنّ . وأسمع لأول مرة منذ دهور ، صوته العتيق الطالع من أعماق الصدر المتهالك . آه! يا أهل اللعنة! ملك يحكي؟ لم يمت ، بعدُ ، ملك! وأزتُّ نفسي على التراب ، صائحاً بانفعال . بانفعال . وكالبروق تتخاطفه أيادي الرفاق الذين تدفقوا فجأة كالزنابير . وأكاد أراه يتحسس هوّاد وسُكّر ومَلْكوُ وياسين وأحمد وسِنْحاريب(*) .

(*) كانت «الجزيرة السورية» التي هي القسم الغربيّ الأقصى من «الهلال الخصيب» ، منذ فجر التاريخ ، مسكناً للكثير من الأقوام والإتنيّات والديانات القديمة . وفي تجهيز الحسكة ، مثلاً ، أثناء فترة الرواية ، كان الراوي هو البدويّ الوحيد بين طلاب من إتنيات مختتلفة مثل «عمر الأخرش» الكردي ، و«مَلْكو» الكلداني ، و«دنّحو» الآشوري ، و«كيفاركيس» الأرمني ، و«بريخان» السرياني القديم ، و«سنحاريب» اليزيدي (من عبدة الشيطان) ، وكان ثمة «النَسْطوريّ» ، والمُحَلّمي ، وآخرون ، وآخرون . هؤلاء ، كلهم ، كانت السياسة هي التي تجمعهم ، أو تفرّقهم ، دون أي نزعة طائفية أو عرقية ، يومذاك .

يتحسسهم واحداً بعد واحد . يتعرف روائحهم وأعضاءهم . يسمع خرير أصواتهم . ويكاد يهز لسانه العريض : فليحيا أب . . . وقبل أن يتم الجملة يسقط في الغياب . يسقط جامداً ورصيناً . وبهدوء شاحب ومخيف ، يتجمع الناس حول الجسد - المَشْهَد خُلَطاء . خُلَطاء من أعداء وأصدقاء . أمه الصغيرة ، ذات البصر الكليل ، والهكيل القليل ، وحدها تظل تُدمدم : الدم . الدم . الدم . الدم . الدم . الدم . وهو يستلقي ، بفخر واعتزاز على الأكتاف . مَلْكْ ينام . مَلك مجروح . ملك مذبوح . ملك مغدور . ملك منذور . ملك هلك . يا أهل اللعنة! يا كلاب! ملك غاب . ملك غدا تراباً . ولكن مَنْ يسمع النَوْح؟ من يسمع البَوْح؟ الناس كلها تتملّى الهيئة المفتولة الزعلاء : هيئة ابن الغسالة . هيئة ابن الموت . وبتصميم ، أرسل صوتي : حاداً . عنيفاً . فارعاً . يخترق الحشد من أوله إلى آخره . يلامس الجسد المسجى بلا حراك . لا ، لم يتحرك ملك . ملك لم يعد يسمع . لم يعد يرى . لم يعد يقول . يا أهل اللعنة ، مات ملك . صرت ألحق صوتي . أريد قَطْع البر والأحشاء ، علني ألتقي عباس . عباس الذي سرى ليلاً منذ ليال طويلة . أبو جديلة ، عباس . وقبل أن يخترقني الفضاء ، الذي لم يعد مضاء ، لامست كتفي يد «هوّاد» : تعال ، راحوا يدفنون ملك . وقبل أن يرتد صوتي إليَّ ، جرّني جرّاً ، وراح يركض بي : أخذوا ملك على المقبرة ، يا غبي! وهتفتُ في التوّ : المقبرة؟! إيْ ، مقبرة المسيحيين . المقبرة البيضاء الجميلة ،

ذات الحيطان العالية . مقبرة «اسّو» بأزهارها الميتة المملوءة نَفْطاً وعُطوراً صَمّاء تثير الغثيان . وكررت الكلام ، وأنا أتابع الركض قسراً : المقبرة؟! لكنه لم يمت بعد يا هواد؟ لم يمت بعد يا قواد! بعنف ، زَتَّني هواد في القاع . ووقف فوقي كالتنين : ابن القحبة ، المرة القادمة!

كان يرتعش ، كله . وكنت أرتعش . حفَزْتُ وحفَزَ ، هو الآخر . صرنا نقترب ركضاً ، ركضاً ، من الحقول البعيدة المترامية الأطراف . الحقول المختلفة الألوان ، الممتدة من جوار الدور إلى مبنى الكرخانة الغربية ، حيث تقع المقبرة والكازية وبيوت الغجر ونثار القمامات والأبوال وخراء العابرين! ملك في المقبرة؟! كنت أردد . وأركض . وأبكي . وأحكي . وأركض وأردد : لا . لا . لقد رأيت ، منذ قليل ، رأسه يتحرك بين الأقدام الهائجة . ولمحتُ أطرافه القوية ، مثل قوائم الثور المذبوح ، تتشنج في الحضيض . وبعينيَّ هاتين ، رأيتُ دمه الأحمر القاني يفور : دم غزير ورجّاج . دم التنين المرسوم على مدخل الكنيسة؟! يا عيسى! بلى ، رأيت ، أؤكد لك ذلك ، كل حركاته : حركة الموت الأولى ، والحركة الأخيرة للحياة . لم يرد عليَّ هواد . هذه المرة ، قادني صمتاً! كان الهيكل يعبر شارع القامشلي الطويل ، من الجنوب إلى الشمال . يعبره بصمت وتصميم . على الوجوه كآبة وقسوة وارتباك . ارتباك . غامض ، مملوء بالتهيّب والإحباط . آه! مَنْ أخذ الفرح الصارخ من هذه القسمات؟! ولِمَ

تبدو الأيادي قابلة للحركة وللشلل ، معاً؟ والعيون لا فارغة ولا مملوءة ، بل جوفاء . جوفاء مثل عيون الأفاعي التي تريد أن تعبر الماء! كدت أسمع الكلام الذي لم يغادر مصادره الأولى بعد . الكلام الخارق ، الذي لا يعبّرُ عن شيء محدد ومع ذلك يعبر عن كل شيء : كلام الاستياء العميق . إلا أن هواد جرّني ، بقسوة ، من جديد : أركض ، أركض ، لسنا في نزهة ، يا غبي .

كانت البلكونات مملوءة بالنساء . نساء الحسكة الظبيات : النساء – الخِبء ، النساء – العِبء . نساء فوق نساء فوق نساء! عيون شيطانية تتقَصّى الرائح والآتي . ووجوه محرومة ، توحي بالشبق والإنبهار . اللعنة! لا مسرة على هذه الوجوه . لا متعة . ولا حنان . قهر قاتل ومستبد يتجلى فيها منذ أن تقع العين بالعين! وحصارها حصار لا خلاص منه : حصار الرغبة للرغبة . لكنهن ، مع ذلك ، يبكين . يا ناس!

وهزني هواد : نحن في جنازة ولسنا في عرس ، يا غبي! وبالفعل ، رأيتُ دموع النسوة المَخْتومات تبلل نواحي البلكونات العالية . دموع مدرارة ، تختلط بسيلاناتهن الأخرى التي تزداد حدّة وبهاء ، كلما استدرنَ عارضات ، عمداً ، أوراكهن الرائعة الشكل والتصميم : الأوراك المملوءة بحرارة الشمس الحارقة ، المختزنة منذ سنين . وكالمجنون هززت هواد : انظر! ملك يتحرك . ملك حي . وبقسوة سدَّ فمي سدّاً : أسكتْ يا غبي . وانفَلَتُّ ، أصيح بأعلى صوتي ، رغم سدّه

المحكم : ملك حي ، يا شباب . ملك ما مات . لكن الصياح الهادر الذي انطلق بغتة ، وفي الوقت نفسه تقريباً ، ضيّع صوتي : صياح الجمع الصامت الذي ملّ صمته . ومحل الدموع الخرساء ، المتساقطة من عيون النساء المسعورات ، حلَّ صوت لمّاع ومترجرج . صوت لامس حرارة الشمس التي صارت الآن فوق حد الاحتمال : هلاهيل حادة ومتوترة ، صارت تنطلق من كل فضاء .

صرت أصرخ : يا ناس! سيدفنونه حياً! سيدفنونه حيّاً! ولكن أين؟ ولكن! عجباً قبل السور الأسود الجميل ، سور المقبرة الرخامية الأنيقة . مقبرة إسّو الشهيرة ، ذات الأبنية الرمادية الهائلة ، والقباب البيض الساطعة ، وأصص الزهور الملونة ، قبلها تماماً ، كان يقف صفٌّ مانع ومهيب من الحرس والعسس والطواحين : صف السادة ذوي الأخلاق الحميدة ، والألبسة الجديدة . يتوسط ذلك الصف ، الذي حال بين الميت وقبره ، زِلْم ابن جليوي . زِلَم ابن الكلب .

مرارة فاجعة ملأت الأنفس والأحشاء . الهمهمة المنطفئة صارت ، فجأة ، قوة وتحدياً : اكسروا الباب يا شباب . اكسروا الباب . وبقسوة لم أر لها مثيلاً ، من قبل ، هَوت القَبْضات الحاقدة على القضبان . وملأ الجو شعور عاصف وغريب . وبغتة ، بدأت العاصفة : انشقّ نهر «جَغْجَغْ» الآسن . ومن طَيّات الطين ، خرجتْ . خرجَتْ عَثْرَة عثرة . ومع الماء والغسيل

الذي لا زال يسيل ، جاءت . صمت . انبهار . حركة موزونة . انفعال مكبوت . خوف أسود غريب . رغبة عنيفة في الانفجار . مزيج من الاستياء والاحتقار . بكاء خفي ، دمدمة . أشياء أخرى كثيرة ملأت حنايا الجمع . الكلام الخافت ، وحده ، ظل ينتقل بإجلال : وصلت أم ملك ، يا شباب . وكاد الصمت المهيب أن يتحول إلى ضجيج سخيف : أم ملك ، يا شباب تريد أن تحكي . أم ملك الغسالة ، التي خرجت من الماء الموحل ، تواً ، صارت تتملّى الأحجار والأشجار . تنفض عن نفسها آثار الغسيل . تلقي بحملها الذي أنقض ظهرها . تجول في الأركان والمكان . ومعها ، تجول الرهبة والصمت . بلى! شيء من التردد العميق ، والارتباك المعمم ، أصاب كل شيء ، حتى باصات النقل العائدة من عامودة ومن الدرباسية والقامشلي أصابها ذلك . وبالفعل صارت الباصات العالية ، ذوات الهياكل المجروحة ، تتوقف الواحدة منها لصق الأخرى ، مذعورة . وتوقف ، هو الآخر ، جمع الآشوريين الذين وصلوا أطراف المدينة ، للتو . توقفوا ، وعيونهم السود المرتعشة تتطلع عجباً . تتطلع مع العيون الأخرى ، إلى جذع الشجرة الوحيدة التي تقف خارج السور . وفجأة ، اختلطت الرؤى ، كما اختلطت الأصوات : أم ملك وقعت يا شباب . لا ، لم تقع . بلى . وقعت . لا . بلى . ماذا قالت؟ ماذا تقول! آه! ها هي ذي تتشبث بالخشب والحديد ، وبتصميم تصيح :

لن تدفنوه .

صمت طويل .

لن تدفنوه مع الأعداء .

صمت طويل .

قبره عندي في ساحة البيت .

(٢)

ذلك النهار القائظ الجميل ، انطلقتُ راكضاً حتى الموت . وبشدة لا مثيل لها ، عبرتُ الحدود شمالاً . ومن ثم جنوباً . جنوباً ، حتى الانهيار . كان قد مضى على قبولي في التجهيز ما يقارب العام . وكنت لا أزال حافياً ومخيفاً . يومها ، ركضت كالثعلب الخائف وحيداً ، عابراً كالصعق . عابراً وجه الماء والأرض والأحياء . اللعنة! كيف تغير العالم فجأة . وفجأة حل الخراب؟ كنت أصرخ وأنا أعبر شوارع المدينة الصلعاء الغبية : مدينة الحَسَكة الجرباء . ومن آن لآخر ، كالجدي أنطُّ . أنط ناعقاً كالزرزور : ملك مات . أُنطُّ حاقداً وعنيداً . ومع ذلك ، ظلوا يصطفون كالأرانب ، واحداً لصق آخر . عيونهم مُنْهَكة . وجوهم حدباء غريبة . لحاهم تهتز كلحى المعز في القرّ . وأيديهم تتهاوى مثل أيدي المصابين بالشلل العضال .

من المحيط إلى المحيط ، عبرتُ المدينة المتوترة مثل جلد الدف المشموس . لا! لَمْ ينتظرني «إبراهيم»(*) ذلك اليوم .

(*) والراوي ، أحياناً ، يسميه «بَرْهو» تَدْليلاً .

كالمسعور بحثت عنه ولم أجده . الجوع واليأس يأكلاني أكلاً . أكلاً . أين اختفى إبراهيم؟ أين اختفى الجربوع القمّاز اللَمّاز . وقبل أن يرتد الطرف إلى الحرف ، كان الصراخ يتلو الصراخ : المقبرة خربت . هدّوا المقبرة . المقبرة البيضاء النظيفة امتلأت لؤلؤاً وصراصير . الجرذان التي كانت خاتلة في القاع انبجست فجأة كالماء المقهور . صارت تفور ، راكضة ، وتفور . ولكن أين اختفى إبراهيم؟! قال سيجيء اليوم . سينتظرني أمام الباب ، حاملاً ، أرغفة شقراء بهية من فرن ابن مَلْكو . ومع الأرغفة علبة بيضاء من التنكِ اللَمّاع . علبة مربعة أو مستديرة ، مملوءة بجريش حلو أبيض أملس المذاق : جريش الحلاوة الحلبية الممهورة بخاتم أمهر الصناع . لا . الجوع القاتل الذي ملأ أحشائي لم يعد يمهل . والدمع الذي انحبس دهوراً بدأ يصول ويجول : الحلاوة الشامية الناعمة ، ذات الرائحة القرنفلية ، والوجه الزيتي المحبب ، هل تصل؟ يا ناس!

ومثل البرق ، أقطع الكربلاء ، من الألف إلى الياء . كربلاء مدينة الحَسَكَة الساكنة الحزينة . أقطعها قطعاً . أبحث عن «إبراهيم» . عن أرغفته الحمر الموعودة . عن علبة الزبيب ، لا . لم أجد أحداً في الوجه ، سوى أشجار السرو الباسقة ، وخطوط الحور الأبيض الريان : حور «مهشوش» ذي اللغدين العضلين والعينين البراقتين ، والبطن السمين . مهشوش القرنفلي ذو الأردان الواسعة الأركان ، المحملة بالتبغ ، والشفتين الشقراوين

النديتين ، باستمرار .

اتبع النهر إذن . اتبع النهر جارياً ، كالرصاصة ، حتى البيت . نهر ابن الكلب ، هو الآخر ، يبدو غَشيّاً ورهيباً . به لؤم قديم لا يزول : لؤم الماء المنهوب . اتبع النهر الواقف في القاع ، حتى البيت الواقف على شفا هارية أو يكاد . بيت الزيت والحيلوان . إلى البيت إذن ، إلى البيت ، أصير أركض جنوباً ، صاعداً خطوط الأرض العَشْباء المليئة بالمقت والنفايات وخراء البشر والدواب ويَبَسِ الكلاب النافقة المزتوتة هنا وهناك وأكوام الزبل الأسود المنثور . اركض! النار مشتعلة في البر . الميت ينتظر الدفن . والدفن ممنوع . الناس واقفون وأنا أركض باستمرار . أركض طَرْداً بعد طَرْد . خَلّيتُ «ملك» ملقوحاً على القاع ، بعد أن هلك . ولكن أين اختفى عباس؟ أين ذهب «إبراهيم»؟! أين؟ وأظل أجري لاحقاً بالنهر الذي لا يكف ، هو الآخر ، عن الجريان : النهر الصامت المنكوب وأكتشف ، بعد لأي ، أن العبور مستحيل . كان الجسر بعيداً هذه المرة . بعيداً وخالياً من الحياة . الشرطة ، وحدها ، تمر بكبرياء وصلافة عليه . شرطة محملة بالسلاح . تلبس ألبسة غريبة ذات ألوان فاقعة مخيفة . بأيديها أشياء كثيرة تثير الحقد والرهبة في النفوس . كيف الوصول إلى البيت ، إذن؟ كيف؟

أزتُّ حالي في النهر العكر الملعون؟ أقطع الماءَ سبْحاً ، سَبْحاً؟! لا . أقترب من العين الهمجية المخيفة ، ومن الأيدي

الصلبة المثقلة بالأسلحة ولوازمها . أقترب ، علّني أمر . لكن الصوت اليابس الرَجّاف يصلني من أقصى المسافة : ارجع يا كلب . ارجع . النار تنبثق من العيون . والأسنان تكشر باحتداد ولؤم . الموت الذي أصاب ملك قد يصيبني الآن . أتقدم . يشتد الصراخ . أتقدم أكثر فأكثر . أكاد أصرخ ، أين اختفى عباس؟ أين ذهب إبراهيم؟ أين حط أرغفة الخبز الموعود؟ أين؟ أين؟ أتقدم من الموت . أتقدم من القوت .

فجأة ، يخرج الناس جميعاً . ناس الحكومة المرموقين . ناس البر . ناس الدلالين والمهربين والبياعين وحَمّالي أكياس الحنطة الصُلفاء وفحول الكراسي الخيزرانية المصفوفة أمام المقاهي باستمرار . الناس . الناس . كلهم يخرجون! والحربة البيضاء الحادة اللامعة تقف على الحافة . حافة الظهر والفقار . حَرْبة الشرطة جميعاً . الحرابة . حربة واحدة تكاد تبقر البطن العاري . البطن الجائع الذي يكاد يسقط من شدة الموت . وأقول للحربة الواجفة : أريد أن آخذ خبزي . خبزك يا عرص؟ تضحك الحَرْبة البيضاء . تضحك بلئامة وسخرية ، وهي تقترب من جلد الأحشاء المضمورة . وأردد بيأس : أيْ خبزي . أريد أن آخذ خبزي . خبزي المدفون هناك في القاع . وتردد الحربة بتوجس واستياء : خبزك مدفون تحت الجسر يا عرص؟ ارجع يا كلب . ارجع حالاً وإلا . . .

الجسر ، يا رب الجسر . الجسر المعدني القديم الذي يخفي

أكلتي اليومية : رغيفي . لا ، لن آكل اليوم خبزاً؟ أعود إلى الشمال إذن ومن ثم إلى الجنوب . الشرق بعد ذلك ، حتى الماء . أمر بالشوارع اللعينة من جديد . ومن جديد أرى وجوه البشر البليدة . الوجوه - العصيدة . وجوه أكلة البَصْطِرْمة والشحوم الميبسة واللحوم المقددة والمصارين : وجوه الناس ، الذين اصطفَوا ، قبل قليل ، متفرجين . والذين ، لا يزالون يقفون ، مثل الموتى ، واحداً لصق آخر . ينظرون بلا اهتمام إلى هذه الناحية ومن ثم إلى تلك . ينظرون وهم يلوكون لُقَمَ الكباب المشويّ بالخضر والبهارات الحادة والبصل البري : كباب الحسكة العظيم ، الذي لم أذق له طعماً أبداً . يا ناس!

أغمض عيني وأركض . أركض . الجوع يقتلني . أركض ، الحزن يقتلني . الحراب تحاصر الجسر . العبور إلى المكان صعب ، مثل الرجوع إليه . الماء إذن؟ الماء؟ وفعلاً أخُشّ الماء . أقطع الأرض سبحاً سبحا . أتناول الجَال العالي ، الخالي . الناس جميعاً يتفرجون على الجسر : الهَجّانة والدرك والشرطة والجيش وشرطة الجيش والمخابرات المدنية والمخابرات العسكرية والجواسيس والجواسيس - الضد وممثلو الحكومة العلنيون وغير العلنيين ، والسريون والمكظومون والكاظمو الغيظ والمخاتير والمحسوبون ورؤساء الهيئات والقضاة والمعلمون والمتعلمون وأعضاء البلدية والموظفون والأُذّان والمصلّون . الناس ، جميعاً ، كانوا هناك . أطلب العون ممن؟ أغرق! وكالنمرة تقتحم

«سلطانة» المكان . تحدقني بعينين مذهولتين . ثدياها يرتجفان بعنف وقسوة ، كأنهما يحتجان على هبوطي الماء . أمدّ يدي؟ لا أمد يدي؟ أغرق . أذوب . أصير ، أنا الآخر ، ماء . يشربني البشر والحجر . أروي الذُرو(*) ونواحيها . أروي القيعان الصفصفاء . أروي الحماد والطرش والحيوانات . أروي مع الشيح أشجار القَيْصوم اللاصقة بالتراب الظميء . أمد يدي . تمد يدها ، بتصميم . تتناول الذراع الخاتلة تحت الجال . تنتشلني انتشالاً : أطلع يا خليل . الدنيا خربت . اطلع قبل أن تسحبك الماء . النهر جاء . اطلعْ! اطلعْ! وأطلع مبلولاً . تتدلى أشيائي وأعضائي : أحدها طويل لاصق بالجلد . والأخريات ملمومة ملجومة .

الرجفة التي تركتني ، ركبت «سلطانة» . اهتزاز عنيف مفاجيء صار يعبرها من الطرف إلى الطرف . أي شيطان أحمر شَيْطَنها الآن؟ تعال . تعال أدُفّيك . وصلنا . كانت تردد . وصلنا؟ صرتُ أتساءل . الجوع الذي دفع بي إلى الماء ، جوع العساكر والدساكر تبخر فجأة ، وغاب . كنت أريد أن أصل فوراً إلى البيت . أن أرى وجه أمي القديم : الوجه السراب الذي

(*) «الذُرو» ، سهل الحَماد الشاسع في «بادية الشام» ، إلى الجنوب الأقصى من الجزيرة ، حيث وُلِد الراوي ، وعاش فترة طفولته وشبابه متَرَحِّلاً مع عائلته البدوية ، في تلك السُهوب .

ظللت أراه سحاباً . وجه المرأة التي تقدر على فعل كل شيء : الود . الحركات القصوى . اللمسة السحرية على الأطراف . العطفة المتواطئة . الدحرجة البيضاء المتتابعة من العين الناشفة حتى القليب . أية امرأة شرهة أجد ، الآن ، لصقي؟ امرأة يا بايخ؟! أنا سلطانة يا خليل . لم تعد تعرف سلطانه؟ يا اللّه المية جننتك! تعال أُدفّيك . تعال . وصلنا . وصلنا! وبها ، كلها ، أحاطَتْني من الذراع إلى الذراع . آه! أي خبب يقودني الآن ، بمثل هذه السرعة ، إلى الموت؟! ارتجفت ، من جديد ، وهي تحيطني علماً بوصولنا المفاجىء . لا ، لا بد أن تكون ، قد ركضَتْ من الحضيض ، من قاع الجفْر الكبير ، الغارق بين الدور العتيقة ، حتى الماء . الماء الهائج الذي يجرف كل شيء : الأسمال ، والأزبال الملقوحة فيه منذ الصباح ، وأحشاء الحيوانات المذبوحة على قارعة الطريق ، ودماءها السائلة حُمْراً صفراً سوداً ، والنباتات البرية ، وأي شيء آخر . لا . لا بد أن تكون . أن تكون .

أن تكون ركضَتْ خلسة ، بين الدور حتى لا يراها أحد ، وقد رآها الجميع : عريف الهَجّانة البدين . «وأم صطيف» الفحلة ، بياعة الفجل والفلفل المَكْدوس . والأعشى بياع المشبك العَفن . والحَوّاج . والآخرون الداشرون ، المنتشرون كالذباب ، في كل مكان . «سلطانة» من أين طلعتِ يا سلطانة؟ هتَفتْ بها أمي!؟ من الميّة يا عمّة . من الخابور . من

تحت الجال العالي . جالَ السماك . وملأت الدهشة نفس المرأة الظليلة : تقولين خليل؟! صمت قصير طويل . حشرجة خاسرة . شيء يشبه الموت المفاجيء . فتحت العمة قلبها ، وجثت هامدة في الأرض . عيناها قد فرغتا من الضياء ، تماماً . بنظرة نارية كانت تحدق في سلطانة ، آمرة إياها بالسكوت . وتمتمت سلطانة : يا عمة خليل جوعان .

وتبدل عُبوس العمة ابتساماً خفيفاً . وفجأة ، تَحرَّقَتْ كَتومةً ، خارجة من الكيان والمكان . أخيراً سلطانة وأنا والحر والخلاء والجوع وقَرْص الماء الدافيء والدغدغة العميقة المكفهرة في الأحشاء : دغدغة النَشْل المبلول والتصاق الجسد المائي بالماء .

اختفى الجوع القديم الخارق للحجاب ، ومحله ، حلَّ شبع جواني عنيف . شبع متوتر مهووس . شبع لم أشعر به من قبل! صرت أحس أن بطني منتفخة من كثرة ما حشي بها من آلام وآمال وأطعمة بهقاء عفنة ومقيتة . اللعنة! من أين جاءني ذلك الشعور المثير للرغبة والغثيان؟ ومَنْ حَطَّ النار الملتهبة في جسدي وعيني؟ وظلت سلطانة واقفة بالباب . ادخلي يا سلطانة . لا . ادخلي . لا . لا أدخل . أدخلي ، جررتها من زندها الممتلىء الرطيب . من النهدين والخاصرة والأفخاذ . بلى ، ادخلي ادخلي تواً . تواً .

ولم أدر أنني كنت أجرها بقسوة وانفعال . وأحسستُ ،

أحسستُ من جديد ، بثدييها النافرين يصدمان صدري بقوة وانتهاك . احمرَّ خداها . وامتلأت شفتاها دماً ، من الدم الصاعد إلى القاع . وأنبتَنْي : لماذا تجرني ، هكذا ، كالمجنون ، ها! وأجرها . وتجرني . ولا أجرها . وتجرني وألتهِمُ الشفتين المحتقنتين بالعسل والرمان . الشفتان اللعينتان المليئتان دماء وحفراً وانتباجات وصخوراً وأموراً شتى ، التهمتني . آه! من يحبس هذا العالم المختلف الطائش في مثل هذه النُحيّة من الجسد؟ مَنْ؟

وأحس طعم الدم الثاقب يتسرب في دمي كالسهم . يُخدِّرني من الركن إلى الركن . - الدم - الاسم . أتسمم حقاً . يفور دمي . جسدي ، كله ، يهيج . يهيج من المحيط إلى الخليج . وينتشر جسدها البض المكوّر مثل حبوب الرمان المبثوثة في الفضاء . يتشَذّى ويتشدّق . يفغر فاه . يكاد يمضغني . آه! هذه البُنيّة ، هي الأخرى ، مسحورة؟! بلا ريب . هذه هي عانتها الصغيرة المنتبجة تلاصق . ترتمي . ترتصُّ عليَّ ارتصاصاً . وبطنها الضامر ينتفخ . يتورد . يملك مساحة بطني كلها . ووجهها على وجهي . وأبحث بقسوة عن النهدين . عن جلدهما . عن ملمس مباشر وأكيد . أريد أن أعبر الثوب ، ولكن كيف؟ الزيق مخيّط بعناية وإتقان : زيق العذراء الصمود ، بنت أبيها البكر .

وألتوي حولها كالعربيد . أريد أن أمرَّ مرور القوة والالتصاق .

أريد أن أحس . أن أشم . أن ألمَّ . أن أعـــرف الكيف والكم . ولكن كـيف؟ ولكن كـيف؟ وقـبل أن أرتدّ ، أحس بصـدرها يتـراجع ، منخفضاً إلى الوراء ، فاسحاً ليدي في المجال . يدي التي انزلقت بلا إبطاء : رؤوس الأصـابع أولاً . ثم الأصـابع . فراحة الكف . فالرسغ . فالمصمم فالقضيب . القضيب الذي بدأ يطيب . وأحيط دفعة بالنهد . النهد الأيمن ، أولاً . ومن ثم الأيسر . ومن بعد ، كليهما معاً . أي شيطان رجيم يسكن هذا الجسد البري الأرعن؟! ولماذا تكاد البُنّية أن تموت؟ ها هي ذي يغـمى عليـهـا . ومع ذلك لا أنفَكُّ أدْعَكُ النهـدين ، بكل مـا أوتيت من حـقـد وقـسـوة ، وأنا أتمتم : ملك . ملك . ملك . أنا أيضاً ، أكاد ، أكاد أسقط على الأرض! لا أسقط . وتسقط هي حقاً . وأرفعها بتصميم ، إليّ . وتعود تستقط بارتخاء . وأسقط أنا الآخر . أسقط ، لابساً فضاء هيكلها الجميل . آه! لأول مرة أدرك كنه الجسـد ومعناه : ملمسـه . مـداه . عـمـقـه . مـادته . قوامه . حدوده . حركته الجوانية . طراوته . قساوته . سيلانه . ولمعانه ، يا ناس!

وفجأة ، يغيب الميت . ويركب الجسد الذي كان مُسَجًّى ، ريح من الشبق والعنفوان . الجسد المغلق ينفرج كله ، انفراجاً : جدائل الشعر . العينان . الحاجبان . الشفتان الرَضيَّتان . الفك والقص وملتقى الأضلاع . ما فوق السرة . وما تحتها . شعر العانة ، وما يحيط بها من أنحاء . ويستمر الانفراج هابطاً حتى

القـدمين . ولكن ، لماذا خـالط ذلك الانفـراج العظيم تلك اللجاجة المنفرة المخيفة : خلّني أروح . خَلّني أروح . أروح أجيب لك خبزاً . لا . لم أعد جائعاً . لا أريد أن آكل بعد اليوم . أريد أن أموت . أن أموت . فهمت؟! تريد أن تموت! تريد أن تموت؟! الصدمة بعد الصدمة ترميني . ولعة ، لمعة ، تتسلّط الريح عليَّ : ريح التَنّور المنتشرة في الروح . ريح السموم الأسود الحرّاق . وبيديها كلتيهما تدفعني على الأرض . وأراني أتطوّح ، كالثمل العتيد . ألامس التراب بفقاري . ويرن رأسي رنيناً عالياً . عالياً حتى السقف . وأنلقح طولاً وعرضاً . يداي تشدّان صدغي شداً ، علامة الانهيار . لا . لم يبق في عيني سوى الظلام . العالم ، كله غائم ورديء . الماء والطين والحنين والرغبة الفخارية التي انكسرت وشهوتي الملعونة التي انحدرت من الأعضاء والأحشاء والجوع والعطش والخوف والحياء . منذ متى كانت هذه الحاجات اللئيمة تبثُّ سمومها القاتلة في أعماقي؟ وكيف؟!

وأكاد ألمح ، في غمام ذلك المحيط الخائب ، وجه ملك الذي هلك . وقبل أن أصيح ، تصيح روعاً : رَمَتْكَ وانهزمتْ؟! وأرى البسمة الصغيرة المحبوسة تنوش الشفاه المليئة دون أن تغادر القلب . تبتسم وملك مات؟! ولَمْ أدر كيف صرتُ أصرخ من جديد : جوعان يُمّا جوعان . ورأيتها ترتدّ إلى نَفسها ، ملأى بالحزن ، والكآبة والقهر . تقف إزاء جوعي المزمن عاجزة ،

محطمة القلب والأعصاب . لا تقوى ، حتى ، على تلبية أدنى حاجاتي ، وأقلها شأناً . من أين لها الخبز الذي أريد ، والعالم لا يحوي إلا الدرك والهجّانة والعجاج والدجاج السارح في كل مكان . دجاج ابن جليوي . دجاج ابن الكلب؟ ومع ذلك ، تروح تمشي الهوينى ، وهي تقول : رايحة اشعل التنور . أخبز لك خبزاً جديداً . بسْ اصبر . اصبرْ . اصبرْ؟ وهل أفعل شيئاً آخر غير الصبر؟ وفجأة ، بدأتُ أصيح . أصيح بقسوة ولئامة . وجه ملك الذي هلك صار يختلط لحاً ، بوجه سلطانة التي رمَتْني وولت الأدبار ؛ آه! المرأة لا تعطي نفسها لواحد مرتين! هي الأخرى ، كالمنية لا تجيء إلا مرة واحدة في العمر ، يا ناس!

كانت تنظرني مأخوذة . وكنت أحيطها بنظر يشبه القتل . ورأيتها تحطُّ كفاً على كف . تحني منكبيها ، ورأسها الثقيل إلى أقصى النقاط سفلاً . تكاد تموت . العنكبوت . العنكبوت . صرت أصيح . ولم يأخذها الروع القديم . هي الأخرى ، تغيّرتْ؟ وأرفع رأسي إلى الخلاء . أبحث عن ملك وعباس . وأرى الوجه الحنطي الرقيق : الوجه - الورد ، يعلو كتفين جميلتين . يسنده جذع سائل شديد التناسق والانسجام . به ، عينان حرتان كعيون الصقور المنصادة منذ دهور : عيون لا تتحرك ، ومع ذلك ، تدرك كل شيء . إلى جانب العينين الغرتين ، وقفَتْ ضباباً أمها : العنقاء الرفيعة ، ذات الثوب الأسود الغامق ، والزبون

الأحمر الثخين . زبون الطَلَس(*) القديم . رأسها ملفوف حتى الخنق بهباري شديدة التلّون والبرق . هباري حُمْر . صُفْر . خُضْر . سود . شُهْب . ألوانها تتطاير منذ أن تراها العين : تتطاير هالة خضراء شمسية ، لا لون لها ، ولها الألوان كلها . بيدها اليسرى عصاها ، وباليمنى كيسها المنسوج من وبر اليقطين . الكيس الأزرق اللبني ، ذو الانعكاسات المتوهجة مثل انعكاسات البحر اللطيف . به ، ما يؤكل وما لا يؤكل . عرفتُ ذلك ، من الرائحة الهَبوب ، التي سبقتها منذ الصباح : رائحة الملمومات . مَلْمومات الأكل القديم ، الذي خَمَّرتْه الشمس ، وأصابه برد الفجر الناشف ، ومرّ عليه الليل . رائحة غريبة . رائحة خليط من الروائح كلها . وكأن أمي كانت بانتظارها منذ الأزل ، مسحَتْ دمعها السيال ، وأطفأت ، فوراً ، تنّورها اللاهب الفارغ ، ورحَّبَتْ بها من جديد ؛ وكأنها لم تكن عندنا البارحة : سيرْي ، حبيبتي ، جيتي!؟ من أين طلعت علينا يا سَيْري؟ كنت أريد أن أخبز ، وشممتُ الريحة . وحضَنَتْها سيري وهي تفحص المكان : لا شيء . أرض صفصف وخلاء مُرّ . لا شيء أبداً لا شيء . من أين تخبز خبزاً لخليل؟ ومن جديد ، شدتها حاضنة إياها أكثر فأكثر .

(*) هو القفطان بلغة بدو الجزيرة ، وهو يصنع من الحرير أو مواد أخرى ذات ألوان زاهية غالباً .

لأول مرة ، منذ دهور ، سمعتُ ضحكة أمي الخافتة ، تُدَوّي . أمي ، التي حرّمَتْ على نفسها الضحك منذ أن مات «اسماعين» ، تقهقه؟ اسماعين ، الولد الجميل ، ذو العنق الشاهق ، والأركان المبنية بامتياز . ولد أمي البكر ، الذي كان يُلوَّح على الفرس وهي تطير . خَيّال الخيل ، الذي خطفه الموت ، والذي من أجله حَرَّمتْ أمي اللون والضحكة والحناء والجدائل والهباري . أمي . أمي ضحكَتْ ، هذا الآن! أكاد لا أصدق! بلى سيري لاحظتْ ، هي الأخرى ، ذلك ، وفجأة ، شدّتها بين ذراعيها وراحت تبكي . بكتْ أمي بحرقة والتياع . بكت ، صامتة والَبسْمة ترتسم ، غيماً ، على محياها . وبتصميم جرتها إلى الداخل – الخارج : تعالي ، سيري تعالي . لكأن اسماعين قام من القبر! وخطَتْ سيري بهدوء . خطت خطوة خطوتين بعدها خطت الأخرى ، ذات العيون الحريرية : عيون القادمين من لستُ أدري من أين . من ديار بكر . من الرَّها . من نصيبين . من الصحارى البعيدة . من أقصى القاع . عيون لماعة مبتسمة . عيون آمرة تقول : تعال . ورافق الخَطْو المهيب ، كلام . كلام ، هو الآخر ، مزيج من الكلام . كلام ، خليط مثل مياه الجزيرة العكرة وقيعانها . مثل القصب المنتصب على الأنهار : القصب النابع من بطن الشمس . القاطن الأرض . الملتوي كالخيطان . قصب أصفر صفرة أخاذة ، مثل وجوه القوم المحيطين به ليل – نهار .

من جديد ، رحَّبتْ بها أمي : جئت من بعيد . حِمْلك ثقيل . هاتي الكيس هاتيه . لكن سيري التي لم تتمتع بملكية ، قط ، لَم تكَن بحاجة إلى تشجيع لترمي بحملها اللّمَيم كله : هاكِ الكيس . أعطي خليل يأكل . أعطي خليل يلبس . أعطيه . قالت ذلك ، وجرَّتْ بنتها الصفراء جرّاً خفيفاً . جراً آلمني أو يكاد . وصرتُ أرى إلى الخَلْق : عروق زرق : سائلة . تمر بأناقة تحت جلد اليدين . وعلى الأهداب الصفر بعض النمش والكُسور . وفي أعلى الترقوة ، بقليل ، حبّة بنّية مثل حبوب العدس المرتوي . حبّة مدورة . مرسومة بحنان : حبَّة الخال الأسود التي تقابلها ، دوماً ، حبة أخرى مماثلة ، تماماً ، في «ذلك المكان» . في الزاوية الحادة لالتقاء شطريه . حبة تفتح النفس بأبهتها وجلالها .

وصرتُ أتمتم : مِنْ أين لها هذا التناسق العضويّ الرائح بالتمام؟ ولِمَ تُبرز الآن – وربما قصداً – من ساقها السائب؟ أهكذا يُصنع الناس في جبال القاف؟ وردّني إليّ رنين خلخالها الثقيل : دنْ – دنْ . رنْ – رنْ . كدت أصيب الغَشي لولا اليد القديمة التي حطتني فيها : تَعالَ شوف جابتْ لكْ خالتك أيه! تعال . وأرى بعجب إلى الألوان والأحجام والخلائط والأبخرة والأنثرة والحاجات ، وهي تتجاور ، الواحدة في الأخرى! مَنْ يأكل مَنْ؟ من يلبس مَنْ؟ من يسيطر على من؟ وأتَفلّتُ : لا . لا لا أريد . لا أريد . وأكاد أرى الدمع يخرّ ، من جديد : تعال يا

وليدي . تعال . تعال . وأرنو بهدوء إلى العينين الشاحبتين . وأحس الجوع القديم يتلاشى في الفضاء ، يتلاشى حتى يكاد أن ينعدم تماما : لا . لم أعد جائعاً . واللّه . وقبل أن أنطق الأسم ، تلجم فوهتي لَجْماً : لا تحلفْ يا وليدي . لا تحلف!

كل شيء تغير فجأة : صارت البنية ترفع سروالها الناريّ عن الكعب : تُسوّي ببراءة ، حجولها الهابطة ، حِجْلاً حِجْلاً . وفي الوقت ، نفسه ، تحس حرير الساق العاجيّ ، حسّاً . وتتأوه : الحُجول قتلَتْني . الحُجول . الحُجول! وقهقهت سيري . وهمهمتْ أمي . وبقيت أنا صامتاً كالموت : العيون القصبية الزلّية الصُفْر ، عيون الحيايا البرية السامة ، كانت تُلَوعّني وكذلك المظاهرة واللمعان ، وهواد وبقية العِجْيان(*) ، والدرك والشرطة وسلطانة والجوع والغرق المفاجىء في الماء . كل شيء كان عليَّ . الدوخة صارت عاتية ، هذا الآن . لا لم يعد الخلاص منها ممكناً . دوخة العوز والنُكْران ألا تحلّ عني ، هذه المرة ، فقط؟ لا ، لن تحل . القشعريرة الباردة ، قشعريرة السغب المخيف ، ها هي ذي ، تعبر الأنحاء . تسري في الأوصال . تدوّخ العقل المأزوم منذ أول النهار . الأصفر الفاقع الذي توَّجني فجأة ، كان علامة الموت إذن! لا لم أعد أدري مَنْ أخذني ممن ، ولا كيف انتقلتُ من حضن إلى حضن . كنت لا أسمع شيئاً سوى الصرير . صرير أمعائي المتحفزة من الجوع ، وحس أمي

(*) «العَجِيّ» ، هو الولد الصغير الداشر بلغة أهل «بادية الشام» .

وهي تردد ، بإصرار : قتَلتْهُ البنّية . دفعته إلى الماء . رمَتْه وانهزمَتْ . آه! آه!

كان نوع غريب من الظمأ يقتل أحشائي . ظمأ جوّاني خارق ، يجفف كل تركيب . وأريد أن أشرب . أن أشرب أي شيء . وأتطلع حولي . ولا أرى إلا تَنَك البنزين الأبيض اللمّاع . تنَك سيارة الفورد الزرقاء البحرية : سيارة ابن جليوي . سيارة ابن الكلب . وأمد يدي الشمعية . ألتقط طرف التنك الصدىء المليء بالرِثْية والغبار . أبحث عن بطن الماء . عن الندى والقَطْر . وأحس البلل الساقط من علٍ يتدلىً نُقَطاً بلا ماء . وقبل أن أدْلق السمّ على بطني ، تمسكُ اليد الخضراء المليئة ضوءاً ، تمسك بيدي ، وتحطّ القنينة الصغيرة فيها . قنينة الكازوز الأحمر اللامع . ومع عمق سباتي السغبيّ القاتل ، أرى إلى اللون ، وأخرجة من جلدي : ملك مات وأنا أشرب اللوعة والمرارة؟ لا . لن أشرب بعد اليوم ماء ملوثاً من ماء الخابور الداشر . لا . لن أشرب ماء القسر والإرغام . وبحرارة الحقد الهائل ، الذي كان وما زال ، أدفع بالهيكل المستطيل ، ذي الحروف الذهبية الآسرة ، والطعم المزّي الجارح . أدفع به بعيداً حتى السيلان . أقْلُبه كالقَلْب المكسور ، وأنا أردد : ملك . ملك . وعميقاً أحسّ اللسان يعض اللسان : أسكت يا ولدي . اسكتْ . وتقترب الشفتان الغليظتان اليابستان مني اقتراباً . ترتميان عليّ : الحمى ، الحمى . الحمى يا سيري . خليل يموت .

الحمى . الحمى . وأملأ عيني البيضاوين باحمرار الدم المنبثق مُقلاً مقلاً : دم ملك الذي هلك . وأرى كل شيء أحمر . آه!

في ذلك النوء الحُمَّويّ القاتل ، كنت أرى الأشياء تتلون بالأسود المصبوغ بالنار . أرى الذباب الأزرق الطنان يتحاوَمُ فوق مقلتيَّ . وأرى هواد وفمه الأرعط الكبير . رُشام وأنفه المسطح . أنف العاشق على الدوام . وأرى البنت العجفاء ذات الشعر المدهون بالحناء ، والفم المنتج من الكبت . وأرى وأرى . وأرى الأشياء الأخرى ، كلها . أراها تختلط كالماء والحنطة والشعير . وأكاد أسمع الصرخة بعد الصرخة : يا ويلاه . مات خليل . خليل ، يا أهل خليل . أكاد ، لا . لم أكن أسمع ، ولم أكن أرى . غير تلك الأنوف الشهوانية الشبقة ، المفتوحة إلى الأعلى ، وإلى الوراء ، أنوف الأسماك الصغيرة المرصوفة بذلّ واعتداد : أسماك السردين القديمة . الأسماك التي سافرت ذات يوم ، مع الماء .

(٣)(*)

المحشوش الغابة الأشجار الخريفية البتراء زبل الثيران المتناطحة الدرب الضيق المحفور أرض الخريف الهائفة الاصفرار والارتجاف وأنتَ تدفع بي أمامكَ تجرني تأخذني إلى هناك تريدني أن أدخل معك الأرض تحب أن تحكي مع الماء تريدنا أن نندفع بأقصى ما يمكن من السرعة عبر الوحول والسيلانات وأنت تلتصق بي مثل النار ولا تحب أن ترانا الشمس وتريدنا أن نبتعد عن الأمكنة والقصاع والسواقين وبائعي الروث والفطائس والجص والأحجار أن نخش هنا وهنا تماماً بين الجذوع الهائلة جذوع المحشوش المنتصبة كالفخار تريدنا أن نتصنَّت بعمق إلى أصوات الحشر والبشر والبوَّاقين وإلى نهيت العابرات بعيداً في الحماد اللابدات مع الحشيش منيوكات الحنطة والشعير تريدني أن أقترب منك أيضاً وأكثر من ذلك أن ألتصق بك كما يلتصق الجرو بأمه لا

(*) هذا الفصل ، كله ، جملة واحدة . لا نُقَط ، ولا فواصل ، ولا إشارات .

لماذا إذن تريدني أن أخلط جنبي وجنبك أن أمزح يدي ويديك أن أصالب عيني بعينيك أن أتمدد هكذا مثل حزمة الشوك على الأرض لَتُوّز بي النار وهذه الرائحة اللعينة رائحة العرق اللصّاق الفّواح الرائحة الصيفية الهبّابة النافذة من أين تجيئني كالموت ولم تريدني أن أنلقح على جنبي الأيمن أن أمدد بتؤدة أطرافي أن أنفرج وأنا أتشتت وأتبدد باستمرار وذراعك المتواطئة هذه التي تلج الكيان الصوفي المخطط حتى الدواخ من أين تدخل هذه الذراع الرهيبة إلى الأحشاء وكيف تمر مرور الريح على البطن والأثناء رُكْبتَي اليمنى بعد أن تعرت تماماً صرت تطلب مني أن أرفعها إلى التوق أن ألامس بها أوراق المحشوش البنية العائدة إلى الأرض دون أن تتوقف عن الاقتراب مني والاندماج بي ويدك العنيفة تمسك بخوف كبير يدي وأنت تردد باحتجاج يدك باردة مثل يد السمكة الخارجة تواً من الماء يدك باردة يا ملعونة يدك يدك هاتيها هاتيها وقبل أن تسمع الجواب تلتصق بي يلتصق كعبك بكعبي وحذاؤك بحذائي ووجهك بوجهي وقفصك الصدري بقفصي المغليّ والعرقان وأشياؤك الأخرى بأشيائي ويظلُ برغم ذلك كله يظل عجزك بعيداً بعيداً جداً في آخر الدنيا أو يكاد كنت تنحني كالقوس تتبدل الملامح والقسمات في كيانكَ المضطرب المهتاج يدخل وجهك في قفاك وتغطّ في سباق لئيم لكأنك

تسابق أحداً لا أراه أحد بعد بعد أحد آحاد كثيرة كانت تجرك وراءها كالعصفور اليتيم وأنا أنبطح كالأرض الظامئة تحت كيانك المنتشر فوقي بلا ماء بلى كنت تغيب قبل أن أراك قبل أن أتحسس قسماتك وأستهويك آه لا بد أنها هي هي التي كانت تسحبك كالأسير هي مظاهرة الخميس المفجوعة لا لماذا إذن قفزت فجأة وابتعدت هارباً في الحال أولاً جذعك ومن ثم قوامك وأخيراً شعرك الكبير لماذا غدوت صارماً حزيناً شديد الاضطراب لم تكملِ لي حكاية المظاهرة اللعينة التي يجب أن تحدث غداً صباحاً في الصباح المظاهرة التي تتهيأ لها منذ الأمس منذ أمس الأول والأخير حتى أنا صرتُ أشك في حدوثها الذي ربما لم يكن قد حدث قط لا لماذا إذن قطعت الحَسْرَ بحسرة عميقة وأنت تؤكد المحشوش رائع المحشوش كل شيء كان يبرد يغدو رماداً في رماد القشعريرة الحمراء اللهب المنبثق من أخمص القدمين الشعر الأسود الذي استعَدَّ للطراد ويدي التي أمسكت بها الجمر الجمر المستطيل الخارق الذي انطفأ فجأة وصار غباراً آه المظاهرة اللعينة والدرك والجيش وقائد السرية الجَهْم وزوجة الملازم وأحشاء الثور المذبوح ودمه الذي أخذ يفور في الأرض حتى الزوال بلى المحشوش رائع رائع انظري ألا ترين الحور العالي وأخاديد الأرض الحمر المروية من الخابور وأغصان الشجيرات الباسقة في

أسفل الأحواض وبعض البَلَل والضباب قلتُ لكَ الآن رأيته إنه لرائع حقاً ولكن هل تراه أنت كذلك وإذن لِمَ ضحكت عابساً وأنت تتلمس من جديد بطنٍ ساقي بملل وحياد كنتَ إذن لا راغباً ولا راضياً لا سعيداً ولا مهتاجاً اللعنة كيف داهمك ذلك الإحساس العنيف بالمحنة والارتباك وأنت لا تزال عالقاً بين فخذيَّ ولِمَ لمْ تعد ترى من العالم إلا المحشوش المحشوش المغشوش محشوش ابن جليوي محشوش ابن الكلب كنتَ هنا إذن في هذه الأرض البشعة المغلوبة على أمرها ولم تكن في المظاهرة المظاهرة التي لم تنقطع عن الحدوث مَنْ قال لكِ إنني لم أكن فيها عرفتُ ذلك عرفت ذلك من صمتك واكتآبك من ذكرياتك الملعونة ذكريات الموت ذكريات مظاهرة الخميس المشؤومة التي لم تحدث والتي مع ذلك لا تكف عن الحدثان مظاهرة الخميس التي انتهت بالموت مرة أخرى بالموت بلى كنت هناك وكان جسده الطويل القاسي يطلُّ من بين الرؤوس ومنكباه العاريان يرتكزان في الريح ارتكازاً ومن فمه الواسع المخيف ينطلق الصَيْح تلو الصيح يسقط الاستعمار يسقط وفي الصباح في الصباح الباكر ذاك جاءتني سلطانة عجولة جسدها الرائع يفور من الشهوة والغيظ بها رجفات ساخنة مأزومة وبلا هوادة ألقت بنفسها عليّ اعطتني كل ما تملك من شغف وسراب ومع ذلك تركْتُها ورحتُ أنحدر راكضاً

نحو الماء ألحق بالرفاق الصمّ البكم الساكتين منذ البارحة ليلاً رفاق الدبْس والعَجّور والتُوت البريّ المنتشر توت الأرض الشرقية أرض ابن جليوي أرض ابن الكلب ولم يلبث الجمع أن اختلط بالجمع وداست الأقدام بعضها دَوْساً وٱلْتَوَت الأجساد مأخوذة بالسيل وهَوَت المسامير كلها على شاربيه ورأسه والجمجمة وتقولين إنني لم أكن هناك والمسامير الصفر الجارحة مسامير العساكر والزعران والمتوترين رأيتها كلها تحطُّ عليه والهتافات تنطلق من حنجرته التي امتلأت زغباً وصبيباً ثخينا وبفعل صوته الرهيب حتى الأحصنة هَوتْ في الماء في الماء في الماء المُوحل أحصنة السقائين الدهْم تلتها براميلهم المعدنية المتطاولة مثل القنابل الطينية تغطس غرقاً غرقاً وبالقرب منها من الأحصنة الدُهْم الواجفة خَتَل السقاؤون رهبة وطنيناً وواحداً بعد آخر غطسوا رؤوسهم الصفر في الخابور الذي غدا أحمر من الفيض والصياح يتلو الصياح الموت للعملاء الموت للعملاء الموت للعملاء وشيئا فشيئاً ترنّح الجمع يميناً ويساراً وهوى بكليته في القاع وسريعاً ابتلعته المدينة المحجورة ذات الدروب القصيرة والبُصور الحسيرة واهتزت الأشجار اهتزازاً غاطساً ومَلُوطاً أشجار الحشوش الغربي اللئيمة الأشجار العدوة بامتياز ورأيت اهتزازاتها الجذلى تتطلع إلى وركينا اللعنة للأشجار عيون وسُنون تتفرج باحتراق على

جسد ينا الملتزين بين أوراقها الفضية الخضر وبانسياب غامض وحميم انزلقت بجسدي كله نحوها وأحسست بحرارتها القصوى تعبر قماش الثوب الثخين وبغتة أطلقَتْ تنهيدة خرساء ملجومة وهي تغيّر من هيئة كيانها المرتمي على الأرض واقتربتُ منها اقتراباً أكيداً كدت آكل العضل السريّ أنهش اللحم الآجري الخاتل في الأثناء لكن النَهْدة بعد النَهْدة جرّتْني من الكيان إلى المكان ملك الذي هلك كان يربض كالكلب السريّ في وجه البيت عجباً من أين نبع في تلك الساعة عباس وبفجاجة آسرة حرَّكْتُ يدي اليمنى حركة غريبة ملهوفة وبلمح الشوق صارت دفعة بين الجسد والثوب شقّت الفضاء الخفي شقاً وصلت الغار من أعلى وأحاطت به إحاطة الزند بالسوار واستمرت اليد في الهبوط استمرت نازلة حتى كادت تصيب الأرض وفعلاً أصابت القساوة الحنطية للقاع كان اختراقها للجسد المشظّى كاملاً وسديداً جسد ابم احم اقم أي جسد مذهول هو هذا الجسد الغرّاف جسد اسماعين المسجّى في صحن البر جسد عباس المُلقى بإهمال قاتل فوق الأكمة الثَبور جسد ملك الذي هجرته الزنود السود بعد أن حطته بغبطة وافتتان على السور الحجري الأبيض في شمال المدينة اللعناء وبحثت عن يدي الهاربة لم أجدها كان الغار قد أكلها أكلاً وكانت لا تني تصرخ باهتياج لماذا لا

تقتلني لماذا وأحسستُ بها تفوتُ بي جسدها الآكل يمضغ جسدي كالتنين ولأفكّ الحصار الرهيب عني هجمتُ عليها هجوماً صاعقاً ومديداً ومع ذلك لم أقترب منها إلا ضئيلاً وأحسستُني أنتصر الأمر انتصاراً لا مثيل له ولا عديل كانت تتمدد على جنبها الأيمن في أرض المحشوش الغربي وكنت أتمدد على جنبي المقابل في الأرض نفسها وبلا مكان وظلت الأوراق تتساقط بلا انتظام وظلت هي تهذي بلا انقطاع لماذا لا تقتلني لماذا لا تذبحني لماذا وسؤالاً بعد سؤال ملأت الأسئلة الشيطانية الأفق ملأته وملأتني والمظاهرة لا زالت تسير والهتافات تتساقط في الفضاء هتافاً فوق هتاف هتافات قديمة هتافات جديدة هتافات قريبة وأخرى بعيدة آه! كيف تتسلق الكلمات اللسان والشفتين كيف تصير بعوضاً طائراً في الأركان ومن يَهَب الحياة والعنفوان للصوت صوت ملك الذي راح الصوت الهالك الصوت المالك وأحسست بالقهر الكامن ينفلت في أعماقي يريد أن يطير يغدو رغبة سرية رغبة في أن أختلط بالجمع أن أختلط به بكياني كله وبلا حدود الأفواه المفتوحة على المدى البعيد صارت تستثير شغفي وارتكاسي تدفع بي إلى الانصهار بالمحيط أفواه سود ملجومة انفتحت على الجو بغتة وبلا خوف أطلقَتْ هتافاتها الساخطة تُسَقِّطُ العقيد تُشيد بالشهيد تنذر الاستعمار وأعوانه ولكن أين هو الصوت الذي انبثق منذ

قليل الصوت الآمر وتطلعتُ هنا وهناك أبحث عن مصدر الصوت الصوت الذي ضاع إلى الأبد والذي لا زلتُ أبحث عنه حتى الآن وفجأة رأيت ما رأيت رأيت الأنحاء الداخلية العميقة تنفلت من عِقالها تعطي نفسها دفعة للريح تختلط بالأوراق وحصى الأرض ومشتقاتها المنشورة في كل مكان وعلى بعد خطوات مني ومنها بدا الطين المتكوِّم على جال النهر أصفر وبذيئاً طين معجون من التراب والروث والصديد بلى مرضى المدينة ودوابها والتائهون والغرباء كلهم يتغوطون في هذا المكان وعلى الماء الهابط جنوباً أن يشيل ذلك كله أن ينأى به إلى الزوال وفجأة بدأ النزق اللاهب يحيط بها نزق جوهري وعنيف ورأيت أردافها البنية المفتولة تتلوّى جانحة في الريح ها هي ذي بنت الكلب تريد أن تكَرْب الحَبْل أن تُرْخي الزمام بالتمام أن تحطَّني في القاع وأن تدوس عليَّ كانت تقترب مني أكيداً وهذه المرة تريد افتراسي وبيأسي كله حضنت نهديها الصاخبين ووضعت ركبتيِّ في بطنها العميقة وفي شعرها الأسود الغزير دفنتُ رأسي ورحت أبكي أبكي واضحاً كالموت أبكي والدقُّ يتزايد على الشباك الشباك والباب والهباب اللعنة من أين يأتي الدق هذا دَقّ غريب يحيط بالفضاء كله ومن خلل النوافذ صرت أرى إلى الأزوال اللئيمة تتخَتّل كالجرابيع والدَقُّ الذي يأتي من أركان الدار العتيقة لا يتوقف عن

الدَقّ والأزوال الزاحفة حولي تستعجل الوصول آه! مَنْ يحميني ممن وكيف الباب يكاد ينكسر وينكسر فعلاً باب الزَلّ العتيق الهاوي الباب الصنيع وهل يحمل الباب الهالك إلا دَفْرة أو دفرتين والرجال الزالقون عبر الباب كالحراب المسنونة يعرفون الألفة والمكان يعرفون كل شيء كل ما أعرف أنا وكل ما لا أعرف لماذا أقاوم إذن لماذا تعال نفتح الباب يا خليل تعال يا قليل تعال لا لن أفتح الباب يموت الحَرّ ولا يفتح الباب لعدوه بيديه وتفتح اللئيمة أركانها العذبة كالتين الناضج تين الشمس الشرقية الحمراء تين الحسكة اللَدن العميق هات اعطني تيناً هات أخوك ما مات أخوك ما مات وأشهق الشهْقة بعد الشهقة وأنا أفتح الحُقّ الثمين آه يا بنت الكلاب آه! وكالسيل العرم يلج الجمع الجمع وأرى النار والنثار جمع من الرؤوس الحليقة يلج الجو فجأة ويحطّ وأحسني محاطاً كالقنفذ الذليل بالخيول الصاهلة الحَجْلاء خيول كثيرة أجساد مربوعة مشوهة أقدام عرجاء أيد تشبه القُضْبان المحروقة سعير فوق سعير كل شيء بدا غريباً المدخل والمساند والعمْدان لا لم أعد أعرف من ركني القديم ركنا مَنْ هم هؤلاء النابحون بلا توقف في وجهي أين خبأتها أيها الكلب أين حطّيتَ الأوراق الصفر يا شرموط اين دفنت الكتب اللعينة ومن أين جاءتك وممن وأتحدّب أنحني بعضاً فوق بعض أغدو بطيخة سوداء

أصير حجراً في حجر الوجه الوحيد الذي ظل في فرجي كان وجه ملك الذي هلك ملك مَنْ هو هذا الكلب العكروت القحب ابن القحبة هذا المنيوك الخنزير الجنزير ابن الجنزير تقول ملك على أي بلد يا ابن الخرا نسألك أمراً وتجيب آخر وأكاد أرى الغرّاف القديم يطير في الريح يطير كالحجر المقذوف من مقلاع غرّاف البراري البعيدة الغَرّاف الذي لم يسق أحداً ماء والعالم كله خابور ورأسي وهو يتشظّى مثل الدَنّ الفخاريّ الذي أصيب فجأة بحجر ثقيل الدَنّ الحنون الذي سقاني قيظاً بعد قيظ والذي لم يعد يحتمل العسكر رؤيته أبداً من أين تملأين الدن ماء يا قحبة من مَيّ اللّه يا ابني ميّ اللّه تُسمّين ماء الساقية المحفورة المتْعوب عليها ميّ اللّه وهذه القيعان الواسعة من أين تشرب يا شرموطة الدركي السمين اللئيم يمطر السؤال تلو السؤال دون أن ينتظر منها جواباً وقبل أن تَزن الكلام والرد كان الدن يتطاير في الجو طلقة واحدة تكفي لتُطيِّر رأسك أنت الأخرى فهمت ومن أين نشرب إذن يا ابني من أين اشربي بولك إن كنت عطشانة إلى هذا الحد الماء الجاري احذريه الأرض التي تحد البيت احذَريها الساقية التي تمر وسط الدار احذريها اعرفي حدودك يا قحبة حدودي حدودي ولم ينتظر الإشارة صار يسوّرها سوراً لصق سور هذه هي حدودك بالتمام تعالي وقعي هنا تعالي لا لن أوقع لن

أوقع صارت تصيح وفجأة يهملها ويستدير نحوي لا ليس في المحيط إلا القَحيط وهذا الرماد المكوّم يا عرص ها! أي رماد هذا الرماد الناعم الملموم هذا الرماد أليس هو راد الكتب التي نبحث عنها والأوراق والأنساق وتبكي يا عرص تبكي على ما أحرقته يداك ما ذنب الحكومة وأنت تحرق كل شيء والآن إذا أحرقت أذنيك هل تبكي عليهما كما تبكي على الكتب الحقيرة التي أطعمتها للنار وفجأة وجدتني أطير مع الزرازير السود فوق مَرْج من الثلج القاني ثلج براري عامودة الجميل اللعنة الفخ المقعر الصدىء الذي اختفى بين ذرات زبل البغال الساخن وبه حبة قمح واحدة ذلك الفخ الشيطاني مَنْ وَضَعه الآن تحت فكيَّ كدتُ أصرخ يا أماه إلا أن الخَرَس الرصين شلَّ طاقتي كلها على الهذيان أيها الحمار أيها الكلب يا حرّاق الكتب اعترف وأرى إلى الانتشارات النفسية الغائمة تفيض على المحيط ولا أعترف الكائن البائس المردود الذي كنْتُه يصبح فجأة مغالياً وشجاعاً والطفل الهش الباكي على لقمة الخبز إن لم يجدها يغدو بغتة حَمّالاً جَمّالاً أين هو الآن عباس ليراني أين هم الجيران والأهل والأحبة والغربان بلى! تبَدُّل آني وصاعق أصاب كل شيء العالم كله تغيَّر والتهديد يلي التهديد أيه الكلب سترى كيانك العاثر هذا يتردى مثل كيان الدودة المَدْعوسة تريد أن تقاومَ قاومْ لكل فصل حصل

ولكل حال مآل نحن نعرف أنك تعرف أنَنا نعرف كل شيء نحن لا نفعل ذلك إلا من أجل مصلحتكَ أنت من أجل مصلحة الجميع ولستُ أدري كيف حانت مني التفاتة كما يحصل عادة في مثل هذا الموضع من الحياة التفاتة إلى أين إلى المحيط الذي كان يحيط بي آنذاك كان كل شيء فارغاً وبليداً آه كيف استولى ذلك الفراغ البائس فجأة على الأشياء ذلك الفراغ الأبيض الأصفر فراغ الخيبة والعناد لا لم يكن ثمة إلا العيون القاتمة تحدق في عيوني باصرار قاتل عيون خبيثة ومريبة هي الأخرى كانت ملوءة بالكرب والنشاز عيون تتسلط على عيون وألسنة متوترة لا تكف عن القذف ماذا كانوا يقولون لم أعد أعرف كل ما أعرف هو أنني كنت أقترب من الفخذين الجميلين فخذي بُنيّة سيري الأريبة تلك البُنْية الهائلة ذات الأركان الغريبة المملوءة توتراً وبهجة باستمرار ولم أكن أدرك آنئذ سطوة ذلك ولا مداه كنتُ لا أجيد بعد إلا اللمس كنتُ في حالة المعرفة الأولى المعرفة - الأم ومع ذلك كانوا يصرون أين خبأت الأوراق أين ولكن أية أوراق يريدون الهوية لا الدفاتر لا أوراق أي شيء إذن يا ناس الأوراق يا عرص الأوراق تتغاشم لا بد أن تعترف يا كلب لا بد لا بد وأكاد أغمض الطرف على صورته المهيبة العالية صورته التي تتصدر المكان أكاد ولا أفعل أحدق بالصورة العالية المزوقة المجملة

المحملة كبرياء وأسراراً صورة «البطل القائد الرجل الرائد صانع الوحدة جمال» اللعنة لماذا يعلق صورته هكذا في كل ركن وفي كل مكان ألكي يكون شاهداً على جور التاريخ وزوره لا لن أتلو آيات الانهيار ما عليَّ إلا أن أرتفع إلى الحضيض زززز زززز زززز كانت الطفلة الشبقة لا تكف عن الانغمار وهي تتغمغم بردانة بردانة بردانة ودون أن أقترب منها أتململّ في عمق الظلمة سخط الوجه الجميل ذي الوجنتين الهابطتين إلى الرَيّ وأتحسّسُ من بعيد انتعاظ الحلمتين المرّتين كالعلقم المسحوق كان الشبق المحبط يلوّن الأفق يلون الوجه والأنحاء يلون بضاضة الجسد وغضاضته يُوسمُه بالموت شهوة المرأة سَبْع حباها اللّه نهراً من الشهوات ها هي ذي تبدأ التمزيق آه تمردها المخيف يتجسد ثورة في عتمة الليل وثورة الشهوة عاتية إنها الثورة الوحيدة التي لا يمكن إرجاؤها أو إلغاؤها وتصير تقذف لي من عندها بشفاهها التي توَرَّمَتْ من الشوق الشفاه القرنفلية الدَعْجاء شفاه الخوف واللهفة وقبل أن أنوش البطن الصغير الذي صار في سرتي الآن أحسست بالارتجافة المشؤومة تركبني من النخاع إلى النخاع ارتجافة الجوع القديم لا ارتجافة الخوف الليلي اللئيم لا ارتجافة الرهبة المستمرة من الأساتذة الحمقى والمدير لا أية ارتجافة أخدودية عميقة وبلا قرار إذن هي هذه الدَعْبَلة الحارة مثل كوم من اللهب المجنون وفعلاً

يرتجف البطن الصغير الضامر آه بطن الغجرية الأصيلة يرتجف ارتجافة واحدة لا غير يهوي بعدها في التراب في اللوع والدُواخ ومن عمق الخدر أصير أرى أركان الكون كلها صفراء وخالية الدرك وحدهم يتضاحكون وهم يتقاسمون السكر والحليب الخاثر والعصيد وهم وحدهم ينامون في نومي العكر المكسور أين ذهب عباس ومن أي ماء يشرب الآن وعلى أي تربة يرتكي واقفاً وينام وهذه الحُمول الباهظة من القطن والحنطة والشعير إلى أي ركن من أركان القاع تروح وشَدْتني أكثر فأكثر البرد تعال يا خليل تعال عباس هو الآخر كان يشدُّني يشدني فليقتلوني إذا شاؤوا ملك هلك أنا لا أعرف أحداً أنا لم أقرأ لم أحك ولم أبك وهذه الصورة السمراء البنفسجية المزّوقة المُحمّلة بالأسرار تؤكد ذلك ليفعلوا بي ما شاؤوا أريد أن أموت أنا الآخر أريد أن ألحق عباس وبقوة حمقاء ردّتني إليها تعال إلى أين تريد أن تصير تريد أن تطير عباس انذبح عباس انذبح الشَحّ الشَحّ وبغتة تختفي العينان الصافيتان اللتان كانتا في حوزتي ومعهما يختفي الظل الأصفر الآتي من بعيد ظل الجهامة والقمل والصئبان الظل الأسود المخيف ظل الغيوم المكفهرة المحملة برداً وحالولاً هذا هو خراب الدنيا إذن هذا هو يوم الحشر اليوم الأكْشَر لا هذا هو ظل الجبل الأسمر ذي الأحجار العالية المسننة المنحوتة من الناس الجبل الذي يمتد جنوباً

حتى النهر ومن النهر يرجع إلى الوادي الوادي الغائص بين الطرفين إلى الأعماق وادي الأشعار الصغيرة البارغة بلا انتظام الأشعار - الأشجار وتتساوى الأجساد فجأة جسداً لصق جسد وكذلك الأيدي والشفاه والبطون والعيون والأطراف والأجواف وأنحاء أخرى ذات رائحة قانطة وغريبة مثل رائحة الموت آه أتكون هي الأخرى تبكي الآن بسبب هذه الرائحة الصَمّاء الثقيلة هذه الرائحة الباهتة الغَثّاء رائحة هذا الرذاذ الذي لا ينوش بعضه بعضاً الرذاذ الثخين الميت والذي لا يكف مع ذلك عن الإنهمار ولكن من أين يجيئنا الغيث ونحن في صافية الحر وكيف تدلّتْ خصلات الشعر الأسود الهَفوف تدلّتْ مثل ذوائب الحيلوان إلى الجسد المشرئب النازف من شدة الضرب جسدي المنبوذ المهمل من الناس ولماذا يمر الدرك كالأحصنة الهائجة فوق جلدي مروراً آسراً ومميتاً وهذه الصورة الخرساء المعلقة في أعلى المكان على أي شيء تشهد وبأي لغة تحكي صورة البطل صانع الأذيال وبقسوة أحطْتُ جذعها المتهالك وأتيت بها إليَّ وأتَتْ كلها مدفوعة خلفاً وأماماً أتت مثل ألسنة الماء الفائض على البر آه! يا لهذه البنيَّة المشتعلة مثل فَتيل القتيل ودون أن أحرك شيئاً أتخلى عن فضائها وتتخلى بي ولكن كيف الفأس والساقان المنفرجان مثل ساقيَّ الخنزير البريّ والسقطة المقيتة وخصلات الشعر المنثور

والعضو الذي غاص في التنور أي شيء جرى لهذا العالم الحقير العالم الحقير يا كلب لكَ لسان يحكي وعين تبكي يا عَكْروت وأتطلّعُ مستغيثاً إلى أعلى إلى أسفل إلى هنا إلى هناك إلى الجهات جميعاً ولا أرى سوى الخلاء حتى الصورة الخرساء غادرت الجدار الطيني القديم ولم يعد لها حضور لا لم يبق حولي إلا أصوات الأشجار اللئيمة تصيح بي انبطح انبطح قبل أن يأخذك السيل انْبَطحْ يا ويل ولا أنبطحُ وأظل أتطلع إلى ذُرَى أشجار الحور العالية ولا أرى إلا الطيور اللاحمة طيور مَنْ هذه الكائنات الغريبة ذات الأجنحة السود مثل أجنحة ملائكة الموت ومِنْ أين لها بمثل هذه المناقير الزمردية العَقوفة مثل الحراب أتكون الطيور الهمجية هذه هي التي نتَّفتْ جسده في الفلاة وقبل أن يرتد طرفي إليَّ كانت الأشجار تصيح مهتاجة من جديد لماذا تقف مذعوراً أيها الغبي أبعد البنت الغاوية عنك واحفزْ احفزْ أيها التيس وأحفزُ مرتداً على رأسي أنطُّ في الريح نطَّة بعد نطَّة وأنا أصيح وأصيح وأرى إلى العينين تضيقان من إغفاءة الأمد الطويل عيناها تموتان أيضاً هي الأخرى منهكة وحزينة مَنْ عذَّبها مَنْ يُعذّب مَنْ ولأجل أي شيء من أجل الأوراق يا عرص الأوراق فهمت والفأس التي انغرست في عمق أرض الحور الغريبة فأس كرأس الثور الهائج لماذا الفأس يا ناس ومثل حركة

كائنات متعددة ومبهمة صرتُ أحسُّ الحسَّ وبدأتُ أشعر باكتئاب قان وكدتُ أنهار وبحركة آلية تماماً مددت يديَ إلى جيبي الأيمن وعَبْر الشق الكبير وَلّتْ أصابعي تلامس أطراف خصيتي وأعدت الكرة مرتبكاً وهذه المرة باليسرى وقبل ألامس حالي لامسني الصوت تُدوّرُ لا تدوّرْ على شيء قل لنا مَنْ أنتَ مَنْ أنت منْهُ انْتَهْ وبلا حماسة أجببتُ أنا خليل أنا خليل وملأت القهقهة الفقيهة الفَضاء اسمع ابن الكلب يريد أن يضحك علينا تريد أن تغُشَّنا يا عرص ومن جديد رأيت الفأس تهز الأرض هاوية لها رعيد مقلوب مثل رعيد مزن الربيع الهائج اللعنة هذه الفأس ستأكل لحمي فأس حامية رأيتها تجزُّ الأشجار الشامخة كما تجز العشب والحشيش وأصير أتلمس الجذع الصغير الهاوي أركض أطير أزتُّ نُفسي عليه أداويه ألدغه كما تلدغ العقرب نفسها آه ماذا يمكنني أن أفعل وكيف أقاوم يا ناس وفجأة عوى الصفير الحاد القاسي الصفير الملدوغ ورأيت الصوت الأسود اللزق يصعد تواً إلى قبة الكون صوت يطير أطير أنا الآخر معه أشياء رهيبة وغريبة كانت قد بدأت تحدث وكانت الفأس لا زالت تجيء والرجل الأدْهَم يغشوني يحشوني والحشرات تتوالد بلا انتظام والماء يصير جبلاً سائلاً من الماء وهي تقف فوقي فارجة ساقيها المبلولتين كاشفة عن ثغور اللذة البيضاوية والحِنّاء تلون أنحاءها

تلويناً صاخباً ومثيراً حنّاء الحجر المطحون بالنار ومن ثقوبها العديدة ينبثق الصياح تلو الصياح آه أم الطيزين المرأة العتية التي لا تصيح إلا على قضية كانت تصيح يا ناس تعالوا شوفوا تعالوا الطيارات تحوم فوقنا عبدالناصر يريد يجينا بيوت الشَعْر ملأت الظهاري والأكمات وخيول البدو جاءت تهذب هَذْباً وطنابير الميّ لم تعد تُسقي الناس والمدارس اغلقت أبوابها وطوابير الخراف المعدة للذبح تنتظر دورها في عرض الطريق والعرصة أخليت تماماً من الخضر والزرع والبقول تقول وأقول وهذا القتيل لماذا يظل واقفاً مستنداً على فأسه وقطرات الدم تتسايل حول عينيه ورأسه

(٤)

لم يعد المفهوم السائد يثير إلا السخرية والاشمئزاز . إنه مفهوم العلاقة المحكومة سلفاً «بالنهاية» أياً كانت . ولكي ننتهي منه ، من هذا المفهوم ، علينا أن نلغي النهاية المنتظرة ، نهائياً .

ذات يوم ، يأتي يوم آخر ، تحدث فيه الأشياء الأخرى التي لم نكن ننتظر حدوثها ، أبداً .

أحسن التزويرات ، التزوير ، غير المطابق للأصل .

عندما عدتُ كان البيت غائباً ومَثْبوراً . في طَلْعة الدار الترابية الكابية توقفتُ ، قليلاً ، قبل أن أصيح . كان منظر الدم المنثور ، في الفضاء المسوَّر بأشجار الحور ، خانقاً وملعوناً . وبنادق الدرك التي اخترقت ، كالسحر ، جسد الرجل الكثيف الذي ظل متكئاً على فأسه ، تثير الرغبة في النوم . القيء الصاخب الذي انبثق مُرّاً وحَميضاً ، قَلْقل كياني ، كله ، وأضناه . وانطلاق الرصاصة البرقيّ القاتل جعل كل شيء يموت : الأمل والخوف والإرهاق حتى الجوع القديم الناشف ، جوع الظمأ

الكئيب ، ذاب .

بالواقعة المشؤومة ، هذه ، اختلطت مؤخرة امرأة القصاب السمينة كما يختلط جمع من النَوَر . كنت أريد أن أقع وأنام ، ولم يكن ذلك ، بعد ، بالمستطاع . كانت الأسئلة تلحق بالأسئلة . والموت يلي الموت . والجوع يستبد بي كما تستبد الفاقة بالناقة . في طلعة الدار توقفتُ أجيل البصر في المحيط . أقلّب النظر هنا وهناك : آه! الجو غائم ومخضرّ في أطراف الكون القصوى . العجاج المبلول يتصاعد ، مثل الدخان الأزرق المهتوك ، من النقاط الجبلية في القبلة القريبة . بعض الغيم النابع من القاع يعلو الظهاري والأكمات . لا . ليس في المكان المرئي من بشر . ولا دواشر . ولا أحياء : خلاء يتلو خلاء . متى جئت إلى هنا آخر مرة؟! متى كنتُ في هذا المكان؟ مَنْ قام يلقاني الآن ، في هذا الصبح الشتائي الميت ، وأنا أزحف محملاً بالشوك والطين . فَكّاي يرتجفان من شدة البرد ، ويداي مثل الغصون المسلوقة بالماء؟ بلى! الزول يزحف وأنا أزحف ، ولا نكاد نلتقي إلا غماماً . إلا لماماً . ولَمْ تدع الظلمة تطول . انطلقَتْ نحوي كالرصاصة . انطلقَتْ «طُرْفَة» بقضها ، وقضيضها ، ساحبة سعالها المنفاخ : السعال اليابس المتقطع المستمر . ثوبها يطير . صدرها عار . يكاد اللَّطْع الأبيض العميق أن يشق الفضاء . أي حلم رهيب ، يرهبني الآن؟

قبل أن أتناول الرمانة المثقوبة ، تناولتني : اين كنت طيلة

هذه الأيام؟ أين كنت؟ أمك مـاتت يا خليل . أمك مـاتت . وأنت لم تكن هنا ، ولا هناك!

مع اللوم والكلام ، انبـثق القـشع الرئوي الهـائل . القـشع والسـعـال والبلغم والدم واللهـاث وحنين «طرفـة» وحنا نهـا الملهوف اللوّاع : حنان السـقـيم على اليـتـيم . أبكي . أحكي . أتألم . وقبل أن أتبين الأمر ، هوَتْ عليَّ بكيانها المرعوب ، كله . لم اتحرك . كان نور الصباح الجديد وادعاً وعميقاً : نور أبيض مِشْعاع بعد ليال بائسة ظلماء . وهزتْني هزّاً : تعال ، لا تبكِ . تعـال ابك! أبكي فـعـلاً . لكن الدمع اللئيم اخـتـفى ، كله ، وغـاض الطَفَـرَ النديّ . غـاض كل شيء فـجـأة ، ويبس اللون . وتطلعَتْ إليَّ بحذر وهي تنتحب ، من جديد : أمك مـاتت يا خليل! أمك ماتت أيها الرَميّ . ملك ، هو الآخر مات . عباس ، ربما يكون مات من قبل . والآخر ، ذو الوجه الأسـمر اللَّهوف ، أين يختبىء الآن؟ وأنا ، أنا أيضاً ، كدتُ أموت ، قبل قليل .

بقـيتُ سـاكناً في المقـام . النور المنبـثق من بطن الأرض ، لتوه ، يوجب الإمعان . نور بارد ينتشر ، مثل النور الفردوسي ، بلا تخوف أو تقتير . نور يطلع من القاع . نور غريب لم أشاهد له مثيلاً من قبل . أحسست بالقشعريرة الباردة تعبرني . تخترق جسـدي السـاكن من أقصاه إلى أدناه . آه! هذه القشعـريرة المرة المفاجئة اللابسـة للجلد ، أين كـانت تختبىء كل هذا الوقت؟ وبدأَتْ تَنْوي ، من جديد ، تَنْوي : لماذا لا تمشي؟ لماذا لا تدخل

البيت؟ لماذا لا تتحرك؟

لم أتحرك . نوع من الشعور الغريب سيطر عليَّ : شعور بالحاجة الكاسحة للوقوف طويلاً فوق الأرض . كانت أقدامي ، وحدها ، تدير الكون . لكأنها كانت تدرك ، بوقوفها المباشر فوق القاع ، كل ما لم يدركه ، رأسي المشوش من قبل . ولأول مرة أحسستُ أن للتراب طعماً . ودفعتني بعنف : خُشْ ، يا خليل ، خش . الدنيا برد . والمصائب كثيرة . خش خ . . ش .

لم أتحرك . كنت أحسب أن ضربة قاضية حلَّتْ بالمكان . بالدار الطينية المهدمة . بالحيطان البيض القديمة المُكسَّرة . بالكوخ القبلي الواطىء . بألواح التوتياء الصدئة المشقوقة طولاً . طولاً ، لا . لن أدخل . لن أدخل بيتاً بعد الآن . كدت أدفع بها عرض الفضاء . لكن الحركة اللطيفة التي رمتني بها ، منعتني من فعل ذلك : حركة البؤس العنيف وهو يسيطر على البائس نهائياً . يلقي به أرضاً . يحيل قواه الحية إلى رماد . حركة اليائس حتى من يأسه . الحركة المحمومة التي لم يعد لها معنى ، والتي ربما لم يكن لها معنى أبداً : ألا تريد أن تراها؟ أن ترى قبرها قبل أن ينعدم؟ قبرها؟ إيْ قبرها في «العالية» ، العالية القِبْليّة . العالية؟ اللعنة!

الموت يصير موتين : عالية ابن جليوي : عالية ابن الكلب . لا . لا أريد أن أراها . أن اراها . وتصل التمتمة إلى «طرفة» مصغرة مكتومة . تكاد كلماتها أن تذوب من الغضب

والاستياء . مع ذلك لا تذوب لكنها لم تكن مفهومة أيضاً . كان عليَّ ، بعد أن ذقتُ طعم الأرض المفاجىء أن أقرر ما أريد أن أفعله منذ الآن : أمشي؟ أحكي؟ أبكي؟ أتقدم؟ أتأخر؟ أي شيء آخر ، كان من الممكن أن يحدث . المصائب حلَّتْ ، حلاً أنقذني إلى الأبد . ووجدتني ، بعد أن كدتُ أفقُد الارتكاز القديم ، كله ، ألتقي بنقطة ارتكازي الجديدة التي لم تزل تلازمني إلى الآن : قدميَّ . وكأن ما قلته ولم تسمعه ، سبَّبَ لها إدراكاً جديداً ، توقفَتْ ، فجأة ، عن الحركة والكلام . وكفَّتْ عن الارتماء عليَّ ، والاحتماء بي . وتصلَّبتْ ، شيئاً فشيئاً ، قسماتها الرخوة المستطيلة . ولم تعد لا تذهب ، ولا تجيء . وكأنها كانت تستعيد الأعوام والكلمات ، حطَّتْ رأسها اليابس في خاصرتها ، ومثل النعامة السوداء الغامضة ، راحَتْ تَنود : يا يمّا خليل خلاّكِ . يا يمّا خليل ما عاد يريدك . يا يمّا خليل زعلان . يا يما خليل . يا يما خليل . ولا بد أنها أرادت أن يصل إليَّ ما قالته لي من قبل ، بأنقى الأشكال ، وأكثرها بُعْداً عن التوتر والملام ؛ إذ رفعَتْ رأسها باعتداد ، وتملّتْني بحنان ، ورددَتْ بهدوء ، وكأنها حسبت أنني لم أستوعب عبارتها الأولى : أحقاً ، لا تريد أن ترى أمك يا خليل؟!

كنتُ لا أزال واقفاً في العراء . في برد الفجر اللاسع ، دون أن أجيب . كان الأمر يتبدى لي على نحو آخر ، نحو مخيف ، لم أدركه من قبل . في مواجهتي ظلَّتْ تقف بعناد وإصرار .

تحدق في عينيٍّ ، برهبة ، وشمائلها اللينة توحي بأنها لم تستعمل أقوى أسلحتها ، بعد . كانت تصرُّ أمراً عتيّاً . ولا بد أنها قررت ، أخيراً ، أن تكلل عنادها المستمر بكل ما لديها من حيل وأنغام ؛ إذ رأيتها تقترب مني . تلتصق بي . تشمُّني وتقول بقلق رهيب : والناس! يا خليل! الناس؟ وكالمجنون انتفضتُ . انتفضتُ وأنا أحسُّ ببولي يتقاطَرُ مثل الخيوط السحرية مني . وبلا أدنى لطف ، صرت أقول : الناس؟ الناس؟ مَنْ هُمْ هؤلاء الكلاب الذين سيفرضون عليَّ بعد اليوم فِعْلَ أمرٍ لا أرغب بفعله؟ من هم؟ مَنْ هم؟ من هم؟

وقبل أن أتم التعبير عما يملأني من سخط واستياء ، رأيتها تتهاوى مرتمية عليَّ ، وبيأس شامل تقول ، وهي تضع رأسها في حضني : لم أكن أتوقع ذلك منك . لم أكن . لم أكن . لم أكن . وبحب أقوى مني أحَطْتُها بذراعيٍّ ودفَنْتُ رأسها ، كله ، في حضني ، وأنا لا أرى إلا العدم والتراب . تراب الشمس التي مرَّتْ بشكل واضح ، هذه المرة ، بين الدور الطينية القديمة . وتبعتُ الشمس وهي ترقى الكون ملتفة حول دار «أم سلطان» الحوَّاجة أولاً ، أم سلطانه النمّامة ، التي جاءت ذات مساء من الغرب . من بلد الشام البعيدة . من «حمص» كما يقولون . والتي لم تني تحفر الأرض حتى سوَّتْ لنفسها بيتاً في أعماق القاع . بيت من الكدر والألغام . من التِّبن والوحل والأخشاب المسروقة والروث . أم سلطان الحنون التي تظل تأتينا مساء بعد

مساء : خذي يا أم خليل ، خذي هذا ، خذي هذي .

سريعاً ، اخترقت الشمسُ العَجولُ ، اخترقت المسافة الضيقة بين الدارين . الآن صارت تصب شعاعها المبين فوق دار «الأعشى» ، بياع المشبك والأساور المصنوعة من العجين . الأعشى الذي نبغ ذات يوم ، هو الآخر ، من بطن الأرض . من أين جاءنا ، يا ناس؟ ظل الناس يتساءلون ليل - نهار ، حتى صار الأعشى بياعاً يحسب له الحساب . وصار الناس ، من بعد ، يتعجبون : من الجيفة صار له مال وحلال! ذلك كله بدا لي رهيباً . كان عليَّ أن أتوقف عنده ، طويلاً ، قبل الانطلاق . شيء ما ، ولد ذاك الآن . مات ذاك الآن . أشياء كثيرة أخرى كان عليها أن تحدث . أن تحدث الآن وإلى الأبد . وأحسستُ ، لأول مرة ، أنني أضعت حياتي . أضعتها . أو أكاد . ولم يكن في وسعي سوى الصراخ . وبهدوء ، بلا انفعال . بلا ضجة . بعيداً . عميقاً . بشكل أساسي . جذرياً . جذرياً . كان علي أن أتغيَّر مذ ذاك .

لست أدري كيف تخلصتُ مني ، وإليها مشيت . مشيتُ صامتاً حتى مناخ المرأة المنكوبة . وبمودة غريبة رفعت الشعر ، والأيدي الممدودة ، والصدر الناحل المنفوخ ، صدر المسلول القديم وأخيراً المَنْكَب ، كله . وبهمجية لم أتوقعها منها مسَّتْني . مسَّتْني لمساً . مستني شمّاً . مستني لَمّاً بعد لمّ . وبحمية صرخَتْ باكية : يا خُويْ هذا هو أنتَ؟ يا خُويْ؟ أرادت أن

تمسك بي ، كلي ، كما كانت تفعل من قبل . أن تأخذني إلى عمق دارها . دارها الصغيرة التي لا تحوي شيئاً سوى الخراء والأسمال والدِنان الفخارية المكسورة . وبها تَبْطحني كما من قبل . آه! أين اختفى ذلك الوقت الصِمْلاخ؟ ولماذا تستمر ناحبة حتى بعد أن لمستني؟ أيكون الموت مخيفاً إلى هذا الحد؟ وبدلاً من أن تركض ، صارت تزحف على طيزها الصحيف ، ماسحة وجه الأرض مسحاً ، ويداها تمتدان ، كالمذاري ، هنا وهناك . مع الزحف المستميت ، بدأ لهاثها يعلو ، وهي تدور ، حولي ، وتدور . تدور وتحكي كلاماً لم أسمعه . وفجأة هَوَتْ مُنْدسّة في التراب . هوتْ والبَلَل يغطيها . الزبد الذي انبثق مثل زبد البعير الهائج ، من شقوقها ، كلها ، أحاطها بجو أسطوري مخيف . زبد الموت . زبد السل القديم . زبد الوسن الملازم لها منذ أعوام طويلة . زبد الغثيان الذي لا يحل عقده إلا الموت .

من لمعة العين المريبة ، رأت «طرفة» ما حدث وما لم يحدث . رأت الأشياء كلها . رأت الموت واليأس والجنون . ورأت ، ربما ، تَبدُّلي الطارىء . التبدل الذي حشاني بأشياء كثيرة وغريبة . أشياء لم تألف طرفة شيئاً منها ولم تعرفه . كنتُ أريدها أن تخبرني أين اختفيتُ ذلك الليل . مَنْ أخذني إلى الحقل البعيد . من أحرق الكتب والدفاتر . مَنْ هشَّم الخيزرانة فوق جبهتي . مَنْ قتل ملك . وإلى أي أرض غدا عباس . لكن الموت الغادر شلّ طاقة الحب والكلام لديها . الموت والحب لا

يجتمعان . ذلك ما عرفتهُ الآن . أتوكّأ على زنديٍّ السقيمين وأبدأ الوقوف ، إذن . أقوم . أمشي . أبتعد . أعود . لا أعود . أكون في المكان ولا أكون . ألعن الصمت والسكون . الآن ، صرت أعرف أننا لا نختار لحظة الانعتاق . التمرد ، هو الآخر ، كالموت ، يجيء دفعة أو لا يجيء .

وكأنني أردت أن أعتذر عن ذنب لم أقترفه ، لم أقترفه بعد ، كدتُ أبكي . ولكن أبكي ممن؟ وعلى من؟ وهزت «طرفة» رأسها بلا اقتناع ، حتى ، قبل أن أقول شيئاً . كانت الأمور تتراكم بسرعة هائلة . أمور لم يخطط لها أحد منا . ومع ذلك ، رَكِبنا شرها رِكْباً . ورأيتُ ، روعاً ، سواد العينين يختلط بسواد الشعر : الشعر الأسود الفاحم كِثْلم عميق . ماذا كان يعني ذلك الشعر القاتم غير حب الوجود! أي عذر يمكن أن يكون مقبولاً بعد اليوم؟! الناس! كلها تعرف ما حدث وما لم يحدث بعد!

وحدنا كنا نقف وجهاً لوجه في بر اللّه الواسع ، بَرّ ابن جليوي ، بَرّ ابن الكلب . وأحدنا يحاول أن يخفي عن الآخر ما هو ليس بخاف عليه! كان الأمر يثير القرف والبكاء معاً . وبشيء من الحرج البالغ والرهبة الغامضة ، أحاطَتْني . أحسستُ برجفة صاعدة تملأ أركاني . رجفة جعلَتْني ألتوي على نفسي التواء . ألتوي ، وأنا أحيطها بيديْ . أحيطها وتحيطني ونحن نتجه نحو الخراب . صرتُ أدرك ما كان

ينتظرني بعد الآن . صرت أعرف ، ولم تكن تلك صدفة أبداً ، أن موت ملك سيعودني ، من جديد . موت الرجل المنتصب على عصاه . موت أشجار الحور التي ظلت تحيط به إلى الآن . ومع ذلك لم يتركني الاعتداد الآسر بالنفس . ماذا كان عليَّ أن أفعل ، إذن؟ أو ليس الاعتداد هو الآخر ، نوعاً من الارتداد؟ لكن تلك الشحنة من الغضب والخوف ، والتي لم تتوقف عن مُطاردتي ، أبداً ، تبدلَتْ فجأة . تبدلت حقاً ، ولست أدرك ، بعد ، كيف . ولا بد أن «طرفة» أحست ذلك التبدل الجواني المُرْبك . إلا أن إحساسها العنيد بوجوب انتصارها : انتصار المرأة التي هي كل شيء في عالم مهدد بالانهيار ، هو الذي دفعها إلى متابعة هذياناتها المخيفة . هذيانات الخوف المستبد : يا خليل ، يا حبيبي ، الدنيا برد . الدنيا برد وعذاب وخراب . الدنيا عذبتني عذبتني وعذبتك وعذبتها وعذبته .

ولم أعرف ما أقوله لها أولي . الضوء الهائل الذي انبثق من بين الدور القديمة ، فجأة ، سدَّ عينيّ . الضوء العنيف الذي انطلق من عِقاله ، آنذاك ، غيرَّ كل شيء . غيَّر الوقت واللهجة والامتثال . وحده ، النظر الواجف ظل يلازمني . فلتَحْكِ ، هي ، إن شاءت : فلتحك عن الليل . عنها . وعنهم . وعن كل ما يَعَنُّ لها على البال . ولتَحْكِ عن ملك أيضاً . وعن الدرك والهَجّانة والخيزرانات والبنادق والأعناق المربوطة بأرسنة الأحصنة الهائجة . أحصنة العساكر الخُبثاء . لتقل ما تشاء . ما

تشاء . لكنها ارتجفت كلها ، وهَبّ القول منها هبّاً : أريد أن أتحدث إليكَ . إليك . منذ البارحة لم آكل ولم أشرب . منذ البارحة وأمك تنتظرك في القبر . وستظل تنتظر حتى تجيئها أنتَ . أنتَ تعرف ذلك . أمك ماتت وهي تهذي بك . تهذي! تهذي وأم ملك الذي هلك ، هي الأخرى ، تهذي ، فلتهذ في القبر كما هذَتْ في الصبر . لا ، لم أعد أريد أن . . وملأتني بنظرتها الهوجاء : أمك ماتت غمّاً . كانت تعرف أنهم أخذوك .

أخذوني؟ صرت أتعجب . أخذوا ملك . أخذوا الرجل الذي ظل واقفاً في الحور بعد أن اخترقته الرصاصة الحادة . أخذوا اللص الشهم : عباس . أخذوا كل شيء : الأرض والماء والبئر والنباتات والأحجار وحُفَر الجصّ الأبيض واللوازم والخردوات . أنا أيضاً أخذوني! لا . لا أريد أن اتحدث إلى أحد بعد الآن . كل ما أريده هو أن أمشي ، وحيداً ، في برودة الصباح . أن أرى الأفق وحدي . أن أساير الخابور الهارب نحو الجنوب . أن أرى العالم ، وحدي ، شفقاً . أن أحطّه ، منذ الفجر ، فيَّ . ألا ترين الشغف في كفي ، والوجد في عينيَّ؟ ألا ترين أنني ، أنا الآخر ، على شفا الموت؟

وشدا حولي صوتها القديم : لا! تعال . تعال ، أحكِ لكَ الحكاية من أولها . الحكاية بالتمام . الحكاية القديمة ، نفسها؟! لا . لا؟! تعال اسمَعْ ماذا قالت لي قبل أن تموت . لا . لا أريد أن أسمع بعد الآن ، فهمتِ؟ لا أريد . لا أريد . سئمتُ حكْياً

وكلاماً . سئمت . أريد أن أشقّ ثوبي . أن أرى ملك . أن أرى عباس ، يا ناس! ولم تدعني أقوم . لا - تعال اسمع : أخذوه من هنا . من قدّام البيت والدنيا مطر . والحالول يرتمي مثل الكَدَر والحجر . أخذوه بالجَبْر والقوة . على رأسه ضربه الكلب ابن الكلب . ضربه بالخيزرانة الطويلة المدهونة بالشحم ، المذيَّلة بسيور الجلد القاسي . خيزرانة «أبو اللَّسْع» المشؤومة نسيتها يا خليل؟

صرتُ أكتم الألم والوجع . وهي تتنحّاني . تتنحاني حتى صارتْ في وجهي . ومثل الذي أصابه مسّ ، حفَزْتُ منهزماً إلى البر : لا . لا أريد أن أسمع . لا أريد . وابتعدتُ كالبرق . اختفت عني الدور الواطئة(*) ، فوراً . ولم يعد يلمع في الأفق إلا أغطيتها التوتيائية الصدئة . ومع النسيم الوليد صار يجيئني ، حَييّاً ، صياح النسوة الهابطات من رأس القاع : قاع الحَمْزات اللئيمة ، وهن يحملن ، وَهْناً على وَهْن ، قدورهن

(*) يسكن الراوي في حي «غُوَيْرانْ» (وربما كان للاسم علاقة بالغيران الكثيرة التي تملأ وجه القاع ، وبخاصة مَحافِر الجَصّ ، ومنابِش الأحجار البيض التي كانت تستخدم لبناء البيوت الأنيقة في المدينة) . وكما قيل من قبل ، هو حي هامشيّ من أحياء التنك والقصدير ، وبخاصة في تلك الفترة الأولى ، مرميّ بعيداً في جنوب مدينة «الحسكة» التي كانت ، هي ، نفسها ، مدينة هامشية بامتياز ، مع أنها كانت «عاصمة» الغلال الأساسية لكل سوريا ، وبالخصوص القطن والقمح والشعير والخضار .

المليئة باللَبَن والحليب . وكالعليل استلقيتُ على الأرض ، وصرت أتنفس القاع نفوساً . نفوساً . أتنفس التراب والعشب والندى والأشواك وأحجار الأرض الكسيرة والحشرات الراكضة إلى المجهول .

كان سطح الماء الناشف ، يلمع ، غرّاً ، في ضوء الشمس . آه! الريح . والخلاء . والرهبة الغامضة المخيفة . وسطح النهر الأملس القرمزي! وكالمجنون أنحدر ركضاً حتى النهر . أريد أن أشرب . أن أشرب . ولم يكن ثمة إلا الأعشاب البائسة الصغيرة ، ذات الأشواك المكبوبة على الماء . الكون كله خال : من دار السَمّاك إلى بيت القصاب . آه! غريباً كان سكون الكون ذاك الصباح!

التمرد قد يعطي ثماره ذات يوم أما الخضوع فعقيم .

يمكن أن نتعلم كل شيء : نتعلم الانتهاك كما نتعلم الانصياع .

وليس بعض الظن إثماً .

في شرودي المناوىء ، ذاك ، رأيت النباتات الآكلة اللحم! نباتات شوكية خانقة الرائحة ، تبزغ من بيت الجسد المنهوك : جسد الفطائس المتراكمة منذ قرون . كيف بزغَتْ تلك النُبيتات من بين الضلوع المقوسة المتروكة للريح؟ وكيف عمَّرتْ رؤوسها

بورُيدات بنفسجية ندية؟ وأين كانت تقطن هذه الديدان السرية الآخذة بالنَميان؟!

وبالقرب من دار «السماك» الأحدب - أبو الطيزين ، كما يسمونه - رأيت أشجار الخرنوب البريّ تستعمر الفضاء : السماك المهووس بالتربة والتراب ، وحده ، كان يعتني بالشوك . ووحده كان يسقي الخرنوب العاقر ، ويداعبه بحنان! خرنوبي ولا حنطة ابن جليوي ، يردد باستمرار . ومن أين تأكل يا سماك؟ آكل ماء . وأشرب ماء . وأبول ماء . وأخرأ ماء . يشير إلى إسهاله المزمن الذي لا يكف عن المروق من مؤخرته الهزيلة . يشير ، وهو يردد باستياء : الدنيا كلها ، في طيزي . أخذوها أولاد الكلب . أخذوا كل شي الميت والحي .

وبغتة ، ينطلق الصوت من حلقه مثل الطلق : خرنوبي . خرنوبي . حُبّي ومحبوبي . يصير يغني ، وهو يتأوه مختفياً في الريح ، مقوّساً ، أكثر فأكثر ، ظهره الذي لم يعد ظهراً . ومن آن لآخر ، يناجي الغيم العابر ، في هواء الصيح الشثني القارس : يا غيم ، يا غيم ، هل أنت على العهد القديم مقيم؟ إن بِلْتَ بلْنا وإن جَفّيتَ جفّينا ، وإن هطلت فإنا قد تكافينا .

إذا كنا بقينا هناك ، في ذلك العالم القديم ، فلأنه جزء منا ، ولأننا نخصه ، ومع ذلك ، ليس أمامنا إلا انتهاكه وتحقيره .

التمرد طاقة حاقدة ، والخضوع طاقة خامدة .

قوة الوعي تسيطر ، وقِلّة الوعي كذلك .

القطيعة لها طعم الحياة ، والانصياع له طعم الموت .

الآية ، عكس الآية .

من قطب الكون الساكن ، أخذني الصوت . الصوت؟ بلى صوت الكلام الراكض الكئيب : صوت أصوات الحمالين العُضُل وهم يتغالبون . الحمالون التعساء يتسابقون ، كحيوانات هائجة ، تريد الوِرْد : مَنْ يشيل أكثر؟ مَنْ يشيل أثقل؟ مَنْ ينتع الجوال نَتعة واحدة . مَنْ؟ الحَمّالون يتبارون فعلاً في حَمْل الأكياس الرهيبة : أكياس الحنطة الصفراء . حنطة ابن جليوي حنطة ابن الكلب . يتبارون بحماقة وعناد! وحمْلا فوق حمْل ، تصعد الأكياس المحشوّة بالحُبوب . تصعد على ظهررهم حتى الليل . حمول ترتكي بأبهة على أسفل الجذع . ومنه ، ترقى عالياً حتى الرأس . تحتها ، يبدأ النَوَسان والغرغرة والبصق والاحتباس . ومنذ الخطوة الأولى ، يغلب القرف والهَلَكان عليهم : آه ، انكسر ظهري . هذا آخر حِمْل أشيله . ومع ذلك ، يعيدون الكرة أكثر من مرة . يعيدونها! يبيدونها ، بالأحرى . وخطوة ، خطوة تمتلىء السراويل النيلية الغامقة ماء وعرقاً وانصبابات . وتنتفخ الأفخاذ . وتتوسع الإلْية بعد الإلْية . ويغدو

الحالب خيطاً من الوَبَر والصديد . وأخيراً! لا يبقى بأيَديهم إلا تلك الكلاليب الفولاذية المسنونة ، التي يغرسونها بحقد وإصرار في أجواف الأكياس التي لا يأتون على آخرها ، أبدا : أكياس ابن الكلب ، لكأنها تنبع من القاع . من أين له بكل هذه الأكياس ، يا ناس؟ يرددون وهم يصطفون بخنوع ، أمام كميونات «البيريللي» و«البوزينغ» الطويلة ، ذات الخُطوم المعدنية الرهيبة . يصطفون؟ يكادون يأكلون بعضهم بعضاً : أنا أول من يشيل . لا ، أنا . لا ، أنا . لا أنا . أنا . آه! الجوع والكسل لا يجتمعان . وهم يفضلون الموت ، على الموت جوعاً ، يا ناس!

عندما يختفي التصور الشخصي للعالم من الذهن ، ولم تعد تحرك الإنسان الرغبة في تخريبه ، فإن الكتابة تغدو عبثاً وبلا معنى .

كلِ حقائق العالم الجامدة ، لا تعادل عندي ، انفعالاً واحداً .

مَنْ يحاول أن يفتح صفحة جديدة في عالم قديم غير أحمق عنيد؟!

أتشبّثُ بالأرض : هذا النداء المختلط بالصوت والضجة ، علام؟ «طرفة» من جديد ، تناديني!؟ تناديني من أعلى ومن أسفل : تومىء لي . تريدني أن أجيئها؟ مَنْ ولد الآن! مَنْ مات؟ من فرَّ ، أو استقر؟ وأومىء لها بذراعي الهزيلة : لا . لا

أريد أن اجيء . لا . لا . وبلوعة متناهية تومىء لي ، من جديد . تومىء لي من بعيد ، ومن قريب ، معاً : بلى . تعال . تعال . ودون أن أهتم بإصرارها ، أتابع المشي الهوسيَّ على حافة الما . الماء ، هو الآخر ، يمشي بلا توقف . الماء الغاطس في جوف القاع ، يرجع إلى الماء . ويرتعش جلدي من رطوبة النهر صُبْحاً : آه ، الماء يرقى إليَّ . يلفُّ دار السماك . يمتزج بإسهاله العديد المتواتر . يبلل الوقت والأنحاء .

أزتُّ نفسي فيه . أصير ، أنا الآخر ، ماء . وبعنف لَطَمَتْ «طرفة» رأسها وثدييها . وسدَّتْ بيديها فمها المدهوش ، وهي تلاحق دوائر الماء البارد ، التي صارت تتسع ، وتتسع حتى الانغمار . كنتُ أخُشُّ النهر خشّا عميقاً . ولم يكن ذلك بالمستطاع . انحدرَتْ راكضة مثل كرة من الدخان . شعرها يتطوّح يمنة ويسرة . وعيناها مملوءتان دمعاً وتساؤلات : جاؤوا يدورون على عباس!

وأخرج مبلولاً ، كلي : جسداً . روحاً . أفكاراً . وأمنيات . أخرج ، مرددا ، بخوف واضطراب : هم! مرة أخرى هم؟ وتُقبِّلُني ، بحنان آسر على وجنتي المبلولة ، وهي تطمئنني باعتداد : يذبحونني ولا يأخذون أحداً ، تعال ، لا تخف ، تعال . اللعنة ، هم ، فعلاً . هم! ويتراؤون لي من بعيد : هيئاتهم لئيمة غريبة ، تثب في الجو وثباً . أطرافهم طويلة تكاد تصل الجبل والخابور . عيونهم حمر براقة كالجَمْر . حولهم ، يكتظ

الناس اكتظاظاً ، كأنهم مدعوون على عرس! الناس ، أيضاً ، يحبون العنف والهمجية . يُقدِّرون التمرد ، ويحتقرون الانصياع . فكرتُ في هذا وأنا أتهيأ للانطلاق . وكأنني لمحتُ في عينيها السوداوين اللتين وقعتا في عينيَّ ، تواً ، أمراً آسراً وصريحاً : امش . امش . ورأيتُ ، لمحاً ، رفيف شفتيها اليابستين ، مثل شَفتي عَباس الهالك . رفيف الشفتين المليئتين حقداً واستياء . ماذا يقول الرفيف؟ ماذا يقول : لا تَحْنِ رأسكَ لأحد ، لأيّ أحد ، يا خليل . لأي أحد . وإذن فلأقفز الآن ، وفي التو . أقفز في الفِرْقَة بين الرجلين . لا . لا أريد أن أحيا بعد اليوم ، ظلماً .

كنا نقف على أفضل الطرق للاختلاف ، أكيداً . أفضل الطرق لاقتراف القطيعة . القطيعة النهائية التي لا يمكن لأحد ، بعد الآن ، استيعابها : القطيعة بين الرعية والراعي . وإلى الآن ، لا أعرف متى حدث ذلك ، ولا كيف : بَرّ . فضاء أزرق بعد أزرق . ماء . سماء . فوران . تَقطّع . بلل . بلل وغبار . بلمح البصر ، حدث كل شيء . وبلمح البصر ، كنتُ أهبُّ ذائباً في القاع . وبعيداً أمدُّ يديَّ كلتيهما ، أتناوش بهما الصخر البريّ الضامر : صخر جبل «عبدالعزيز» . صخر الجبل الغربي المشويّ بالشمس . الجبل الأصم الأبكم . الجبل الهادىء الراكن في البطن . جبل الرُعاة والحوّافين . الجبل الوتد . لا ظلم ولا حسد . لكن الجبل واقف لا يجيء . جامد لا يتحرك . آه! هو

الآخر ، أصيب بالضربة القاضية . وإذن ليس أمامي إلا الوصول إلى الغار : أفوت أو أموت . وكالمسحور ، أتسطّح . أغدو تراباً وثّاباً . وفجأة ألج الشجر : شجر كثيف مَرْويّ مرتبط ومسدود . شجر يولد من شجر : شجر البُطْم العتيق ، بأغصانه المنخورة ، كالأنفاق . شجر ، كله ، شجرة واحدة ، لا غير!

أتسلق الشجرة إذن : شجرة القمة الجوفاء ذات البطن المَنْهوش مثل بطن البعير . آه! ها هي ذي أخيراً ، شجرتي العتيدة . الشجرة التي أكلتُ من أغصانها الطرية عاماً بعد عام . والتي ، من مسحوق أوراقها الناشفة ، ضمّدْت ، جروح عباس وآهاته . بلى! إنها هي . هي الشجرة الحامية . الشجرة العامية . فلأدخل ، إذن . فلأدخل . وفعلاً ، ألج الجوف ، حتى الشوف .

وقبل أن يرتد بصري إليَّ ، رأيتُ الهيئة المخيفة الغاضبة : آه! الحية العمياء المهيبة ، نفسها ، لا زالتْ هنا؟! وأرتدُّ ذعراً : الأفعى السليطة ، أفعاي السميمة نفسها ، لا تزال على العهد! أي ريح جاءت بها الآن؟ وكيف لَمْ تبرح المكان؟ أيكون عباس هو الذي أرسلها الحين بعد الحين؟ بلى إنها هي ، هي فعلاً : ها هوذا غَبَشها يُعْمي العيون . والحماء المنطلق من إهابها الأملس يملأ النفس بالقشعريرة والرَجف . وكأنها عرفَتْ ، فوراً ، ما بي ، ومَنْ هم ورائي ، وما أطلب وما أريد ، ارتكَتْ ، كالملك الجسور ، على حالها . وصارتْ تَصُنُّ . كان دبيكُ الأحصنة الملجومة يهزُّ القاع . لكن الحيّة العتيدة لا تعرف الخَوف . وأزحف ، ألاقيها .

أحتمي بها . أخشّ الغار . ألطأ تحتها حتى يروح التتار . وفعلاً تزحفُ الحيـة على بطنهـا . تسـدّ الغـار . تقف بالانتظار! تقف على ذيلها الأرقط ، كالعمود الواقف في البر . تنتظر الأمر لتكرّ وتفـرّ . آه! تعـالوا ، يا أبناء القـحـبـة . تعـالوا : صـرت أصـيح . وأصيح .

(٥)

تظهر الشمس من جديد! متى كانت الشمس تغيب؟ تظهر أو تغيب ، أي فرق؟ أي خرق؟ بلى . ها هي ذي الشمس اللعينة نفسها ، تبزغ من بعيد . من المكان القديم ، ذاته . من طرف الكون المَحْلوم . من البؤرة المستورة . من الثغر . وستدفع بي ، مرة أخرى ، إلى الهاوية : هاوية النهار الكالح والمشؤوم . صرتُ قديماً وأنا لم أتجاوز السنوات . وغريباً وأنا لم أقطع إلا أميالاً . ومغامراً وأنا لم أنتقل إلا من المرعى إلى المَقْعى . لِمَ الخشية إذن؟! قوة الحياة الخاسرة هي في أن تخسر كل شيء : الماء واللغة والاحتشام . وأصير أتحسس ، بحرقة ، أوائل المكان ، أوائل الكيان : آه! مرة أخرى هنّ؟ مرة أخرى ، يجئن! هن ، جميعاً ، وبلا استثناء أعدُّهنّ هذا الصباح الباكر ، أيضاً ، واحدة بعد واحدة : حمالات الحَطَب والخشب والخاثر والبَعْرور . بياعات الخواتم والمحازم والعُقود . أمهات العجوز القليلة والأطياز الثقيلة . الرقاق والسمان . الطوال والقصار . المَرْبوعات والمَدْقوقات . الملساوات وذوات البثور . وبعد ، يصلن لابسات الحُجول ، الفضيلات . حجول الفضة اللماعة في ضوء

الشمس . وفي الصف الأخير يمشين بنات الأصفر والأحمر والخمري والرفاف . آه! في وهج الشمس القاهر ، ذاك ، كانت تخالط الألوان الأحيان . وتتمايل الخُصور . وتتحرك الأقدام . وتتساحق الأفخاذ . وتهتز الأوراك بسرعة متزايدة . أوراك الخَتْلة والفَتْلة ، أوراك الخابور اللَّعوبة ، كانت تهتز ، حقاً ، ذاك الصباح .

كانت النُهود تعلن عن أقسى حركاتها وأكثرها فتنة . نهود المتتابعات ، المترابعات . بلى! في ذلك الوخم المتراكم ، وخم غوُيْران ، الذي لا يستقبل الصباح إلا بالنباح ، كانت تشتد حركات الأعين والألسن والأطراف : الناس كلها تتسابق إلى الجسر! الجسر قبل أن يسدّه المدير ، وحاشيته اللئيمة ، حاشيته الجامعة المانعة . حيث الإشارة لا تغني عن العبارة : ارجعْ يا كلب! ينهي الحارس الرجل العابس . آه! الحَيْرة التي كانت تركب الوجوه ، قبل العبور وبعده صارت تُخيف الناس : الجسر بَسْ للدولة! ونحن مثل الغنم نحور وندور . نريد العبور ، والعبور ثُبور . الخاثر يبس . والحطب نشف . والجَلَّة(*) صارت مثل التراب . والزلّ تقصَّف . والصوف صار أخفّ وزَناً . والْحنطة جافَتْ . وأقدامنا الواجفة منذ أول الليل ، صارت خَشَباً حَشَباً .

(*) الجَلَّة ، هي روث البقر الناشف الذي يستخدم للوقود ، والتدفئة ، وكذلك لخَلْطه مع الوحل لصنع اللِبْن الذي تُعَمَّر به الدور الواطئة .

وكـالعـادة ، من وقت إلى آخـر ، يُسـمع الصـراخ . صـراخ الخَلْط والمَلْط . به ، يمتزج صوت يُقارب الهَرَج والشُغاء : خُدوني إلى القـيـروان . خـذوني إلى البـيت . خـذوني إلى الأقـصى . خذوني . إلى النمل ، خذوني . الأعمى يصيح وهو يمدُّ أقراص المشـبك البـائت ، وقِطَع السكاكـر المليئـة بالخيـبـة والذباب . يصيح؟ لا ، يغني : خذوني إلى القيروان خذوني إلى الحرام ، إلى المقام ، خذوني . وأكرّ . وأفرّ . وأبتعد . وأقترب . وألامس أطراف الأعمى السيالة وأحس رائحة بوله الزنخ . وأمس هدومه وبقـايـاه . آه! السكاكـر المنثـورة على الأرض تفـتح النفس . والمدوَّرات المرصـوف بعـضـهـا فـوق بعض ، تُلْهب الشـهـيـة والانحطاط .

ذلك النهـار ، أيضـاً ، كـان عليَّ أن أمشي حتى الغيـاب . أن أمشي الخطوة تلو الخطوة منتظراً ، عبثاً ، كـما صرت أعرف الآن ، حدوث ما لن يحدث ، أبداً . ومع ذلك ، وبرغمه حتى ، لم أكن أستطيع أن أقاوم . أن أقاوم إلحاحاً أسود صار يستبد بي ، يستبد بي منذ زمـان : إلحـاح الشـهـوة الآسـرة . شـهـوة الوجه الأصـفـر الناشف ، والعيون الحور الكرّارة الفرّارة ، والمشية الملغومة ، مشية الحَجَلة النصـرانيـة ، بنت النصراني : كـان اسـمهـا «آديل»! بلى «آديل» . ألوُكُ الاسم ، وكـأنني ألوُكُ الجسم . آديل ، الشـيـوعـيـة الحمراء ذات النعوت الكثيـرة والأوصاف التي لا تحصى وبغتة . ينفلت الصراخ : يا آديل ، با بنت الكلب . يا آديل!

بقوة ، أضع يدي على الفوهة التي صارت ، فجأة ، مخيفة : أسدّها . فوهة الجسد الذي لم يعد يريد أن يعود القهقهرى . ولا أن يخـمـد . ولا أن يصـمـد . ولا أن يكر . ولا أن يفـر . آه! الوسواس الخناس ، ركب النفس يا ناس! صار يصيح ويصيح . وفي عنف التلاقي ينبثق من الحضيض صوت أعمى القيروان : اخطفوني . خذوني إلى الجنة . إلى القيروان ، خذوني . وسريعاً يدعم اللَجْع بالفَجْع : هنا الحلو يا حلوين! مشبك الجزيرة والفرات ، يا باشات . أحسن مشبك في الشرق وفي الغرب . ذوقوني . ذَوّقوني . ذُقِ القيْرَوان يا حيوان . وتروح الحسرات النارية تعلو في الهواء الطلق ، واللهاثَ يتلو اللهاث : يا ناس الرجل انجنّ ، انجنّ الرجل يا ناس! والرجل يتخبّط في الفضاء القاحل . يدُوّر على شيء لم يعد يلقاه . يحثُّه على الكرب والانتصاب ، واللعاب يسيل تلو اللعاب . ويهوّن عليَّ الأمر : تعال . تعال . خلّهم يحكون . تعال نذُقْ طعم الحياة! طعم آديل السمراء المفتونة ، ذات الازرقاق المهيب ، والأوراك المَبْرومة بَرْماً .

بلى! آديل الغاوية التي تمر ، في السراب القصيّ ، مع الريح . تمر طائرة مثل برق الصيف . ترفع ، بدلال ، أذيال شعرها الغزير . وتدفع بنهديها إلى أعلى وإلى وراء . آديل تحفظ ، هي الأخرى ، دروسها الثانوية ، مثلنا . وهي مثلنا ، أيضاً ، تنادي في المظاهرات ، بصوتها الحاد الناسخ : يسقط الاستعمار . يسقط . وكالعادة نقترب منها ، كلنا . وكلنا ، معها نصيح :

يسقط . يسقط . لكن ، رشام الناحل ، وحده ، يقترب منها أكثر . أكثر ما يمكن . ونصير نرى ارتفاع عظام صدره اللّين . وعدم انتظام تنفسه الحادث . وزوغان عينيه الكليلتين! آه! من أين يولد الشغف في النفس؟ وكيف يصاب الإنسان بالإنسان؟ وأي شيء يسيطر على حركة المرء ونشاطه؟ ومن يبعث الرعب والارتباك في أوصال الناس ، عندما يرون إلى بعضهم بعضاً؟

وفجأة . ينقلب الوَمْض حَمْضاً . وبشراسة يَدْهُمني ألم الشُرْسوف . وأنخرط لمعاً . أبحث عما يلْمَس وعما يُلْحس . أَلحَقُ العْطر الآسن . عطر الانثناءات السرية الشائطة من الحر . العطر الممزوج قطْراً . أبحث عن أي شيء . وعن الأشياء كلها في آن واحد .

اللعنة ، أكاد أموت جوعاً! وهذه الشعَيْبيّات والحلاوة البَرْقاء الليّنة مثل جلْد الحنون والفطائر الدائخة من الاستواء واللحوم الحمر الزاهية التي غدت قُرْمُطية من شدّة الشيّ والأخبار والخضروات والفواكة والمعاجين الملونة والأمواء العديدة الأشكال ، كلها قدامي! وكل ما تحويه دكاكين الحسكة ومحلات الجزيرة والفرات وأبواب الفنادق والخنادق والاستمارات ، ولا شيء يؤكل!؟ لا شيء يشرب؟ لا شيء أسدّ به الرمق؟ لا شيء على الإطلاق! لا ، لا شيء ، أبداً ، سوى الصوت! صوت حزين ملتهب مذبوح . صوت الحرامي المجروح؟ وبقسوة يخبطني «هواد» : اسمع يا خليل . وأصيخ

السمع : «عَمّي يا بياع الورد ، عمّي يا بياع الورد ، كلّي الورد بيش؟ كلّي . أصدّقُ؟ لا أصدّق؟ أركب الحسكة والأنحاء؟ أقفز الخابور؟ أسبح الجَغْجَغْ؟ اخرج من العالم كله؟ لا ، ادخل الدور الملتوية المحشورة في القاع حَشْراً . الدور الكليلة المعتمة التي لا تقبل الريح . وأحس البغض يأكلني : هذه الدور اللعينة مَنْ سوّاها ، من سطّرها ، وأرساها؟ وعالياً ، يقفز هواد : «سودان» رجع! سودان! وأظل صامتاً . صامتاً والاسم يتكرر بلا انقطاع . ومن جديد ، يزعق «هواد» : جاء سودام ، وبسرعة البرق يصحح : جاء سودان .

ولا يدع الصوت الشجيّ مجالاً للالتباس . سودان عاد . حقاً ، عاد . سودان ذو الوجه الأسود الكظيم . والشفاه المتكدسة كشرائح الباذنجان . سودان ذو الهامة الكبيرة ، والأقدام المغبرة . راعي الدواب ، ومغني الشباب . وأتنصّتُ : الصوت ينبع الآن من أين؟ من البر الغربي . من بين الحيطان الواطئة المثولة . من الطرقات المسائية التي أخذت تخلو باستمرار . وكشبحَيْن ، نصير نخترق الأزقة والحُجب . نَلْتوي مع الدور . نتبع الصوت حتى الفَوْت . وفجأة ، يُهلّل سودان : يا هلا بالعِجْيان . وبلهفة العاشق ، يبعد زُمّارته الخمرية اللون ، المصنوعة من خشب الزَان . يبعدها . يوقف العزف . يتملّى العتمة . يُسبِّحُ . وأجد نفسي محضوناً : محضوناً ، حتى الضَمّ! يد «فطّوم» العرافة تتلقفني من يد سودان . فَطّوم تحدث اللهفة في القلب

والعينين . يؤلمها الاصفرار القاحل الذي يتراءى ، الآن ، بعد الآن ، في الجلد والأحشاء . وبتواطؤ آسر ، تهمس العَرّافة السمراء ، ذات الشفاه المنفوخة من الشبق والقيظ ، تهمس في الدمَاغ : «غَرْنوكَة» تدوِّرُ عليك . غَرْنوكَة(*)؟! أشهق . أشهق . متى أزفر؟ أحسُّ النفس يتوقف في منتصف الطريق . النَفَسُ الغريق : غرنوكة! غرنوكة ذات الشفاه الترابية ، والفم الرحب الكبير ، بشقوفه الممتدة شرقاً وغرباً! الفم الشهواني الآسر ، والوجه الكاسر ، مثل وجوه الخيل الجافلة ، ليلاً . غرنوكة ، ذات النهدين اللينين القاسيين المرميين جنوباً وشمالاً وعلى الأنحاء . لا . أكاد ألمس الطول القاسي . ألمس الثغر والبحر . أتحسس المشية الملتهبة : مشية التورّط الثقيل . وأي شيء آخر يعنُّ على البال؟ تسأل العرافة السوداء . تسأل وترميني في ارتخاء البدن واشتداده . العرافة الأريبة تدْنيني . تحضنني ، وتسقيني : اشرب يا خليل . اشرب . الآن أجيب لك البنت . الآن ، تعال . تعال . اشرب . ومن خلل الظلام الذي غدا الآن دماساً ، ألمح الأزوال : حِسّ الزُمّارة جَلَب الغائب والعاتب .

سودان يلوذ بعينيه . يَحوز الظلمة والنور . يعرفُ فن المساء وخطواته . يعرف أن غرنوكة تسمع الصوت ، وتعرف الماشي عليه . وعميقاً ، يتنهّدُ سودان : آه ، يا عَجي ، آه! وينفتح فمه

(*) مفرد «الغَرانيق» . وهي قد تكون أول حُبّ «ملموس» عند الراوي . أبوها يعمل حارساً في «كرخانة الحسكة» . وكانت بيوت الدعارة ، آنذاك ، مسموحاً بها .

المنتظم المسلوب عن أسنان صغيرة متآكلة . ينفتح وينغلق في التو . وفي التو ، تلج الباب غرنوكة : غزالة سمراءِ مذعورة! لماذا تركتنا بعد أن تجهزّت(*)؟! لماذا ابتعدت؟ معك الحق! صرت تمشي ، الآن ، في المظاهرات في الشوارع المليئة ببنات المدارس ، الكاشفات صدورهن باستمرار . نسيتنا يا خليل؟! وأحس بحضن غرنوكة اللين والمديد يمتلىء بي ، يمتلىء بي . وأمتلىء به ، والعالم يخلو . بلى! يغيب الحاضرون ، فجأة ، ويذوبون . كم مضى من الزمن والعنّات؟ أين رحنا؟ شرّقْنا كثيراً وغرّبْنا . سافرنا ليلاً ، ومع الشفق عُدْنا ، غرنوكة تَنود كما الناقة المنهكة ، وأنا أترنح الجسد والروح .

آه! تلك المرارة السافلة ، التي كانت تحرق النفس ، آنذاك ، لكم أود حرقها الآن . وحده ، هَوّاد كان يتمتم متحسراً : تأخرنا ، يا خليل . تأخرنا . عن أي شيء يا هواد؟ عن اللمسة والخرتيت؟ عن اللوحة والقضبان؟ عن الليل الذي غدا الآن نهاراً ، جهاراً؟ ولا يبتسم . ولا يبتسم هواد : اشمئزاز قاتل يُلوّح صفات وجهه ولحائه . هواد يدور في الرقعة والغدير . يعرف الجيفة والخيفة . يريدنا أن نمشي التو . أن نغادر البقعة والأنحاء . أعرف ما يشغل البال وما يشوش الحال . ولا أمشي . بحر من الغموض ، يلفّني . يلقيني البحر في يقيني : حُبّ

(*) تريد أن تقول بعد أن صرتَ طالباً في التجهيز (المدرسة الثانوية) . وكانت تجهيز الحسكة ، آنذاك ، هي الثانوية الوحيدة لكل محافظة الجزيرة .

الصبا قَتّال . وأحس بقلبي يرتجف من القشعريرة الملاصقة للبرد . قشعريرة شيطانية أخاذة . عيوني تمتلىء دمعاً . شيء يشبه الشبق الكاسر يأكل أجوافي . أعضائي تمتلىء بتوتر خبيث يشبه أمثولة القتل والحكاك . أريد أن أصل البئر . أن أشرب الزمزم والربيع . أن أشتري وأن أبيع . أريد أن أصل الهاوية . أن أضع غرنوكة في بطني ومعها أروح . أروح ، إلى أين؟ إلى أين تريد أن تأخذني يا خليل؟ وفوراً ، أفهم اللغة والمناخ . وأهجم من عمق اليأس والتشنج عليها : تزوجتِ يا بنت الكلب ، وخليتيني وحيداً؟ وأرى . أرى ، من بين الضباب النازل ، دَموعها تهرُّ ، وأجزاءها الأخرى تتلاحق في الهبوط : يا خليل ، هذا فِعْله ، فعل أبي . أبوك الكلب ، حارس القحبات؟ أبوك؟!

وأتذكر الليالي الفائتة في الحوش ، وأُبَربرُ . ولا يكف هَوّاد عن الإصرار : تأخرنا يا خليل ، تأخرنا يا حمار! الشمس طَلْعَتَ . الناس قامت . المظاهرة ستنطلق بعد قليل ، يا خليل . وتحطّ كيانها فيّ . تحط كيانها المتألم الموجوع ، كله ، في كياني وتذوب . غرنوكة كما العادة ، تذوب . وأحس أهدابها تترامى على أسنة الأنبوب . تلامس القدر وتنوش الفكر . غرنوكة كانت في حالتها القصوى من التَلوّي والاجتَياح؟ ابعدي ، يا غرنوكة . دعيني أروح . المظاهرة تكاد تمشي . هواد هوذا يمشي . غرنوكة ، انتهى الليل . غرنوكة لا تسمع . غرنوكة تذوب ذوباً .

تشيل ثوباً ، وتشق ثوباً . شفاهها المفرطة السواد تكتظُّ مرارة واشتهاء . لا تعرف القلق والخوف؟ الخوف! لا تعرفه الشهوة . غرنوكة التي حسبتْ أنها ضيعَتْني ، لقَتْني . كيف أفرط عقدها ، الآن؟

آه؟ ها هي ذي تدخل العُبَّ والجبَّ . تشدنُّي إلى وهدتها المترامية الحفاف : اذبحني : يا خليل ، ولكن خذني معاك . خذني . وأقشعر قليلاً . وقليلاً أنتظر الرهبة التي بدأت تحلّ : آخذك؟ أخذك إلى الساقية والرمان؟ إلى شجر الحور النهم العالي؟ إلى الخابور المَثْبور؟ إلى أين آخذكِ ، إلى أين؟

ودون أن تجيب تصفع وجهها بيديها . تصفعه بقسوة واستياء . وتردد : قلتُ لك خذني . قلت لك خذني . وتبكي . لا أبكي . وأتملى الحرقة والانتهاك يملآن أركانها . غرنوكة الطفلة الهائلة الحجم تغدو بلا روع! أعوامها الستة عشر لا تبقي ولا تذر . غرنوكة ذات العينين السوداوين ، والشفتين المبلولتين ، والنهدين الباسقين كزهر الحور ، أتملاها ، الآن ، واحدة أخرى ، آه! كيف تموت الرهبة ، وتحيا الرغبة؟! كيف!

غرنوكة تنفجر ، فجأة ، كالبركان : أروح معاك . بلى! ويأتي الدَقّ الذي غدا الآن مخيفاً أكثر فأكثر . دَقّ هواد المتوتر على الباب : تأخرنا . تأخرنا . وكالملسوع أحفز ، هذه المرة ، وأنا أردد : المظاهرة . المظاهرة . وتكتم بحدتها المعهودة أنفاسي : لا . إنْ رحتَ هذه المرة فلن أراك . لن أراك بعد اليوم . لا . لن أتركك

تروح وحدَك . كانت تأكل أوصالي ، وصلاً ، وصلاً . تأكلها بحرارة غريبة ألهبتْ كياني ، كله ، دون أن تكف عن الترديد : خُذْني .

آه ، البر . المظاهرة . النهر . الناس . العالم . الاضطراب العام . الاضطراب الخاص . تألم هواد . صمت سودان . آذان العرافة الساكتة تنتظر الأمر . لا شيء يتقدم . لا شيء يتأخر . المجال مضطرب ومغشوش . وحدها ، عيونها المضمومة عليّ ، تَلُمّني لمّا . تملأني بالوَصْد والحنان . لا . لم تكن ترى . كانت تتخيل عالماً لم تحلم به من قبل : عالم الطلبة والمظاهرات . عالم الانحراف المعلن عن الصراط المستقيم . عالم المدينة الصغيرة الضائعة في أقاصي البر . المدينة المتربعة على نهرين مهملين(*) . وعالم الأنفاس الملتهبة من التوتر والحماسة . العالم كله يغلي! غرنوكة هي الأخرى ، لها الحق في الغليان . بلى! بلى! بانفعال شديد . بسرعة قصوى . تأسستْ تلك الفكرة في ذهني . ربما كانت تتأسس منذ أول الليل . مَنْ يدري كيف تولد الأفكار؟ وكيف تتهيأ الأمور للعبور .

مَنْ؟ لا أحد . حتى ، ولا أنا ، الأحمق الشَموص ، المُتملّص من التورط والانحياز . وسريعاً ، صارت لتلك الفكرة قوة مادية ضاغطة : غرنوكة في المظاهرة . بين الطلاب . تمشي

(*) نهر الخابور ، ونهر جَغْجَغْ .

معنا . مثلنا تهدر وتصيح . تبعث بجدائلها في الريح . تشتم العالم والناس . أحميها وتحميني . يتأملها هواد . أتأمل هواد . يتأملني الآخرون . أتأمل المحيط بيقظة وانتباه . بَتباهٍ . بتحدٍّ عارم مسموم . أريد أن أخرّب الكون . أن أقلب عاليه سافله . . سافله الأسفل . أريد أن أرى برق العيون . واهتزاز الذقون المستكينة : ذقون الحَمّالين وبيّاعي الجلّة والماء . والزلم المتربعين على التراب من أول الفجر إلى آخر الليل . الخيل ولْد الخيل .

تعالي غرنوكة تعالي : مَنْ يسأل عن هوية الناس ، في المظاهرة والحماسة؟ كانت غرنوكة تدنيني وتتمتم : حقاً ، مَنْ يسأل الميت عند الموت من أين أتيت . وصارت تلُمُّ حالها كالبرق المبتعد في الريح . تلَفُ خصرها النحيل بمحزمها الصوفي الملون . تَدُكُّ رِجْلها العارية في حذائها البلاستيكي القديم . تغدو مثل الكتلة القابلة للانبثاق : تُطاق ولا تُطاق . وصرتُ أُلمُّ حولها التمرد والاضطراب . بلى! السم القاتل . سُمّ التهور والانتهاك ، صرت أراه يسري ، اللون بعد اللون ، في الأنحاء .

ودفعة ، تغيَّر كل شيء : الأصوات الهادرة صارت ترجّ العالم رجّاً . ما كان لي أن أقول شيئاً . لا! ما كان لي أن أقول أي شيء . أي شيء . كنت أراقب الحركة والصمت . الحركة المتلاحقة مثل الخضمّ . والصمت المتكلم بامتياز .

سورية ، كلها ، تخرج ، الآن . العالم كله يتفرج علينا ،

اليوم . الدنيا كلها مرعوبة . أصوات . أصوات تهز العالم . تشدّ القلب . تثير القيء . تجعل المرء كتلة من العنفوان . أرى ، بارتباك ، هيئتها الطويلة المتحفزة ، وألوانها النازة الفاقعة . أرى آثار الاحمرار والوهج تملأ حناياها ، وحفافها . أتخيلها مثل السفينة التائهة : تريد العبور إلى ضفة لم تكن قط ، موجودة . يا غرنوكة! يا سفينة الضلال ، ألا تعرفين الكلال؟ لا . كانت تبرق برقاً . وكالحيوان الذي يأنف الترويض كانت ترتعد ، وتهتز .

فجأة ، انحَنتْ على الأرض . التقطَتْ حجراً أسود ، من الصُوان : حجراً سِرّيّ الشكل والتكوين ، ذا أضلاع غريبة ، وزوايا لا تعد ، التقطت الحجر القاسي وأشارت إليَّ به ١ ، ٢ ، ٣ .

ماذا كانت تريد أن تقول؟ كنتُ ألمح ، بالقرب وبالبعد ، معاً ، أطراف الحجر الحادة ، مثل النُصول ، تلمع في الضياء . وكما أظهرَتْه ، لم تلبث أن خبأتْ أشداقه وزواياه . خبّأت كل شيء ، وتوسّطَتْنا . صارت منا وفينا . سلاماً ، غرنوكة ، سلاماً . أنا من هنا . هواد من هناك . وباللصق تمتمة وتمام . وبالقرب منها : كعود وخالد ، والَبْرخي وبَرْجَس وفَلَك وسَرْكون . وحولهم : أسْوَد الخَشّاب ، ورشاد السائق . وحول الحول الآخرون . آه! من أين كانت تنبع تلك الجموع التي لا تكف عن التكاثر والازدياد؟! الشوارع تمتلىء . المقاهي تخلو . الأركان

تتعقّد ، وتتشعّب . العالم لا يتعب؟

وتبقى غرنوكة في حالتها المستطيلة الحفّارة . تريد أن تطير ، وأن تصير . أن تُجرّب وأن تخرّب . تريد أن تشرب الجَمْع ، كله . أن تتمثله وترضاه . وكأنها كانت مفصولة عنا بمسافات لا متناهية ، أحسَّستْ منذ أن لامستَنْي بالاطمئنان ، وقالت : أريد أن أهتف معكم . أن أردد ما ترددون . علّمْني ، علمني الهتافة يا خليل . كانت تشهق . وترتجف . وتصوّت! ورأيتها تتناول الكدر والماء الصلد . ماذا كانت تتناول؟ كان جسدها الناحل ، الذي يكاد يهرّ ، يقترب مني اللحظة بعد الأخرى . يرميني بوجوده المشدوه . يريد أن يدنيني . أحميه ويحميني . وأحسست برغبة لا تقاوم في انتهاك الأمر . في المرور مثل المدير العابس ، ولكن ضاحكاً ، من الميسرة إلى الميمنة . ومن هذه إلى تلك . متفقداً الحشد والنبات ، زارعاً الفزع في القسمات! آه وجود غرنوكة ، وحده ، يثير هذه المشاكل ، كلها! اللعنة ، أكاد أنسى عباس . أنسى الأشياء الأخرى . أنسى حالي . كل شيء قابل للنسيان إذن! مَنْ يدري ، متى ننسى؟

بزهْو ، أتملاّها ، من جديد . وكأنني أراها للمرة الأولى ، رأيت اللمعة والاهتمام : بنت مدير القحبات اللئيم . بنت السنوات العجاف التي مرت كالبروق . بنت الرجل الطويل الكامد ، ذي الحزام الجَلديّ العريض ، والأساور الفضية الكاملة ، والسيكارة المحروقة باستمرار : غرنوكة ، بنت هذا كله

تقف لصقي اليوم! تقف وتصيح ، بالعربي الفصيح : يسقط الاستعمار ، يسقط . يسقط(*) . غرنوكة أول الملامسة وآخرها ، هزّتني بعنف ، هزّتني : اهتفْ ياخليل! ألا تسمعهم يهتفون؟ وأفتح فمي واسعاً ، ولا تسمع شيئاً . وتضع أذنها الملساء في حِسّي ولا تلقط شيئاً . ومن جديد تشدّني ، تشدّني شدا : اهتف يا خليل! يا خليل اهتف . .

وفجأة تتبدل الارتكاسات : الهواء الحاد يتوقف عن الهبوب . العَكَر المستمر يصفو . العجاج اليومي الناعم يتبخرّ من الطَلْق . لكأن يداً سحرية غيَّرت اللحظة والاهتمام! المقام يصفو بعد المقام . وحدها ، الحركة الهادئة العميقة ، حركة المشي المستمر ، تستمر . وجَمْعاً بعد جَمْع ، يتجمَّع الناس حولنا ويتفرجون . المدينة كلها هنا! لا! على جانب النهر البعيد ، هناك ، أرى أحمد وأسمعه : أحمد السقّا الذي اضطر إلى ترك المدرسة وإلى ركوب الطنابير(**) . طنبور الأعور . طنبور النصراني الأحمر . طنبور بياع الفول . وأخيراً ، طنبور ابن جليوي . طنبور ابن الكلب . بلى! أسمعه يردد في البعيد . يردد

(*) في تلك الفترة ، بين ١٩٥٨/١٩٦١ ، كانت الوحدة بين مصر وسوريا ، عاملاً أساسياً من عوامل نهوض الشعور القومي العربي ، ولعبت دوراً كبيراً في تحريض الجماهير ، وإثارة مشاعرها ، لمناهضة الاستعمار ، وإنْ صارت ذات بُعد قمعي ، وبوليسي في الداخل ، وصادرت الحريات ، فيما بعد .

(**) الطنْبور : برميل كبير لبيع الماء ، ماء نهر الخابور ، تجره عربة بحصان واحد .

وهو يدفع بالحصان العنيد إلى قعر الماء : رَبّعي هَجَموا ، وأنا في الوحل غاطس؟

الحصان يغوص ، عميقاً ، في الماء الذي يتابع المسير إلى الفرات . وأحمد يَعْفُص لاحقاً بالجَمْع . أحمد السقا يريد بالحصان العتيّ شراً . يجعله يغوص في الخابور ، حتى الإبط . وتركب القشعريرة الحصان . ويصير يطرق بقوائمه الطويلة الماء وأحمد . وتمدّ الماءُ أحمد . وأمدّ يديَّ بعيداً . أسحب أحمد من الغرق . أريده أن يعلو الماء . أحمد يشحذ النفس والالتفات . يصيح : أطلعوني يا ناس! أبعدوا الحصان عني . أخرجوا الماء مني . ولكن لا أحد في الحال . وحدي ، أرى النفس المائل إلى الموت . وحدي أرى الجلد الأسود الدهين يلين : جلد أحمد السَقّا ابن الجَلاّل(*) يذوب قَطْراً . المظاهرة لا ترى! الجموع الملتمّة عمياء! عمياء!

مع ذلك ، يراه الرائي ، ويبدأ الصياح . ويملأ صياح الرجل الأهْتم الجو : رُدّ الحصان يا ابن القحبة . الطنبور امتلأ ماء . الحصان مات . يا أهل الحصان : ولا يستسلم أحمد . أحمد

بائع الجَلّة ، أو الرَوْث . وكان أبناء الطبقة الفقيرة في منطقة "الجزيرة السورية" يعيشون من لَقْط الروث وجمعه وبيعه . وكان الروث يستخدم ، وربما ما زال في المناطق البعيدة عن المدن ، في الوقود والتدفئة شتاء ، وفي البناء بعد خَلْطه مع الوَحْل .

يسوق الماء بالماء . يهز الجذع والاحتقانات! يمر من الشجر إلى الشجر . يتلوّى بين العيدان والأغصان كالأفعى المطرود . ومن جال النهر إلى الجزيرة يسوق الحركة والارتكاس . يَتكَسَّر حيناً ، وحيناً يتَصبَّب . آه النهر العريض يضيق . المدى الهائج يخفت . الجزيرة صارت قريبة! الخابور انتهى . الماء ولّى . الغرق صار ذكرى . صار يُوميء من بعيد : لا يَفُكُّ الحديد إلا الحديد . أغنيته القديمة التي سوّتْنا ليلاً بعد ليل .

من طرف الجزيرة الآخر يطلع الرجل الأهْتَم . يطلع النهار والضحى والابتهاج . وجهه مهشّم ومَكْشوم . أغطيته الهزيلة تتلوى مثل الأوراق الخفيفة في العراء . يلحق بأحمد صائحاً . وأحمد ينحدر راكضاً كالبرق . اللعنة إلى أين يفزع الرجل المطرود؟ وهيئته مَنْقوطة بالدم ، علام؟ يتهامس الناس بعد الناس . يتعجبون . وكالجراد يلحقون أحمد السقا ، ركضاً ، بعد ركض : ارجعْ يا ابن المنيوكة! يا ابن القحبة! تعال . ابن جليوي يدوّر عليك . الحصان ظل وأنت رجعت! تعال يا عجي ، تعال . زِلمْ ابن جليوي يلحقون الراكض بعيداً . الراكض يدخل الحشد والالتحام . يلج العالم المختلط مثل حشائش الغابات : لا أحد يعرف أحد . أحمد صار بيننا الآن : خليل . هواد . كعود . عبدو . حسين . أين كنتم هذا الدهر ، كله ، يا عرصات؟ الميَّة بَلَّلْتني ، وعيوني اهترت وأنا أنتظركم . الخابور وحده لا يكفيني . ما عدتُ أريد الحياة بالميّة . خلّوني أموت على

التراب . خلوني . ومن صوت أحمد لا نسمع إلا حركة الفم . صوته يضيع ، رأساً ، بين الأصوات المنهكة المتعجلة المتوترة المرسلة إلى آخر الكون : يسقط الاستعمار . يسقط .

الدنيا ، كلها ، تموج . موج يعلو موجاً . الماء الأشجار الجبال النهر الأفراس الأعراس . الأشياء كلها تلتقي هنا والآن . أنا وحدي أتراجف في الريح . أصرخ . لا يسمع سري وصراخي أحد : غرنوكة اختفت يا ناس! الناس تلقي الضوء وتفوت . من يفزع لنجدتي؟ أبحث في المكان عن الخلان . لا! لا أحد غير تلك الجموع المتراكمة ، كالصراصير الهاربة من النَفَس الحار . وبلا تمهل ، ينقلني السيل الجارف بعيداً ، بعيداً! إلى أبعد الأمكنة والأنحاء . يُفَرِّقُني أشلاء أشلاء . ومن عمق الضجة والخبَيط ، أسمع الصوت المتماوتَ ، يصل خيطاً بعد خيط : يا يَمّا قتلني . يا يما قتلني . ورأساً ، يضيع صوتها الفَرْد في الصوت . ويختلط أنينها بروائح الأجنة والآهات . وأكاد أحسني في الخوف : أنا الآخر أموت؟ ما كان عندي سوى الصوت : غرنوكة ماتت! ماتت!

كانت حركة الأيادي المتعبة ، والأقدام الهائجة ترجّ الكون : لماذا لا يرسلوننا إلى خط النار! لماذا لا يبعثون بنا إلى القتال؟ نريد أن نحارب . ومن عمق الجمع المائج ، ينبثق الصراخ : على الجبهة يا شباب . التسجيل عند الكوّا والعَجيل . وكما لم يكن متوقعاً ، أبداً ، يصير الغناء حاداً

وجُموعياً . غناء لم تعد تحمله الألسن والشفاه ، فحسب ، بل كان ينتقل مع الأيدي والأقدام والأكوام البشرية المتلاحقة كالسيول : هديراً . هدير مثل الرجيج العميق . صوت لا يمكن لا فهمه ولا تحديده . صوت واحد ذو أبعاد كثيرة . صوت يبعث الرغبة في الانتهاك . صوت رهيب مصمم يتردد : يا فلسطين جينا لِكْ . جينا وجينا لك ، جينا لِكْ . لنشيل أحمالكِ . جينا لــك .

في ذلك الصخب الصاخب أُخِذَتْ غرنوكة على حين غرة . أصابتْها ضربة قاسية صماء : ضربة الموت من أخيها الحوت . ودفعة ، أخذت الأرض بطولها ، كله . تمددتْ ، وكأنها لم تقف أبداً ، على رجليها . حسبتها رقصت ، حسبتها ارتمت عمداً ، حسبتها انهارت . أردتُ أن ألامس الخشب والتفاح . أن أقيل العثرة التي لم تعد قابلة للتغيير؟ ولكن لا! ولكن بلى! كان الجمع يتابع الوَجْف والزحف والهدير : واحنا رجالِكْ يا عربية . واحد منا يعادل ميّةْ(*) .

المأساة الدائمة هي الاستمرار في تحمل خطأ وقع عرضاً في الحياة الأولى .

(*) من الشعارات الهتافية التي كانت منتشرة في المظاهرات الصاخبة التي كانت تملأ شوارع «الحسكة» آنذاك . وكان لكل فئة ، أو حزب ، هتافاته المميزة : بعثية ، شيوعية ، قومية سورية ، إخوان .

أمام السراي البيضاء الشامخة ، تبدأ أوائل الواصلين بالتوقف . يصير المشي الحثيث مَهْلاً : الناس تتكدّس باستمرار . الحركة تأخذ طابعاً آخر : طابع الإنصات والاحتشام . الهدير يغدو تمتمة ونعيراً . التوتر الهائل يستحيل إلى زمجرة معلنة وملجومة . كل العالم . المِلَل والنحِل . الناس كلها ، تنتظر المحافظ .

التأهب لسماع صوته ، والإصغاء إليه ، يشلُّ طاقة النقد : نوع من الاستلاب الجموعيّ ، العميق والمعمم ، صار يسيطر على المكان . عيوني ، وحدها ، كانت تسبر تلك الكتلة التي سكنت تواً : تبحث عنها .

آه! كيف اختفى الجسد السبحاني الذي كان واقفاً في الحضور؟ وذلك الفم الشاغر الذي كان فاتحاً للريح . أين توارى؟!

ولكن ، لا . لا شيء في المكان . الصياح وحده يملأ الفضاء الذي ارتبك ، هو الآخر . كدت في الريح أصيح غر . . . لكن اليد التي لمتّني جعلتني أستعيد رباطة اليأس . أصمتُ من جديد . أتلهّى عن الموت ، الذي رأيته بعيني ، بالحياة التي ترجّ الطريق . شيء غريب كالريح الخفيفة ، شل طاقتي على الحركة والقول . خلل أسود كان يشغل القلب والبال : غرنوكة . عباس . اليدان السوداوان الهائبتان باستمرار . مَنْ يميّز الحق من الباطل؟! حرارة حمراء كانت تملأ أركاني : أريد أن أرى كل

شيء . كل شيء . اهدَأْ! أهدَأْ ، قليلاً يا مجنون . كانت تردد اليد التي شلتني . كانت تردد : ها هم الآن يصعدون . انظُرْ! درج السراي امتلأ بالأشباح والصاعدين . والخَطَبةُ صاروا على الشرفة . ألا تراهم يصرخون؟!

وبقوة أنفلتُ منه : اترُكْني! أريد أن أرى غرنوكة . وبقوة يعيدني إليه : تعال . أخوها لا زال في الحضور . وبهمجية أصرخ في أذن هواد : لكنها ماتت . ابن الكلب طعنها . رأيت دمها بعينيَّ . رأيته يسيل . رأيته . وفجأة ، ينبثق الصوت . صوت هادر لا يلوي على أحد ولا على شيء . صوت كبير متناثر ، يملأ الساحة الصغيرة الجميلة ، المحاطة بالمصابيح البيض العالية . الساحة التي سنتَحَسَّر فيها ، فيما بعد . سنتحسر متسائلين بقرف ويأس : ماذا فعل عبدالناصر(*)؟ بلى! الصوت

(*) يريد الحديث عن مصادرة الحريات ، والقمع السياسي ، وإلغاء تعددية الأحزاب ، وترسيخ مفهوم الحزب الواحد ، و . . . تلك المساوىء الكبرى للوحدة التي ستسود في سنواتها الأخيرة ، وتؤدي إلى إنهيارها . وفي لحظة الرواية ، لم يكن ذلك ، كله ، معروفاً بعد ، لأننا لا زلنا في بداية الوحدة . ولا زالت الصورة المثالية عن عبدالناصر ، يضاف إليها الكاريزما الأسطورية التي يتمتع بها ، هي التي تسيطر على مشاعر الناس ، وبخاصة في الطبقات الفقيرة . وكان المتظاهرون ، أحياناً ، يرددون هتافات ما قبل الوحدة ، وكأنها لم تحدث بعد .

القوي الهادر يملأ الساحة الصغيرة ويفيض : بِدْنا الوحدة يا جمال . بدنا الوحدة يا أسمر . وتضج الدنيا ، كلها . تردد الهتاف نفسه وتفيض . وأحسني صغيراً مهملاً وبلا عون . لم يكن موت غرنوكة يعني شيئاً كبيراً ، ذاك الآن؟! مَنْ يبحث عنها؟ مَنْ يدري ، أين اختفت البنت التي رأيت دمها يفيض على القاع؟ أتكون هي الأخرى تهتف في أعماقها المليئة بالدم : بدنا الوحدة يا أسمر . يا أسمر بدنا الوحدة!؟ تهتف وهي تغوص في الغَصَص والموت؟

أهتفُ بدلاً عنها . أرسلُ صوتي صوتين . أتعدد مثل هذه الكائنات التي ركبها الجن . أصير صيَّاحاً ، مَدّاحاً . آه! أكاد أنساها! شيء غريب كان يملأ الناحية والأركان : هذا الحشد المرتبك المتسلط المتعنت التَهّام صار يثير اضطرابي وحيرتي . الحيرة لا تطول . تزول الحيرة ، فوراً : موج من البشر يلاحق موجاً . والهمس يصير ضَجّا : الشيوعيون هَجَموا يا شباب . البعثيون هجموا . القوميون . القلاقل والهلاهيل . الصياح والضجة والتعنت . . آه! الحركة المستمرة المتضاربة لا تكف عن التهور والجموح . والروائح تفوح : رائحة خرا النصراني الذي ضربوه بالسبّول على بطنه . رائحة دم الديْري(*) الذي انفجّ في الرأس . رائحة الآباط الكثيفة الشعر . رائحة خيول الدرك

(*) من «دير الزور» ، مدينة على الفرات في الجنوب الأقصى . وكان الكثيرون منهم يصعدون شمالاً إلى أعالي الجزيرة ، وبخاصة إلى مدينة «الحسكة» .

والمخاتير . رائحة المجاري والقوارير . كيف تتتابع الروائح؟ ومن أين تتنبع؟ وإلى أي مكان تروح؟

وأروح في اللجّة الهائلة ، أروح ، أتلَمَّسُ آثار أقدامها ، ولا أجد أحداً . وأرى على القاع خيوط الدم المنسحبة حتى الفناء . خطوط من دم طازج لا زال يجري! دم الشيوعيين؟ دم البعثيين؟ دم الأقوام الأخرى ، التي ولّت الأدبار . ألْحَقُ الأثر ، حتى العثر؟ لا . الخوف النابع لا يكف عن التراكم والارتداد . خوف من المجهول والمعلوم . خوف من الحركة والالتباس . ظهري لم يعد محميّاً . هواد ضاع . كعود اختفى . أحمد السقا أين هو الآن؟ والآخرون؟! لا ، لم أكن أرى حولي سوى الضياع . الحابل يختلط بالنابل . . الناس كلهم يصيرون كتلة من نار . وفجأة ، أبدأ الكرّ راكضاً حتى الماء . أغسل وجهي . أزيل آثار الدم اللاصق بالجبهة والأحشاء ، وأعود . وفي الوجه أرى العالمَيْن(*) ، عالم الشرفة المهيب والمحروس . وعالم الحضيض الهائج والمهروس . آه! كان الماء لا يزال يُنقِّطُ من جدائلي ، واليد التي شلَّتْني لا تكف عن هزّي وَدزّي : انجُ بنفسك ، أخو غرنوكة يُدوّر عليك . أخو غرنوكة يُدور عليك .

(*) تذكيراً بقول «لينين» : «عالَمان» ، وهو يتحدث عن الطبقة العاملة ، وعن الذين يستغلّونها .

(٦)

بين الجذوع الطويلة ، المستقيمة حتى السماء ، أوقفَتْنا(*) فوهات البنادق : قف! قف! من أين انبثق العسكر في الحور؟ وأهمَّ أن أنطَّ من فوق الرؤوس . أن أدوس . كانت الجملة اللئيمة : أخو غرنوكة يدوّر عليك ، تذوب ، مثل الملح القليل ، في عكر الخابور الفائض . ولكن . لا . أتسلح بالرغبة القاتلة ، إذن ، وألج العالم المظلم ، في المحشوش!؟ لكن بنادق العسكر وحرابهم تمنح الموت ، وتمنع الفوْت : قف! قف!

خلفي ، توقف هواد ، تواً . توقف ولعابه يتسايل ، مثل لعاب البعير ، على شدقيه : قتلوه ، أيضاً! كدت أنطُّ من الدهشة : قتلوا من يا غبي!؟ تساءلت بصمت وبلا صوت ، في مواجهة الموت . هواد لم يجبني . هواد لَمْ يتكلم أصلاً . الاكتظاظ يلد الامتعاض . حركة غريبة ومريبة كانت تركب

(*) بسبب الشغب الكبير الذي ساد المظاهرة ، بدأ العساكر ورجال الأمن والمخابرات يبحثون عن العناصر المشاغبة ، أو التي اعتبروها كذلك . وأغلبها من طلاب التجهيز . وحدثت اعتداءات وإصابات و . . .

الناس . ومن جـديد . أتطلّع إلى هواد الذي ظل لاصـقـا بي ساكناً ومكتوماً .

وألمح أشعة عينيه تهرب من السكون إلى أعلى الكون . إلى الشجرة الهرمة المسكونة . شجرة الناعورة المهترئة : ناعورة ابن جليوي . ناعورة ابن الكلب .

وأعـود إلى نفـسي ، قـرفـاً : لماذا كنا نركض كـالكلاب المطرودة ، ومنذ مـتى؟! منذ البـارحـة؟ منذ الفـجـر؟ منذ أول الليل؟ وهؤلاء العساكر المتورطون في اللهفة والإكراه من أين ارتسموا كالأشجار بين هذه الأحجار!

ملأت العَبْرة رأسي : أريد أن أبكي . أريد أن أحكي . كان خيط النار ، لا خيط الماء الأحمر الماشي جنوباً ، يفضح اللحظة والإنذار . والصـمـت المُحلّق في الأجـواء يدثر النوء بالخـوف والعاصفة . شق طويل ، كان يرتسم ، يرتسم بين اللجة والجمع . وموكب مهيب يتوصل الدقة والمكان . الموكب المتواصل يعبر الفـضـاء . هواد يتـوسم الصـرخـة : الآن . الآن . الآن . هواد يهذي : آه ، يا خليل ، ليتنا لم نجيء إلى هنا . ليتنا لم نذهب إلى هناك . قلبي يَنْفَـرِك من الجوع . من الخـوف . من الرهبـة والالتـهـاب . ومن أي شيء آخر! وأتساءل من جديد : من هو الذي انذبح اليـوم؟ لا أحد يرد . شيء واحـد يمكن له أن يزيل اللغط والاضطراب ، إنه الماء . أزت نفسي فـيـه . أعـبـر النهـر ركضـاً . أرى الجـهـة الأخـرى والمقام . أتبع خيط الماء الأحـمـر

المستمر . أفر . أكر . ألعب الموت والصوت . أصيح في السكتة والخوف : يسقط الحور والغَرّاف . قتلوه الكلاب! قتل نفسه! مات! مَنْ يعلمني الآن عن الحان؟ مَنْ يسقي ظمأي العطشان!

وحدها ، امرأة الحور العتيدة ، كانت تهذي : العسكري ضرب الولد الأحمر بالرصاص أو بالداهوق . أو بالعصا الخيزران : لم أعد أدري . بَسْ الولد انضرب . الولد النصراني انذبح . ذبحوه وِلْد الكلب . آه يا خيبتي ، آه! الولد مر من هنا مثل الطير الطاير . الهجانة تركض وراه . ورا الهجانة يركض الدرك . ووراهم تركض الناس . لا ، ما حدا شاف غيري . شِفْت الراكض والماشي ، الضارب والمضروب . إيْ! كلهم تجمعوا على العجي الأحمر! وانسدّ الكون بوجهه . الشجر والبشر والحجر وراه . وما قدامه إلا الخابور . والعابور يتلو العابور . والناعورة الحزينة تجهر بالماء ، وتجعر! وفجأة تصير تُرتّلُ : لا ، ما شفْت شّيا . ما شفت حيّا . ونَتَدانى ، حولها ، ونتوانى : آه يا امرأة الحرس والغرس . إحكي لنا كمان . إحكي لنا عن البطل ، كيفاركيس . أحكي لنا عن الفتى الأشقر ذي الوجه المليء بالنمش والاصطهاج . إحكي لنا عنه . أين فات فيه العِرْق؟ كيف اخترق بطنه الغصن؟ وبأي لون لوّن دمه الماء؟ وتصرخ المرأة النَكور ، تصرخ وتنحار : اسمه جفرجيس؟ جفرجيس! يقولون زَتّ نفسه في الماء . هام على وجهه . انتحر . الغصن

اليابس المكسور خشّ من البطن وطلع من الظهر ، مثل الحربة المسنونة . يا حزن أمه عليه . يا حزنها .

كدتُ أصرخ في الجمع : يا ناس! لكن اللّجْم المخيف أحاط بالفوهة والقضبان . الخيط الأحمر لا زال يسري مع الريح ملوناً وجه الخابور الصامت . وجه الخابور الشامت . كيفاركيس ، الولد الأشقر ، ذو الوجه الملطخ بالنمش والاكتساء ، سيّد المكتبة المستطيلة ، التي التهمنا أنحاءها الخبيثة منذ السنوات الأولى ، يموت؟ هو الآخر ، قابل للرجّة والفناء؟ ولكن لماذا صمتت الحارسة البلهاء؟ أتراها رأت الجند والاحلاف؟ أم تراها بدأت رحلة التشوش والإصغاء؟ أحقاً رأته يموت!؟ رأَتْ زَلاته ونواياه وبطنه المثقوبة وظهره اللامع ورأسه الجامع والتربة والماء!؟ رأتْ ذلك ، كله؟! رأت ذلك ، كله ، ولم تصرخ . لم تَنْتَخي لم تنادي : العادي يا رَبْع العادي!

أصرخ وحرابهم فوقي مثل التنانير؟! ابني النائم تحت كوم الجلّة يموت . رجلي الغائب لا يعود . نسيت عباس يا خليل؟ نسيت اللمعة واليأس . نسيت الخبز الواجف في الحلق مثل المسامير؟! الولد النصراني انضرب . انزتّ في اللجة العميقة والريح . وكِسْرة الخشب مَنْ حَطّها في بطنه يا ولي؟ يصرخ الدركي ، ولا أحد يجيب . المرأة خرساء . يَتَبْهَور الدركي . ويؤكد : المرأة خرساء ، يا سيدي . خرساء مثل الخَيْط . خلّها تنقلع : يأمر الرقيب . أبعد هذه الدميمة . القحبة تريد أن

تشهد؟! القحبة . رأيته بعينيّ تردد المرأة حالما يبتعدون . ورأيت الولد الأحمر الجميل ، يهجم . يهجم ويحجمون . تعجبت . أردت أن أهلْهلَ . أن أرسل الحسّ والصوت . أن أحثّه : عليهم ، أخو الشَقْحَة عليهم . لكن الحربة اللامعة التي اندسَّتْ في ظهري سوَّتْني خرساء . واختفى صوتي مُذْ ذلك الحين .

وتسكت . ونسكت . وفجأة تقول : كانوا يُدْلون برأسه في الماء ، بلى! رأيتهم بعيني! الوحل والعشب والتراب والحشائش والقش والخوص والزلّ والأغصان ، كلها ، تجمعتْ في فمه وعينيه . والولد الأشقر ينظرني . يغمزني . يشهد اللّه عليّ أنه ظل يغمزني ويرسم لي صوركم وأسماءكم حتى راح . حتى ماه . حتى ماع كبده ومات .

كدتُ أهوي على الأرض . الماء السائل صار يثير حنقي واضطرابي . هذه المرأة المهبولة المجبولة بالزبل والخراء ، وحدها ، رأت فعل القتل؟! الناس كلهم عميان . لا أحد مر في المحشوش . الحطابون وصيادو الجرذ والجرابيع ونَقّالو الحور والأعشاب وحرّاثو الأرض والسّمادون والسُعاة ألَمْ يكونوا ، كلهم ، هناك؟ لا . لا أحد رأى موت كيفاركيس . الشجرة قتَلتْهُ . قتله غصن قديم : غصن شَذَر لو حطّ عليه الطير لانكسر!؟ وهؤلاء الرجال الحمقى المملوؤن بالتوتر والبغض والنفيط ، ألَمْ يمد أحد منهم يداً إليه؟ لا! لا ، لن نسكت أبداً ، لن نسكت : هكذا قررنا وهذا ما سيحدث الآن . في التو والمكان .

كانت أنفاسنا المتقطعة لا تزال تُتابع اضطرابها العنيف . كنا نركض منذ الفجر؟ منذ البارحة ليلاً؟ منذ افتراق المظاهرة والمتظاهرين؟ مَنْ يستطيع أن يؤكد الآن؟ الأعين الصغيرة لم تعد ترى الريح . والأيدي التي كانت تحمل أشياء كثيرة ، رَمَتْها . والأجسام الناحلة صارت تتكسر جسماً بعد جسم . القِسْمُ امتلأ بالموقوفين . المكان لم يعد يتسع للدرك والشرطة ومَنْ جاؤوا بهم من أنحاء الأرض القصية والدَنية . الأشرار والأبرار . العبيد والأحرار . زلْم ابن جليوي . زلْم ابن الكلب لم يدعوا أحداً من شرهم : أخبروا الدولة عن كل شيء . عن المجرم والسافل والقاتل . ادفعوا بهم جميعاً إلى السجن .

أبعدوا هؤلاء الكلاب الذين حلّوا الأرض دون حق أو إشفاق! كان يردد ابن جليوي . يردد أمره اللئيم هذا ، وهو(*) يضيف ، من آن لآخر : أبعدوا الجراد عن الماء والقاع . أبعدوا الشحاذين والبوّاقين والحرامية والمعلولين والمغشوشين والمنهوبين . أبعدوا هؤلاء البشر الأغبياء ، عن وجهي وعينيّ . وكالبغال الهائجة كانت جموع العساكر تركض خلفنا . تركض

(*) في ذلك العهد ، قبل الوحدة مباشرة ، وقليلاً في أولها ، كان الإقطاع هو السائد في الجزيرة . وكان الإقطاعي يتصرف بالأراضي وبالبشر ، وكأنها ملكه ، وهم عبيده . وكثيراً ما كان هو الآمر الفعليّ لقوى الأمن ، التي كانت في الواقع ، موجودة لحفظ أمنه هو وأمن ممتلكاته . والوحدة هي التي خلّصت الناس من تسلّط الإقطاعيين ومن استغلالهم .

ونركض : إلى أين نروح؟ إلى أي بقعة في الأرض نأوي؟ إلى أي جحيم يقودنا الإرهاق والإخفاق!؟ الناس كلها انتهت إلى العدم والصمت! شيء هائل كان يخرّب العقل خطوة بعد خطوة . أي شيء هو ذاك الشيء؟! أي خليط عجيب هو هذا الخليط الذي يتراكم ولا يتبدد . يتعدد ويتجدد . مَنْ يحميني بعد الآن ، من الهَوس والاضطراب؟ مَنْ يعيد توازني المفقود إليَّ؟! الخلخلة التي انبنت اليوم ، ستدوم طويلاً؟ الدهر ، كله؟ العمر ، كله؟

فجأة يجرني هواد : انظُرْ! وأنظُرُ : السيارة البغيضة تسوق البشر من الشرق إلى الغرب . تلمُّهم واحداً . تتبعهم بتصميم . ونكاد نقع على القاع . الخوف انحلَّ في عروقنا إلى سراب! يكاد يدفع بنا القهر إلى الجنون . ماذا فعلنا غير الهرب والارتكاس؟ وأرجفُ ، برقاً : لمَ تهتز الأرض ، هكذا؟ لمَ تهتزّ الأرض يا هواد ، أنادي ، لم تهتزّ الأرض؟ ولا أكمل الكلام : شيء محبط ومريع تملّكَ مني الروح! أنا الآخر أموت؟ وفي مد البصر ، أرى الرجال الهاربين يتوقفون قوة . يكشفون عن أجسادهم التي غدتْ تُلْمَحُ في وضح النهار . وفجأة . بالاتجاه المعاكس ، يبدأون الركض : الهجيمة غنيمة . على الثكنة يا شباب . على الثكنة . آه! الساخطون يتجمعون من جديد . العزم من حديد : كان ملك الميت يردد باستمرار . لكنني أموت . أنا متأكد من موتي الآن . بلى . رأيتني أموت . هواد ،

هو الآخر ، يسقط ميتاً . أشياء أخرى ، كثيرة ، تحدث وتصير . وكأن حلماً جديداً ركبني من جديد ، كنتُ ، صرتُ ، أرانا نتماسك الأيدي ونغوص : نغوص في اللجّة العاتمة . في عمق الحور . في وحل اطراف الخابور المصدوعة . في أي شيء آخر غير الموت . لا ، لن نتوقف قبل أن نصل الباب . باب المكتبة المستطيلة : «مكتبة الحرية» مكتبة كيفاركيس .

المكتبة مغلقة الجدران والأبواب! العالم حولها فارغ . الشارع مقفر مثل الحماد! لا حجر . لا شجر . لا بشر . ولا أعلام! والأغصان؟ أغصان الحور التي نقلناها له البارحة ، من نهبها اليوم؟ وإلى أي كون وَدّاها؟ اللعنة! كنا نتوقع أن نرى الجموع الهائجة تملأ الآفاق : جموع تتوخّى القوة وتكره الانصياع . كَمّات من الحنق والثورة والهديد . ولكن لا! لا أحد . ولا مدى . ولا صوت . خلاء . خلاء . لا أحد سوى الريح ، تصيح : يا مليح . الريح؟ لا ، لَمْ تكن تلك الأصوات الهادرة ، كلها ، ريحاً . صمت عَرّاف ، وحركة مكتومة يتحايثان في المكان : شيء يبعث على القلق والغثيان كان يمر من فوق الرؤوس : كنا نملأ أكتافنا أحزمة وأحجاراً . نتسوّى أمطاراً وأنهاراً . ومثل الأفاعي المطرودة نتلَمْلَمُ من لمس إلى لمس . نريد الثورة لا الهمس .

وأتلَفَّتُ طَرْداً بعد طَرْد . أبحث عن اللَمّة والفرد . عما كنا نبحث التوّ يا هواد؟ عن الماء الأحمر والتابوت؟ عن السَكْبة

الشهية المنبثقة من أكتاف آديل؟ عن الدكاكين؟ عن أحياء الخابور المنتشرة في الضفاف؟ لا . نمضي سراعاً . نمشي تباعاً . أحدنا يتلو الآخر كالمقهور . ندور في الأرض . وندور . ألَمٌ غامض وسحيق يشُلْ أحشاءنا وحنايانا . تَلَف غير متوقع حلَّ فينا . نوع من الموات والاهتراء العاجل . ضرب من الوسخ الأسود ، المرئي من بعيد ، كان يلُفُّ المحيط!

فجأة ، نتوقف : انظُرْ . انظر . نتبادل التوجيه والتهمة والانفعال . انظر الناس . الناس؟! يردد أحدنا للآخر . وبسرعة البرق نقف مقابل مقهى «البَلّور» الجديد : وجود من حديد! ناس مرمية بعضها فوق بعض . أكوام من الورق والجزازات . ألبسة شديدة اللمعة والتمييز . بشر فوق بشر . ماذا يفعلون؟ يلعبون الورق والقمار! العقل يُحار . كيف يتوزع الحزن والألم على العالمين؟ ومَنْ يحط اللمعة والاشتعال في القلب؟ وهؤلاء البُلَداء المرتمون كالأنعام فوق الحصير كيف يتوجعون؟ هواد يجرني بانفعال : تعال . تعال نبتعد عن هؤلاء البشر الخانعين . تعال ، قبل فوات الأوان . لكن مقهى البلور الضاحك يمسك بي . لا يتخلّى عني . مقهى الغواية والدخان . المقهى الملون الذي يتوسط المدينة ويحييها . فيه ، يلتقي الناس الكبار . والذين سيصيرون كباراً . وعلى طاولاته الرخامية يأكلون الكباب المرتب بعناية وتزويق . وفيه ، يشربون الماء الملون والكحول . وعلى جوانبه الساطعة تجر الأمهات بناتهن

العـذراوات جَـراً مليـئـاً بالدعـوة والإغـراء . بنات طوال سُـمْـر البـشـرة ، تعلو الثـيـاب أردافـهن المثـيـرة . ومنْ أطراف عـيـونهن الشديدة التَكْحيل يطلّ الشبق والشوق . ومن جديد ، يسحبني هواد : تعال . تعال . ولا أجيء . كنتُ أبحث عَبْر ألواح الزجاج في هيئات العالم وسماتهم . أقرر ولا أقرر . وكاد هواد أن ينفجر وهو يردد في وجـهي : تعـال . لا أجيء . كـان صـوت الغناء السري ، يخترق الأفق ، والنوافذ الكتيمة . يصبّ في عيني . الصـوت : يحـرضني على الموت! صـوت المغني الحـزين ، ذي الرزانة الخائفة ، والقلب المَلْسوع : الضائع يسوع . وبلا جدوى ، كرّر هواد أمره القديم : تعال . تعال! .

الحجر الصوان يتململ في يدي اليمنى . رغبة هائجة تملأ جوانحي الصغيرة . كنت أفكر : إن كسَرْتُ زجاج المقهى ، أكسر واجهة العالم . أفتح ثقبة في كتامة القلوب البليدة . أكسر السِتْر الحديدي الذي يزهق الجائع ، ويرهق الخانع ، آه! الحجر الصُوّان ، الحربيّ الطلاقة والأطراف ، حجر غرنوكة ، ينطلق بالرغم مني! وأتبع الحفر التي يصنعها مروره العاتي في الزجاج وفي الرؤوس الحسيرة . العجب ، العجب : الحجر الصوان ينعرج وينفرج . يمر من الواحـد إلى الآخـر . يجـرح هذا ويفجُّ ذاك . الدمـاء الحـارة تتمـازج . تختلط بصفاقة على الزجاج النظيف . شيء مخيف! الحجر الصُوّان . أخيراً ، يصل المذياع . يدخل من شـباكـه إلى الجوف . يفجُّ المغنيّ البليـد الذي لا يكف عن تقوّل القصيـد .

وأصير أسمع في العمق عويله المستغيث : يا يمّا قتلوني . يا يمّا قتلوني .

سكان المقهى الزجاجي يخرجون خلفنا نباحاً ، بعد نباح : اقتلوهم . اقتلوا أولاد القحبة . أمسكوهم . أمسكوا أولاد الحرامية . أولاد سَراقي الجزر والباذنجان . ومن بعيد يلمحني اللاموح . يلْمحني ويصير يصيح : عجي حَمَدْ ، يا ناس! عجي بوّاق الدواب ، ابن قطاع الطرق ، العَجي الزَنْوة ، صار يضرب المشايخ ويكسر القواهي ولا أحد يرده؟ هاتوه ، لي . هاتوه حياً أو ميتاً ، هاتوه : كان صياح ابن جليوي ، صياح ابن الكلب ، يملأ الآفاق .

وكأننا اخترقنا ، فجأة ، حدّ الخوف ، صرنا نتجمّع ونتمنّع . بعضنا كان يسيل باتجاه بعضنا الآخر . وكالمياه التقينا . بلى! الأكتاف تدفع الأكتاف . الأيادي تتماسك . والأرواح تتأهب للقاء . الآن يصل . الآن ، يطل . ساحة التجهيز الوحيدة في الشمال كانت تغص بالمتزاحمين : من الاختفاء إلى الاحتفاء!؟ كنا نتزاحم حقاً لرؤية الرجل الجميل «يعقوب»(*) الأحمر الثوري ، الذي تمرد منذ نعومة أظفاره . والذي سُجن ، وأعيد سجنه ، وسجن من جديد . والعزم من حديد . كان

(*) كان أحد قاعدة الحزب الشيوعي في محافظة الحسكة . وهو من عائلة بورجوازية غنية . وكان يومنها طالباً في جامعة دمشق .

المغدور ملك يردد . لا . لن يذهب دم «كيفاركيس» والآخرين هدراً . كلمات تلي كلمات ، بانتظار خطيب اليوم . الخطيب الذي ياما سمعنا عن شجاعته ومكره ودهائه ، ابن القصر الجليل ، الذي لا يلبس إلا الجوخ والحرير . والذي في مخازن أهله العديدين توجد المؤن والأقوات . وتوجد الملابس والأصباغ والكتب والدفاتر والأقلام والأحلام . آه! يعقوب طالب الجامعة : جامعة الشام البعيدة ، الموجودة غرب الأرض . غرب العالم . ووراء النهرين : وراء الخابور ، ووراء الفرات . وأيضاً وراء المدن ، كلها : وراء الدَيْر والرقة وحلب وحمص وحماه . ويقولون وراء النبْك . ومنْ دونها الهضاب العديدة . ومن حولها التلال العالية . وعندها تماماً ، يقع الجبل الذي يظل مكللاً بالثلج . المدينة كلها تجيء اليوم! المكان لم يعد متسعاً ولا مأموناً . وفجأة ، يزداد الزَحْم زَحْماً . يكاد الجمع كله أن يقع على الأرض . الرجل الطويل الجميل الأنيق يصعد الشجرة . شجرة الخطابات . الشجرة الوحيدة التي انتزعناها انتزاعاً من حور ابن جليوي . حور ابن الكلب .

آه ها هوذا يطلع الآن؟ ويرجُّ الصياح الأرض : يسقط الاستعمار . يسقط . ويطل يعقوب الجميل . يطل على الجمع بنظرته المهيبة اللطيفة ، وبابتسامته العَدْلاء المثيرة . ابتسامة الواثق العنيد . وبقوة وحماسة ، يرفع ذراعيه الطويلين . يرفعهما بتأن وصبر . لكأنه يرفع بهما الجبل . كُدْتُ أصيح : يا ويلاه!

إنه يتأهب للموت . كان يحكي! لَمْ نكن نسمع شيئاً : صَيْح يتلو صَيحاً . يعقوب يحكي . يعقوب يبكي . الشجرة تهتز . الناس جَنّتْ . كنت أصيح وأصيح : انظروا! انظروا . إنه يتكلم والدم يتفجر من فمه مع الكلمات . وقبل أن تحط الأنظار عليه ، كان يردد في الأفق ، وهو يطير : أيها الر . أيها الر . ودَوّى الهتاف والتصفيق . وهوى العالم ، كله ، على الأرض . والرجفة تتلو الرجفة : يعقوب انذبح يا شباب . يعقوب انذبح . يعقوب . يعقوب .

كنت أرتج مع ارتجاج الجذع المعلق في الريح . الأوراق التي انحنت فوق الرجل الجميل لم تحمه من الموت . والأغصان التي انسدلَتْ فوقه بحنان أعلنت للملأ ، كله ، نهايته الصارمة . ولبرهة ، رأيتني أحثه . أحث شجر الحور الساكن على التمرد . لا . لم أكن أفهم بهاء الجو الذي صاحب تلك اللحظة المخيفة! لا . لم أكن أفهم ، بعد ، لماذا لا يتمرد الحور! الشجر ، هو الآخر ، يخاف؟ اللعنة! ماذا أفعل الآن ، وقد عرفت أن انحياز العالم انحياز أُنْجِزَ من قبل ، ولا سبيل إلى تقويمه إلا بتهديمه!؟(*) صرتُ أهذي وأنا أركض . أعدّ الموتى والمنبوذين . أريد أن أصل الماء . أن أشرب الخابور ، كله . قلبي غدا كالتنّور . كان يعقوب لا يزال يتمايل ، ومعه ، يتمايل الجمع : من هنا ، يا

(*) من قولة «باكونين» الشهيرة ، وهو أحد كبار الفوضويين : «تهديم العالَم القديم شغَف» .

شباب . من هنا شباب . مَنْ كان يأمر مَنْ؟ وبأية لغة؟ وكيف؟

وأصير أتخَمّشُ الأرض . أريد أن ألقي النظر الأخير على القاع . أن أرى التراب والحجر اللّماع . ولكن ، لا؟ لَسْع خفيف صار يأتي ، فجأة ، من الطرف القصي . لَسْع مصحوب بالقَلَع والخوف .

بتصميم ، ألُمُّ أطرافي . أستعيدني من الشلل والموت! رَجّة عميقة وَهّاجة ، كانت تعبر الصلب دون انقطاع . كنتُ أريد أن أرى العالم من جديد . ومن جديد ، أصرخ عالياً ، في الفضاء : العزم من حديد! أصرخ ، محاطاً بالشلة والأحباب ، ونحن نبعثر التراب . نريد أن ندمّر العالم الحقير ، كله . أن نَهَب أنفسنا الفرح والحبور . مَنْ راقب الناس مات هماً ، وفاز باللذة الجسور .

كنتُ أريد! لكن المحنة التي بدأَتْ أول النهار ، تركَتْ ما يشبه الهوة والفراغ . والجموع التي التمَّتْ صباحاً ، لم تعد موجودة في المساء . حتى القاع بدَتْ قاسية ومرتبكة! وإذن ، لم يعد أمامنا إلا أن نمشي ، أن نمشي منذ الآن وإلى متى؟ إلى متى يا ويل؟ مشينا النهار ، ونمشي الليل!

وبغتة أجرّه بعنف وإصرار : يا ويلك! تعال يا هواد ، تعال انظر . ها هو ذا مقهى بحّود أمامنا . حدّق . وبعنفه الخائف ، كله ، يسحبني من الجمر . تعال أيها المجنون . تعال . وأجدني ،

أنجرّ عنوة في الريح ، وأنا أصيح . ويسدّ بيديه ، كلتيهما ، فمي ، ونحن نركض في الليل : إلى العـزيزية! إلى العـزيزية! ويكرر بشدة ، وهو يجرني ، من جديد : أركض . أركض . وأصير أنط كالجدي الطليق ، قافزاً أكدار الليل وأثلامه ، مقترباً كالبرق من المكان . وفجأة ، أتخَمّشُ الأرض وأنا أنْهَتُ الموت : العـزيزية ، وصلناها! ويتـراجف هواد ، خلفي : وصلناها؟! بلى! ألا ترى النعـر ، ألا ترى النهـر؟ ألا ترى الماء اليـابس والمحصور؟ إنه ماء «الجَغْجَغْ» . الجغجغ البائس الذي يجري الهوينى ، مثل بول المحصوب . نسيت «الجغجغ» يا هواد! نسيت النُهير البليد الذي اختفينا في أوحاله المرة بعد المرة؟! مَنْ ينسى الماء يا أحمق! مَنْ؟ وأتملّى في سواد الليل البهيم الماء . حقاً إنه الجغجغ : الماء أضحَلَ والنهر أمحَل . آه! من بين جميع الأبحر والأنهار ، يظل الجغجغ يحار : هل يجري أم لا يجري . وأكاد أضحك . كما من قبل! ولا أضحك . لا! بحركة شبه يائسة ، أتطلع إلى المعالم المحيطة بي . ألقي عليها النظرة الأخيرة ، برقا ، برقا . ألمُّ أشتات المدينة القابعة في الوهم : آه! لا حركة . لا أحد . لا ضوء . لا نوء . لا شيء سوى الماء . الماء ، وحده ، يجري في أعماق الأرض هادئاً مستتباً! والجسر الميت يمتد فوقه من الضفة إلى الضفة : جسر الحجر والطين : الجسر العجين . وأكاد أنام . وأنام فعلاً . أنام ثواني . لحظات . دقائق . ساعة . ساعات؟ مَنْ يدري؟ أي شيء يمكن أن ينام إلا القلب . والقلب على عباس . وأصير أتلمس أعضائي الواحد بعد الآخر . أبحث عن الحرارة

الضائعة . عن الوجد الذي كاد أن يغفو . عن لمسة عباس المتهيبة وهو يطارد البرية في الليل .

وأكاد أصيح : أمسكوني . خذوني إلى القيروان . إلى عباس الذبيح خذوني . لكن الكائنات التي كانت تأتي مع الضباب منعتني من الصيح . آه! تلك الكائنات المَدْسوسة في الريح ، من أين كانت تجيء؟ ها هي ذي تملأ وجه الأرض! من «جبل عبد العزيز» تأتي إلى «جبل كوكب» البركاني الأسود تروح . تمر فوقي . تلمسني . ألمسها . أتعلق بها وأروح . أحمل في حضني سرير النهر ، وأطير . أخليّ العزيزية في السمت والصمت . أحيط بالحسكة ليلاً . أولاً من الجنوب . لا من الشرق أولا ، ومن ثم من الجنوب . أحيط بها مبتهجاً وعجولاً . أريد أن أصل غُوَيْران . أن أرى ضحكة ثناياها . أن ألمس يدها الشفقية . أن أرتمي وأن أنام . أنام نوماً لا آخر له ولا قانون .

وأصير أتقدم الخطوة بعد الخطوة . مرة في الماء ومرة في الريح . لا زول حولي ولا قول . العالم كله ينام : العسكر والغرب والأضرحة والأصفاد . هواد ، هو الآخر ، ينام؟ يغط الآن في نوم عميق! متى يفيق؟ وفجأة . يتبدّى في ظلام الأفق القصي ، بعيداً ، نهد التل الوحيد النابع من القاع : تل غويران العتيد . خلف التل ، غرباً ، أصل الراحة والأمان . ومن هنا إلى هناك ، عليَّ أن أذرع القاع وأن أشرع الماء . وفجأة ، ينسدّ النهر : الماء يتقَطَّعُ إلى مياه كثيرة! مياه تُشَرّق ومياه تُغَرّب . وأمواه

عـديدة ، أخـرى ، تشقّ مـعـالـم القـاع إلى البـقـاع : بقـاع ابن جليوي . بقاع ابن الكلب! آه! كيف أعبر الحفر والارتطام؟ كيف أصل ، وأصل حياً بلا خدوش؟ كيف؟ وأجدني ، حقاً ، أدور : يحدّني سدّ التراب القاطع . ويهدّني ماء الليل الساطع . اللعنة! العدو من ورائي ، والماء من إزائي؟ وليس لي ، واللّه إلا العَبْر أو القبر .

الحياة مليئة بالنماذج . والنموذج الذي نختاره يدل على نموذج وعينا .

إنسان يعرف ما يريد .

ويتحمل مسؤولية ما يعمل .

ولا يقبل الانصياع .

ليس للماضي قيمة إن لم يكن موضوعاً للنقد .

ولا قيمة للحاضر إن لم يكن موضوعاً للانتهاك .

وأصير أحثني على الرغبة والإقدام . النهر يصعد ، أصعد ، أنا الآخر . النهر يهبط ، أهبط أنا الآخر . وقريباً عند لمعة الفجر الأولى ، ألحق الآخرين . أندسُّ في الفراش الدافىء عميقاً . أشرب ماء الدن النقيع . أشربه حتى التخمة والانصهار . بلى! لكأنني بدأت أشم رائحة الخبز المسائي القديم : خبز آخر النهار والليل – الخبز الويل . ولكن ، كيف؟ كيف تنبع رائحة النار من

الماء؟! كيف؟! صرت أخبط الأرض بماهيتي كلها . أريد أن أشقها شقاً . أن أفلق الكر ، كما فلق بعصاه الفر . ومثل الكلب المدرب ، أركب الماء . أحسني أطير . أنشهل العلو بعد العلو . لكأن أحشائي خلاء . إلى أين وصلت؟! أضواء البيت البعيد ، أخذت تلوح الآن! تُلْمَحُ نوراً يأخذ البصر والفواد . وأكاد أصل . لا أكاد .

وأصير أحث نفسي ، من جديد : العزم من حديد! المظاهرة الجديدة ستنطلق بعد قليل ، ولا بد . هذا الصبح ، بعد ساعات . الآن . ربما ، هذا الآن . مظاهرة المظاهرات . وأكاد أرى أول الجمع يصعد العلوة ، في التو . يسبقني هنيهة أو هنيهات . وفجأة ، أقذف اللجة والريح ، وأنا أصيح : يا أماه ، يا بنت الكلب ، يا أماه! كنت قد بدأت أحس أن الانفجار قريب . انفجار يشبه الرقصة المجنونة : رقصة التوهج والاضطراب . وأصير أنطُّ : أخيراً ، ها أنذا في «الحوش» . الحوش الذي ألجه ، مرة أخرى ، في آخر الهجرة والليل . الحوش الغافي . حوش البؤس والوعثة والانكسار . وأنقذف عليهم كلي . أنقذف خارجاً من الماء إلى القاع . أحيطهم ولا يحيطونني . أعدهم واحداً ، واحداً : النائمين والساقمين والمُمَددين جنباً إلى جنب وبلا أصفاد . اللعنة! هذه الأضرحة المهملة ، كلها لهم؟ وذلك الضوء البعيد الفاتك ، ضوء الحسكة والخابور ، لمن يفتح الشبق والليل؟

وفوقهم أتوقف . أتوقف استياء . أتملّى الخلوة والريح . أكاد . من جديد أصيح . لكن الصوت يلجمني . الصوت! صوت متواطىء ينوش شغاف القلب . اللعنة من جديد ذلك الصوت! صوت المذياع القديم ، الذي لا ينام . مذياع جارتنا العتيدة : «أم سلطان» . بقوة أصيخ السمع . أمدّ قامتي النحيلة نحوه : الصوت! ماذا يقول الصوت؟ «أم سلطان» لم تنم بعد! العهد لم يزل هو العهد؟

ولكن بلى! ولكن لا! للصوت هذا رجّة وحنين . به ، انبهار وانكسار . صوت يُذمّر القلب ويحيّر اللبَّ ، هذا الصوت! وهُمْ ، مع ذلك ، ينامون!؟ الاضطراب غدا ، الآن ، شاملاً وأكيداً : أمام هذه الأرجل والأطراف ، النفَسْ تعاف ، والقلب يخاف! يَدُ مَنْ هذه؟ وهذه رِجْل مَنْ؟ ورأس مَنْ هذه؟ وهذه بطن مَنْ؟ وأية قبة هي هذه القبة؟ وهذا الجزء من أي جسد ينبثق ، وإلى أي جسد يروح؟ آه! هذه الأجساد المنهكة النهّية ، والأرواح البائسة الشقيّة ، لَمْ تتغير منذ الغروب! في الصبح تشقى ، وفي الليل تذوب! لا . لَمْ أعد أطيق صبراً . أهجم عليهم ، إذن؟ أهجم في التو؟ أشيل الأغطية؟ أهرس الأعضاء؟ أكشف للضوء الأنحاء؟ ابدأ من هنا أم من هناك؟

كنت ، عمقاً ، أتعدّد وأتبدد ، والمذياع القديم يستولي اللحظة بعد اللحظة عليّ . يردد في ظلام ذلك الليل البهيم : بالضيعة اصحينا بَكيّر / على صوت العصافير / قلنا شو صاير

اليوم / قالوا الفرح عمّ القوم / وحدة صارت بها اليوم / غالية علينا كتير كتير!

وكنت أردد : من أنت خليل النعيمي؟ من أنت؟

خليل النعيمي، طبيب جرّاح، وروائيّ عربيّ سوري، يعمل ويقيم في باريس. صدرت له الأعمال التالية:

روايات

- «الرجل الذي يأكل نفسه» : - ط١/ دار العودة بيروت ١٩٧٣ - ط٢/ دار الثقافة الجديدة ، القاهرة - ط٣/ الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة .
- «الشي» : ط١/ دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٠ - ص٢/ دار الجمل ، ألمانيا .
- «الخُلَعاء» : ط١/ منشورات آهواء ، باريس . - ط٢/ دار الثقافة الجديدة ، القاهرة . ط٣/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .
- «تَفْريغ الكائن» : ط١/ دار شرقيات ، القاهرة . ط٢/ الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة . ط٣/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .
- «القطيعَة» : ط١/ دار الثقافة الجديدة ، القاهرة . ط٢/ دار شرقيات ، القاهرة . ط٣/ الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة . ط٤/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .
- «دمشق ٦٧» : ط١ دار الجَمَل ، ألمانيا . ط٢/ الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة .
- «مَديح الهَرَب» : ط١/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

في أدب الرحلة

- «مـخـيلة الأمكنة» / دار السـويدي ، لـندن - أبو ظبي ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .
- «كتاب الهند»/ دار السويدي ، لندن - أبو ظبي ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .
- «قراءة العالم» / دار السويدي ، لندن - أبو ظبي ، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

قيد الطبع

- «الطريق إلى قونية» .

T H E R U P T U R E

رواية
NOVEL

القطيعة

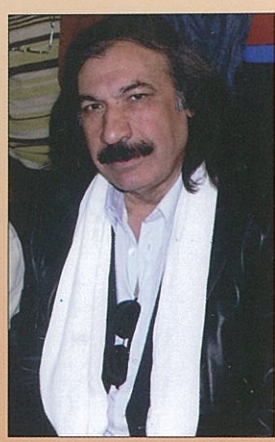

إنّ رواية (القطيعة) تمثّل مرحلة مغايرة في الرواية العربيّة المعاصرة . لا تكتب للحكي ، أو لتصف أو لتسلّي أو لتعظ أو حتّى لتنتقد ، بل لتنقض وتهدم وتسعى لتحقيق تغيير جذريّ ، وقطيعة مع كلّ ما هو سائد في الرواية والفكر والقيمة والبنية الأدبيّة ؛ وهي لا تسعى ، بكتابتها الخشنة المكدّسة المتشابكة ، إلى إقامة بنية جميلة ، بل إلى إقامة بنية مغايرة مقلقة محرّضة على التجاوز ، ولهذا قد يصدق عليها هذه التفرقة الّتي ميّز بها كانط بين الجميل والجليل ، فهي ليست الكتابة الجميلة المتّسقة والمحدودة العناصر الّتي تثير الإحساس بالمتعة ، وإنّما هي الكتابة الغامضة الضبابيّة الّتي تثير الإحساس بالرهبة والعذاب قبل الإحساس بالمتعة على حدّ تعبير المفكّر الفرنسيّ ليوتار تفسيرًا لحركة ما بعد الحداثة .

◆ **محمود أمين العالم**

ISBN 978-9953-36-379-X
9 789953 363790